جوع العسل

رواية

زهران القاسمي

الإهداء :

(١)

ذَهَبَتْ ، وبقي مُعلقا من شرايين قلبه، لا المكان اتسع له، ولا قدماه استطاعتا أن يحملنه ليمشي مكملا عمله، بقي جالسا بينما الظل ينكمش معلنا ظهيرة حارقة، وكان عليه أن يتذكر الطرود التي تنتظره ليأخذها معه في سيارته، ولولا لسعة الشمس المتمددة إلى قدميه لبقي مكانه عالقا في تذكر كل ما حدث، هل حدث حقا؟ هل كانت بجانبه تشرب من قهوته، وهل ضحكت ثم رحلت ليبقى شيء في نفسه، شيء يشبه الحزن وليس بحزن، يشبه الفرح لكن به وجع، يشبه زرقة السماء في يوم صحو وهي تتبقّع ببضع سحابات بيضاء، أو ربما يشبه انجراف السيل الهادر لحظة قدومه من الوديان البعيدة.

قبل ذلك كان كأحد العبّاد الخاشعين في خلوتهم منفصلين تماما عن الحياة التي تحيط بهم، كالذين تسري الحكايات عنهم وقد تركوا الدنيا وعاشوا مبتعدين عن الأنظار في قمم الجبال البعيدة، مثلهم يبدو في انحناءته متفحصا خلايا النحل في ذلك الصباح الربيعيّ.

المكان الرحب الذي اختاره في وسط غابات السمر التي قد بدأت تسقط أوراقها لتظهر عارية تماما دلالة على قرب موسم الإزهار، المكان الذي لم يكن يسكن قربه أحد قط، هناك في ذلك السيح الفسيح الممتد من تخوم الجبل الأبيض وحتى سلسلة جبال الحلوي، هناك في خلوته الشاسعة يمارس ما يشبه الصلاة بهدوء تام وصمت لا يقطعه إلا تغريد بعض الصفارد في الجوار.

يمتد سطران مستقيمان من أعمدة حديدية تحمل صناديق خشبية قد رصّت بعناية عند بعضها ليحمل كل عمود طابقين من تلك الصناديق التي ما هي سوى خلايا من النحل المحلي التي اتجهت فتحاتها على جهتين متعاكستين، إحداها إلى جهة الشرق والأخرى جهة الغرب، وهو بينها في انحناءته تلك غير عابئ بما يحيط به، ولم يكن ليشعر بأحد يطرق تلك البقعة.

عينان ترقبانه من سفح جبل قريب، توزعان نظرهما ناحيته تارة وناحية الأغنام التي ترعى على السفح، ولقد أزهر العشب في كل الأرجاء، وفي الجوار يربض كلب سلوقيّ يأكل النعاس عينيه ولا يبدو مكترثا بالقطيع الذي تركه يسرح كيفما شاء، أو ربما كان ينتظر إشارة من صاحبة العينين التي قد بدأت تهمهم بتعويبة حزينة في ذلك الصباح الباكر.

تطرق المكان سيارة تقطع الدرب الترابيّ متجهة شمالا يمتد خلفها ذيل غبار كثيف ما يفتأ ينبعث من تحت إطاراتها ثم يتساقط على مهل وكأنه يود البقاء أكبر قدر ممكن من الزمن في الهواء، تمر بالقرب من المكان الذي به الرجل وما زال على انحناءته تلك يخرج إطارا مملوءا بالنحل ويبدأ في تفحصه واستكشاف ما به، وما كان ليكترث بذلك الطارق للمكان والذي حتما سوف يختفي بعد ثوان معدودة في الدرب الجبليّ.

في هذا الفصل من السنة حيث يبدأ تكاثر النحل وتخرج فلوله باحثة عن المرعى في رحيق الأزهار التي قد تفتحت في الشجيرات والأعشاب الجبلية، يصير لزاما عليه أن يتفحص في كل اسبوع خلاياه مرة أو مرتين باحثا عن البيوت الملكية التي يبدأ النحل في صنعها، إيذانا منه بموعد انقسامه، وحتى لا يخسر الكثير من تلك الخلايا المنقسمة فعليه أن يقسّم كل خلية يجد بها

بيتا ملكيا ليمنع بذلك انقسامها الطبيعي ورحيلها خارج منحله لتسكن كما تشاء في أحد الشقوق الجبلية.

تصل التعويبة إلى سمعه وهو يمسك بإطار قد اكتشف فيه بيتا ملكيا في خلية اكتظت تماما عن آخرها بالنحل فيضعه في صندوق صغير بالجوار ثم يبدأ في البحث عن الملكة الأم في كل إطارات الخلية.

ملاحقا ببصره حركة النحل الدءوبة في كل إطار بينما تعطيه تلك التعويبة القادمة من مكان قريب حافزا على العثور على ملكته الأولى، يهمهم بشيء يشبه الفرح أو يحاول أن يقلد ايقاع الأغنية الجبلية التي تحملها نسمات الهواء وقد أضحت واضحة جلية الآن، وبرغم أنه لا يدرك كلماتها إلا أن شيئا في رخامة ذلك الصوت الأنثوي المغني بها جعله ينتشي قليلا وخصوصا بعد أن عثر على ملكته مندسة في زاوية الإطار بين حشد كثيف من مواطناتها.

وضع الإطار في صندوق جديد صغير ثم وضع معه إطارين آخرين من الخلية الأم وبعد ذلك قام بإغلاق فتحة المرعى ووضع الغطاء على الخلية الجديدة ثم حملها إلى سيارته البيك آب التي أوقفها بالقرب من المكان. بعدها أعاد إطار النحل ذا البيت الملكيّ إلى الخلية الأم ثم أغلق الغطاء لينتقل إلى الخلية المجاورة.

فجأة يُستثار النحل في الخلية المفتوحة، لقد قطع شوطا كبيرا منذ الصباح الباكر على خلايا كثيرة بنحله الهادئ، حتى وكأن تلك الحشرات لا تكترث به ولم تشاغبه، لم تحم حوله ولم تتراقص منذرة إياه، فقط عندما رفع غطاء تلك الخلية الأخيرة والتي يعرف هدوءها من قبل فما الذي حدث ؟، خرج سرب كبير من النحل وحام حوله، بدأ يطن محاولا اختراق قناع الرأس، وقف بعضه على القماش السميك محاولا غرس إبرته السامة، اقتربت نحلة بدت غاضبة جدا وعندما لم تستطع اختراق الشبكة الرقيقة أمام وجهه فبدأت تنثر السم في الهواء لتصل الرائحة إلى أنفه.

لم يكن ليكترث بما يدور، لقد تعلم منذ زمن بعيد أن يحافظ على هدوءه، فهو يعلم تماما ما الذي يريد النحل الوصول إليه من تلك الثورة في وجهه، يدرك تماما أنه يحاول بث الخوف في نفسه، النحل يشم رائحة الخوف في ضحيته ومن ثم يتغلب عليه باحثا عن ثغرة يلسعه منها، لكن الرجل واصل فحصه للإطارات واحدا تلو آخر برغم الهبّة الشديدة والهجوم الذي صار يستشرس شيئا فشيء حول قفازات اليد أيضا.

لقد وصل إلى عمق الخلية، إلى وسطها تماما عندما شعر باللسعة في معصمه من فوق القماش، حيث تجمعت بضع نحلات يغرزن إبرهن المسمومة، عندها وضع الإطار مكانه وبدأ يحرك الإطارات الأخرى إلى مكانها محاولا غلق الخلية وتأجيل فحصها ليوم آخر أقل استثارة، ثم ليبحث بعدها عن سبب جعل تلك الخلية التي كانت حتى وقت قريب من أكثر الخلايا هدوءا، فلا بد من سبب قوي استثارها وجعلها غاضبة جدا.

في الوقت الذي يهيئ فيه الصندوق للإقفال دخلت نحلة من أسفل أرجله، كان يلبس إزارا أبيض يمتد حتى أعلى جوزتيه، شعر بها وهي تتراقص بين رجليه، لكنها لم تتح له الوقت ليخرجها حتى أحس باللسعة تحت ركبته اليسرى، وضع يده على مكان اللسعة فدخلت نحلة أخرى وقد انتهت إليها رائحة السم فأثارتها وعرفت الطريق السريّ لجسده، لسعته في قدمه، بدأ النحل يتكثف في

الأسفل، ها هي الطريق الآن مفتوحة من المنفذ المفتوح للهجوم عليه كضحية لابد من طرده من المكان، حاول نفض إزاره، حاول إغلاق فتحته حتى يمنع النحل من الوصول ثانية ولكن مع استشراسه وإثارته لا فائدة بدت مما يفعل، عندها أغلق غطاء الخلية على عجل وخرج من بين الخلايا مسرعا وهو يحاول تفادي ما استطاع من اللسعات.

رفع رأسه ليراها واقفة قبالته، خمّن في نفسه أنها تريد محادثته، رفع يده محييا فرفعت يدها أيضا دون أن ينبس أيا منهما بحرف، ظل يتألم في داخله مما عاناه من تلك الهجمة المباغتة له في ذلك الصبح، والسم الآن يُشنج عضلات رجليه والحرقان ينتشر، شعر كأن عشرات الرماح الصغيرة مغروزة الآن في رجليه، وهاهو يخرج من تلك المعركة خاسرا كعادته في مواجهة كائنات يحبها برغم ثورتها أحيانا، وبرغم الألم الذي ينتقل الآن في دمه لكنه يتأسف على موت تلك الكائنات الحبيبة وهو يدرك بأن غرز إبرة واحدة فيه يعني موت نحلة، إذ تخرج تلك الإبرة من جعبة النحلة مع جزء من جسدها لتموت بعد ذلك.

كم من اللسعات تلقى؟ لا يدري، ربما سبع أو ثمان لسعات موزعة هنا وهناك، لكن كل ذلك لا يعنيه وهو يقف الآن صامتا أمام تلك المرأة التي وقفت بالمكان دون أن تقترب، لملم نفسه من الداخل معيدا الهدوء إليها، ثم توجه مبتعدا ناحيتها ليعرف ما الذي تريده، ولقد أنذرها بإشارة منه أن لا تتقدم خوفا عليها من مغامرة لا يحمد عقباها.

وجهها المصقول من أثر الشموس التي لفحته أوهمه بأنه أمام امرأة لا يسمع عنها إلا في حكايات القرويين عندما يتسامرون، فهو الذي سمع أحدهم يصف وجه امرأة بأنه يلمع كأنه صفاة، كانت بضع شعرات ناعمة يتراقصن على جبينها، بينما أنف صغير يتوسط وجهها النحيل الذي تلتمع فيه عينان أحس بهما تشرقان عليه مثل شمسين ينغرز وهجهما الآن في داخله كما انغرزت إبر النحل، وعندما تكلمت عاد إليه ذلك الصوت الرخيم الذي ظل يسمعه طوال الصباح الباكر في تعويبات القمم.

وقف تفصله مسافة أمتار عنها، ولكنه استطاع أن يقرأ تفاصيل وجهها تماما، حياها واعتذر لها عن الأذية التي قد يسببها لها وجود منحله في ذلك المكان، لكنها هزت رأسها وقالت له:

- الأرض أرض الله.

في ثوبها البسيط الملون تناثر حقل من الزهور المختلفة الأحجام والألوان ظهرت هي وكأنها غارقة حتى عنقها في مرجه، بينما ألحفت رأسها بقطعة قماش صفراء فاقعة، فعنّ له أنها سيدة الألوان والحقول، إذ من الصعب أن ترى إلا السواد المنتشر الآن في كل مكان في عباءات النساء اللاتي يخرجن من بيوتهن.

هل رآها قبل هذا اليوم؟ لا يعرف، لكن خيالها كان كثيرا ما يراه على الطرقات متنقلة بأغنامها سارحة بها من واد إلى آخر، أو ربما كانت تجلس تحت أشجار السدر الكثيفة، فبصره الذي يبحث في التفاصيل الدقيقة للأمكنة يتذكر بأنه لمح شيئا منها ذات يوم، هناك في وادي علكا مثلا أو في تحت ظلال الغاف والسدر في وادي الراك، قد تكون هي وربما غيرها أيضا، لكنه أحس بأن الربيع قد تفتح على مرج من الأعشاب الجبلية وبأن الموسم القادم سيكون وفيرا جدا وسيجني منه الكثير من العسل.

- عندك عسل ؟
- لا ، الموسم بعده ما بدأ
- أريد من عندك ، لا تنساني، يوصفوا عسلك زين
- وين القاش؟ ومن انتي؟
- بتلقاني فكل مكان، يوم غايته.

ابتسمت له، وكأن آلهة قديمة تسكن الجبال وقد نسيها البشر قد هبطت إليه ذلك الصباح، أشارت إليه مودعة وتركته واقفا مكانه، لا يدري هل هرب من لسع النحل إلى تلك البقعة؟ أم أنها انبثقت له من الغيب فجأة لتعطه دافعا للحياة، وكما رآها بغتة فها هي تنسحب بغتة وقد خلّفت خواءا كبيرا في نفسه، لا يعلم ماذا فعلت به، لا يعلم ماذا زرعت في قلبه أو ما الذي أخذته معها وهي تصعد القمة وتغيب في شقوقها الحجرية العظيمة.

أخرج من سيارته لباسا واقيا للنحل، الوقت ما زال مبكرا للعودة من المنحل ولكنه بسبب ما ألمّ به لابد من احتراسه لذلك تدرّع باللباس الذي غطى جسده كاملا وعاد ليتخلل صفيّ الخلايا مكملا فحصه وبحثه عن البيوت الملكية.

كان الشتاء ثقيلا على خلايا النحل، شدة البرد التي حلت ذلك العام أفقدته الكثير، لقد ماتت الحشرات حتى اضمحلت بعض الخلايا وكاد أن يفقدها، ولولا لطف الله لأصبحت خسائره فادحة، وهو الذي يحاول ما استطاع أن ينقذ ما بين يديه وبما يحويه من خبرة، حتى جاءه اتصال من صديقه النحال محمود بن عبدالله والذي يسكن في المضيبي، سائلا عن أحواله بعد قطيعة دامت لأشهر غابا عن بعضهما في مشاغل كثيرة، وبعد العتب والسؤال عن الصحة لابد من أخبار النحل وماذا فعل كل منهما، فما كان منه إلا أن اشتكى قلة حيلته فيما يحدث لمنحله الذي على وشك الهلاك.

لكن محمود بن عبدالله أخبره بضرورة نقل المنحل إلى مكان آخر، قال له:

- عندي لك مكان بيخلي نحلك يجنّ من المرعى.

فبدأت من هناك حكاية جديدة عليه، إذ لم يكن ينقل نحله بعيدا عنه إلا مسافات قصيرة لا تتعدى ثلاثين كيلومترا ولكن هذه المرة وبنصيحة صديقه قرر نقله إلى الجوبة، والتي تبعد ما يقرب من مئتين وخمسين كيلومترا عن بيته.

طمأنه محمود بأن المرعى هناك كثيف جدا، وأن الكثير من النحالين قد أخذوا مناحلهم إلى المكان، ولأن له منحله الخاص فلقد بدأ يستطرد التحسن الكبير الذي طرأ عليه، وكيف أن النشاط الذي فقده في الشتاء عاد وبشدة لتمتليء إطارات الخلايا بالبيض الجديد، حتى أنه بعد اسبوعين فقط أعاد الإطارات الفارغة التي سحبها من الخلايا لأن كثافة النحل زادت وبدأت زوائد الشمع تتدلى من الأسطح دلالة على احتياجاتها لإطارات أخرى.

بعد يومين من ذلك الاتصال كان عزان بن سعيد يشد رحاله على سيارته البيك آب التي امتلأت بصناديق النحل، أعانه محمود على حملها، أحضر سيارته ليأخذ معه الكراسي الحديدية، لقد

انتظرا حتى غربت الشمس وأذن المؤذن لصلاة المغرب، حينها ومع عودة آخر النحل أغلقا فتحات الخلايا التي يسرح منها للمرعى.

الطريق طويل جدا عليه وعلى النحل، كيف له أن يقطع تلك المسافة ليلا حتى يصل إلى المكان المنشود، ولكن في قلبه فرح من كلام صديقه، كان ممتنا له على تلك الخدمة التي قدمها له بدون مقابل، لكنه يعلم بأن من يعيش على كرم النحل سيتعلم منه الكرم والعطاء اللامحدود دون أن ينتظر ردة الفعل من الآخر.

على سرعة متوسطة بسيارتيهما إذ لم تتعدى الثمانين كيلومترا في الساعة قطعا تلك المسافة وبعد ساعات وصلا إلى المكان الذي كان سهلا منبسطا على مد البصر، تحده الرمال الناعمة من الشمال، بينما يمتد انبساطه إلى تخوم بحر محوت شرقا دون أن يعترض المكان جبل واحد.

هناك كان محمود قد وضع حوض الماء الذي يشرب منه النحل بعد أن أجرى له أنبوبا من خزان ماء صغير، ولقد اختار المكان بعناية حتى لا يتعرض إلى تيارات الهواء النهارية التي ستشتت النحل ولا يعرف طريقه إلى خلاياه، أرض منخفضة بين تلين سوف يعملان كمصدات للرياح وبالتالي فهو لا يحتاج إلى وضع مصدات ولا حواجز حول ذلك المكان.

كان القلق ينهش عزان بن سعيد على وضع النحل هنا لوحده في هذا الامتداد الواسع، ولكن صديقه أكد له بأن يخسر نحله هنا بفعل فاعل أفضل له من أن يخسره وهو أمامه، فهناك سيبعث فيه الحزن كل يوم على حالته المتهالكة، لكنه هنا إن لم يصبه شيئا فسوف تقوى الخلايا وتنشط وبالتالي سوف تنجو من ذلك الهلاك المحتوم.

كانت الساعة تقارب الثالثة صباحا عندما انتهيا من صف الصناديق وفتح بوابات المرعى وبعد أن تأكدا من أنهما لم يتركا خلية مغلقة، انتحيا جانبا من المكان وبسطا على الأرض بساطا وناما على الأرض من شدة التعب ولم يشعرا بالوقت حتى استيقظا عند الساعة التاسعة والنصف، وبرغم أن الشمس قد أشرقت منذ مدة إلا أنها لم تكن شديدة اللسع. وعند اقترابهما من المنحل لاحظ عزان بن سعيد بأن النحل يسرح في اتجاهات مختلفة وبأن النحل العائد يحمل الكثير من حبوب اللقاح في أقدامه، مما شرح صدره وشكر صديقه.

كانت تيارات الهواء قد بدأت مع الظهيرة، تهب الرياح من جهات شتى، وتدور الزوابع هنا وهناك، لكنها لا تصل إلى ذلك المكان المنخفض، حتى أن عزان لاحظ راحة النحل في عودته من السروح وهو يدخل إلى بيوته.

المكان الفسيح في تلك البقعة أشعره بالخوف، امتداد للبصر في كل الجهات حتى الأفق المغبرّ بخيط كثيف من الغبار، ذلك المكان وخز قلبه، كيف سيترك خلاياه هناك وحدها دون رقيب، ماذا لو حدث وسرقت أو دمرت بفعل فاعل، الضيق يملأ قلبه، لكنه يثق بصديقه الذي يعرف المكان وأهله، والذي لديه من الخبرة ما يكفي لكي يدرك مناطق الرعي التي يحتاجها النحل، مع هذا ظل صامتا ولم يخبر صاحبه بما يجوس في صدره.

أخذه محمود في جولة ليستكشف المنطقة حول المنحل، قطعا مسافة طويلة وسط أعشاب العلقا ذات الزهور اللؤلؤية الصغيرة، لاحظ على بعضها النحل وقد بدأ في تجميع غذائه، وهناك في

أطراف المكان تفتحت أزهار الحرمل البيضاء على امتداد يشعر الرائي بأنه يقف وسط حقل من الحقول المزروعة بعناية، هناك تخف حدة الصحراء وقسوتها، كان عزان مندهشا وقد بدأ صدره ينشرح شيئا فشيء. وحتى مساء ذلك اليوم، ظل الصديقان قريبا من المنحل وقد قررا المبيت هناك والعودة إلى ديارهما في الصباح الباكر.

هبّت الرياح من جهة الرمال، امتلأ المكان بذرات الرمل المتطايرة مع الرياح العاصفة، وبينما الشمس تسقط رويدا رويدا ناحية الأفق، بدأت الريح تهدأ تدريجيا حتى توقفت، حينها أصبح المكان أكثر هدوءا وانخفضت الحرارة قليلا، ثم جاء دور النسيم التي هبّت بلطفها لتصاحب الليل معلنة بذلك كرمها المعتاد في مصاحبة المسافرين الذين ما زالوا يطرقون المكان، تماما كما قوافل البدو والتجارة التي كانت تقطع تلك الأرض متنقلة من الشمال إلى الجنوب والعكس. وفاز برقدة عظيمة لم يستيقظ خلالها إلا مرة واحدة ليغير من وضعية نومه، وفي الصباح عادا إلى الديار.

يتذكر كيف أن المكان في قريته أصبح خاويا جدا، أدرك حينها ارتباطه الكبير بتلك الكائنات الصغيرة التي أخذت الكثير من وقته، يكفي أن يذهب ليجلس في وسطها كل صباح أو مساء ليستمع إلى أصوات الطنين المختلفة التي تصدرها، فكيف سيقضي وقته الآن ولا نحلة تحوم حول رأسه مهددة ولا تطرب أذنه من طنينها، وأين سيذهب في ذلك النهار الشتائي، فلا الجبال تقبله لأنها تغرق في الوحشة الآن ولا البشر الذين انشغلوا بحياتهم، لقد اتضح له بأن حياته فارغة تماما خارج عالمه الذي كان يعيش فيه.

في كل صباح يستيقظ بهمة من يود الذهاب إلى المكان المعهود ولكنه يتراجع إذ يتذكر بأن لا شيء هناك ينتظره الآن إلا الوحشة القاتلة، البرد الذي كان يقاومه في الصباحات الشتوية، والأمل الذي يملأ نفسه إذ كلما رأى النحل يجمع الكثير من حبوب اللقاح فرح واستبشر بالخير، لكن البرد كان قاسيا جدا على نحلاته الصغيرة، فالنحل لا يقوى على البرد، ولذلك يوجعه قلبه إذ يرى قبل شروق الشمس نحلا عائدا من المرعى وقد حمّل في أرجله الغذاء يتساقط تعبا وميتا على أسقف الخلايا. وعندما يبدأ في فحص منحله خلية إثر أخرى يخرج من المكان مصابا بكآبة شديدة، وهو يشاهد تردي وانهيار الخلايا وفقدها للكثير من جيوش النحل، وبينما ينفض الإطارات الفارغة ويخرجها ليحفظها في بيته لوقت الحاجة، يوخزه ألم الفقد الكبير ويخاف أن تموت الخلايا كلها حتى نهاية الشتاء.

مع ذلك يعود ثانية في المساء ليكون قريبا من المنحل، يعاهد نفسه أنه سيترك الخلايا وشأنها ولن يقترب منها لإسبوع كامل، ولكن ما إن يصلي العصر حتى يركب سيارته ويذهب، لقد أدمن تواجده هناك، وفي حين أن لديه نخلا لكنه لم يوليها اهتمامه أبدا، بل أوكل للعامل البنجالي الذي يساعده مهمة رعايتها .

بعد خمسة أيام قرر الرحيل إلى الجوبة، اتصل بصديقه محمود وأخبره بذلك، لقد وجد نفسه عالقا تحت عمود ثقيل من الفراغ لا يكاد يستطيع حمله، وقد شعر بألم في كتفيه عزا ذلك إلى قلة العمل وخاف أن تعود على الركون والدعة أن يذبل وينكسر وتموت الجذوة في داخله، لذلك هبّ من مكانه عندما سطعت الفكرة وانبرى يكتب الأشياء التي يحتاج إليها في مكوثه هناك.

طباخة وغاز، حقيبة ملابس، فراش للنوم ومخدة، حصير للجلوس وكرسي، خيمة للظل، راديو، أواني للطبخ مختلفة، خزان ماء متوسط، بهارات وطحين وارز وخضروات وفواكه ، بيض وجبن وبعض المعلبات ، مصباح وأشياء أخرى.

لقد اصطحب ما أراد من بيته وعرج على أحد مراكز التسوق واشترى الباقي ثم ذهب ليقيم هناك تاركا قريته وبيته ليكون قريبا من منحله.

وصل قريبا من العصر، كان لديه بعض الوقت ليؤمن له مكانا نظيفا وفي منأى عن الرياح حتى لا تزعجه في تنصيب الخيمة وفي اعداد الطبخ، وجد المكان المنشود وأعد العدة وبعد ساعة وبضع دقائق صار المكان وكأنه مسكون منذ الأبد وآهلا من كثرة الأشياء التي حطت عليه.

المكان الفسيح المنبسط الخالي إلا من طنين نحله ومن صوت الرياح الناعمة تمر على تلال الرمل المحيطة به، الشمس وهي تودع المكان مخلفة أشعتها الذهبية على امتداد التلال وفي الأفق تتماغط بضع سحابات صغيرة تندمج أحيانا وتتلاشى أحيانا أخرى ثم تعود، وهو هناك بين طابورين أبيضين يمارس طقوسه التي يحبها، ولقد بدأت البشائر تعود إلى وجهه كلما فحص خلية ووجد الكثير من حبوب اللقاح المخزنة في البيوت السداسية.

وجد خمس خلايا تنتظره بزوائدها الشمعية تطلب براويز جديدة، ما كان منه إلا أن بحث في خلايا مجاورة واستخرج منها براويز فارغة ووضع واحدا منها في كل خلية.

عاد التفاؤل إلى نفسه، جلس أمام خيمته قبيل غروب الشمس يكتب في مفكرة هاتفه الأشياء اللازمة التي لابد أن يذهب ليحضرها معه في الصباح الباكر من نهار اليوم التالي، فهو يحتاج إلى براويز كثيرة وأساس شمع جديد، سيحضر مبدئيا مئة برواز وخمسة علب من أساس الشمع، عشرة أكياس من السكر ذات الخمسين كيلو جراما، حوضا ليضع عليه محلول السكر وقطع فلين يقف عليه النحل للشرب حتى لا يغرق، أشرطة العلاج عن طفيل الفاروا حتى يضمن سلامة نحله من الأمراض ويسعى ليتكاثر بسرعة.

في تلك الليلة نام خارج خيمته مستلقيا يراقب صفحة السماء التي أضاءت بملايين النجوم، كانت عيناه مسافرتين إلى التخوم البعيدة في سحابة الكبش العظيمة (درب التبّانة) كما يطلق عليها القرويين، لم يتذكر ما الوقت الذي أسبلت فيه عيناه ليدخل في رقدة عميقة لم يصحو منها إلا قبيل الفجر، كان الصمت حوله يورق ويخضرّ ولا تفتات منه إلا بعض الحشرات الليلية التي تئزّ بين جوانب المكان.

في الصباح قفل راجعا إلى السوق ليشتري ما يحتاج إليه، بعد أن أعد له وجبة خفيفة من البيض المقلي وبعض الجبن المخلوط بالعسل.

عاد في حوالي الساعة الحادية عشرة وبدأ في تجهيز حوض التغذية، ثم فتح كيسا من أكياس السكر وبدأ يأخذ منه بمقاييس ليضعه في دلو خصصه لصنع المحلول، وكما هي عادته ومعرفته في صنع المحلول السكري الذي يحتاجه النحل في تلك الفترة الممحلة من العام والتي لا يوجد بها رحيق ويحتاج النحل فيها له حتى يعوض ما يحتاجه من طاقة ويفتح المجال لكل ملكات الخلايا

لوضع البيض وللتكاثر، كان يضع كوبا من السكر مقابل كوبين من الماء وهكذا حتى ملأ الدلو وبدأ يخلط بيده الماء حتى ذاب السكر كله وأصبح الآن جاهزا ليقدمه للنحل.

سكب المحلول في الحوض ثم وضع قطع الفلين على المحلول حتى ضمن بأنها غطت كل أجزاء الحوض وجلس جانبا يراقب ما يحدث.

حامت بضع نحلات على الحوض، حطت واحدة وبدأت تتذوق المحلول ثم طارت عائدة إلى خليتها، حطت النحلات الأخرى متوجسة في البداية ، ثم شربت وعادت، بدأ النحل يتهافت شيئا فشيئا على الحوض حتى امتلأ كاملا، لقد خرجت جيوش النحل من صناديقها تأخذ الغذاء وقد شكلت عليه ما يشبه زوبعة صغيرة، بطنينها الذي ملأ البقعة.

ترك المنحل وذهب ليعد له وجبة غدائه حيث وضع المطبخ في جانب من خيمته وبعد أن تغدى وصلى العصر استسلم قليلا لقيلولة صغيرة ثم خرج يتمشى في جوانب الرمل مستكشفا المكان بقدميه.

صعد على عروق الرمل مستطلعا البعد، هل ثمة من يسكن بالقرب، هل من طارق للمكان، ولكن الرمل كان يمدّ عروقه المتكاثرة مثل بحر تتوالد أمواجه موجة إثر موجه، صعد تلا عاليا، ظلت قدماه تغوصان في الرمل وهو يصعد، فوجد مشقة كبيرة جدا حتى يصل إلى آخر نقطة، لهث كثيرا، أدرك صعوبة أن ترتقي تلا من الرمل، أدرك المجهود الذي يحتاجه لذلك مقارنة بصعود تل حجري في بلاده، وهناك على القمة كان يراقب الزوابع التي تتراقص في المدى بينما تصله نسمات الهواء الرطبة الناعمة فتلطف الوجود.

في البعد رأى ذيل غبار يتصاعد، رأى سيارة تخترق الصحراء قادمة من الطريق المعبّد ذاهبة ناحية بحر الرمل، وهناك حيث رآها تغيب في بقعة خضراء كثيفة من أشجار الغاف، انتظر خروجها من الجانب الآخر ولكن الغبار الذي تراقص خلفها هوى ومات في ذلك المكان، فتيقن بأن ثمة بيت قريب منه، وعليه أن يتعرف على جيرانه.

هبط من التل مسرعا وصعد سيارته واتجه إلى عيدان الغاف، لقد قدر المسافة بعشرة كيلومترات لكنها كانت أكثر من ذلك، فما إن وصل حتى كان عدّاد سيارته يشير إلى الكيلو السادس عشر، ولكن بسبب المدى المنبسط توقع بأن تلك الغابة قريبة.

في البدء لم تتضح له أية معالم للحياة عند الغاف، ولكنه تبع الطريق الترابي الذي قاده إلى تلال رمل قريبة، وعند أول منحنى عثر على مسكن للبدو، كانت خيامهم وعرشانهم منصوبة على شكل دائرة بينما يحيط بها سياج من القماش البنيّ الخشن، وبالقرب سياج آخر من الحديد دائريا أيضا تكتظ فيه رؤوس الإبل التي قدرها تصل إلى ثلاثين رأسا.

ما إن اقترب من المخيم حتى خرجت ناحيته امرأة في الثلاثين من عمرها، متوسطة القامة تضع برقعا على وجهها ، أوقف سيارته محاذيا لها وهبط يتبادل معها التحية، سألته عن حاجته فأخبرها بقصته مختصرا ما استطاع، حيث لاحظ بأن الكثير مما قاله لم تستوعبه بسبب اختلاف لهجته، فتحت له باب السياج ودعته لتناول فنجانا من القهوة حتى يأتي صاحب البيت، لم يمانع إذ كان

بوده أن يعرف الكثير من طبائع البدو الذين سمع الكثير عنهم ولكنه لم يصدف أن التقى بأحدهم سوى من يصادفهم في الدرب وقد توقفوا لشراء بعض احتياجاتهم.

كانت المرأة مرحابة، لقد وضعت صحن التمر والقهوة قريبا منه بينما جلست طرف الحصير تسائله عن بلاده وكيف جاء ومن أين عرف المكان وما الذي يفعله وحيدا في تلك البقعة التي لا ونيس فيها ولا جليس، وكان يجيب على أسئلتها ويوضح ضرورة نقل النحل من مكان إلى آخر بحثا عن المرعى تماما كما يفعل البدو في انتقالهم بحثا عن العشب والكلأ.

بعد قليل سمع جلبة لسيارة قادمة اتجهت مباشرة صوب سياج الإبل، وجاءه صوت رجل يصرخ بينما بدأت أصوات الإبل تعلو، كان البدوي يعطي الحشائش والتمر لها وهي تقترب راكضة للفوز بوجبتها المسائية، بينما صراخه يعلو أكثر وبعض الشتائم يلقيها هنا وهناك مختلطة في كلامه الذي لم يعي معظمه، لكنه عندما دخل إلى بيته هب مسرعا ليرحب بضيفه الذي لا يعرفه، وكعادة البدو شمّ بأنفه أنفه وحياه ثم جلسا يتناولان القهوة مرة أخرى.

لم يستطع الفكاك من قبضة البدوي إلا بعد أن تناول معه العشاء، كانت كبسة اللحم لذيذة لم يذق مثلها منذ سنين، طلب منه البدوي أن يعوده كلما وجد لذلك سبيلا، وأن لا يبخل عليه بطلباته لو احتاج إلى شيء.

عرف بأن البدوي اسمه حمود بن غابش وزوجته سلامة بنت الصعب، ولديهما أطفالا صغارا ما زالوا تحت الخامسة من العمر، شابان كريمان سكنا بمنأى عن الجميع في هذه الرملة التي كانوا يطلقون عليها شقة المناخ.

أخبره حمود بن غابش بأنه يضمّر نوق السباق لكثير من المشايخ وكبار رجالات الدولة، وبدأ يعددهم واحدا تلو الآخر، حيث عُرِف عنه أنه أحد القلة الذين يعرفون كيف يتعاملون مع النوق المضمرة، وكيف أن زوارا كثرا كل اسبوع يجيئون إليه من كل المناطق حتى من خارج عمان، قادمين بهداياهم وعطاياهم ليقضوا ليلة أو ليلتين بالقرب من مخيمه، مستظلين بظل الغاف ، يملؤون المكان برائحة الشواء وبكل أنواع الفواكه وأطيب المأكولات.

حكى له كيف فازت أول ناقة يضمرها في أحد سباقات الهجن الخليجية وكيف أن صاحبها أعطاه عن فوزها عشرات الآلاف، ومنذ تلك اللحظة والكثير منهم يحاول أن يكون له نصيب في تضمير نوقه، وهكذا ظل كل سنة تفوز احدى النوق التي يعمل عليها بمراكز متقدمة.

أخبره بأن لديه حساب في البنك يحوي مئات الآلاف من الريالات وكيف أن له الكثير من العقارات في أماكن عدة يجني من ورائها شهريا مبالغ رائعة، وعندما سأله عن نيته لتغيير هذه الحياة التي يعيشها للتمدن، قال له:-

- هذي حياتي، ما أقدر أغير فيها ولا أبدل.

في الطريق إلى منحله ظل طريقه في عتمة الليل بين تلال الرمل، اتجه غربا أكثر من اللازم وعندما شعر بأنه يتوغل كثيرا في الرمل توقف وصعد على تل ليراقب المكان المظلم ولكنه لم يستطع تبيان شيء، تذكر النجوم التي حملق فيها البارحة فرفع رأسه ليقرأ مواقعها واتجاهاتها،

عرف خطأه فعاد خطاه متتبعا آثار عجلات سيارته قبل أن تمحوها الريح، ثم انعطف يمينا ، ظل هكذا حتى اقترب من الطريق المسفلت، مشى بمحاذاته إلى الشمال حتى عرف المكان الذي خرج منه، تتبع عندها الدرب الترابي الذي أوصله إلى مخيمه، وهناك فرش كعادته تحت النجوم، كانت الساعة تشير إلى الثانية عشر والربع، لقد تأخر كثيرا في العودة بسبب تلك المتاهة التي كادت أن تقحمه في الهلاك.

في الصباح طرق المكان زوّار جدد، سمع صراخا بالقرب منه فصعد التل ليستوضح ما يحدث فوجد سيارة تجر خلفها كوخا حديديا، بينما يمشي قطار من الجمال خلف المقطورة قادمين باتجاهه. وعندما شاهدوه واقفا على تلة الرمل توقفوا ونزل رجلان من السيارة واتجها إليه، بعد التحايا سأله أحدهم:

- ويش جابك هنا؟

فأخبرهما بأن لديه منحل وهو يبحث له عن مرعى في هذه البقاع.

رفع أحدهما يده ملوحا بها وهو يوقل:

- لا لا ، هذي ارضنا ومناخنا، وجايين قاصدينها.

- الأرض أرض الله، والمكان يسع الجميع تفضلوا شوفوا لكم مكان وخيموا نكون جيران.

لكن الرجل قال وهو يصرخ في وجهه:

- ما نريد أحد يكون قريبنا، ونحلك هذا بيأذي أطفالنا وحلالنا.

أغمض عزان بن سعيد عينيه، وكانت عادته تلك كلما أراد أن يضبط من نفسه الصاعد، وأن يبعد عنه التوتر والغضب، قال للرجل:-

- إذا حبيت تخيم هنا أهلا وسهلا، بغيت تروح دربك أخضر، هذي صحرا كبيرة وتسع الجميع.

عقد الرجل الآخر عقدة بين عينيه مقاطعا له:-

- هذا نهاية كلامك؟

نظر عزان إلى الرملة من تحته متوجسا أن تحدث معركة بينه وبينهم ثم وبدون أن يرفعها قال لهما:-

- ما عندي كلام غيره.

انسحبا عن تلة الرمل التي يقف عليها عائدين إلى السيارة، شاهد القافلة وهي تنسحب من المكان داخلة عميقا في الرمل، توقع أن تنشب بينه وبينهما معركة قد يكون هو الخاسر فيها، لكنه عرف بأن القضية لم تنته بعد، فجلس هناك حتى العاشرة صباحا يترقب شيئا جديدا يلوح في الأفق.

في تمام الثالثة والنصف وبينما تنعّم بقيلولة قصيرة بعد وجبة الغداء جاءه اتصال هاتفيّ من صاحبه محمود، وكيف أن موظف دائرة الزراعة قد اتصل به يستفسر منه عن النحل الذي في

شقة المناخ إن كان يعرفه، فأخبره بأنه لأحد النحالين من وادي الطائيين يدعى عزان بن سعيد، كان موظف الزراعة غاضبا إذ كيف ينقل نحله دون أن يأخذ التصريح والإذن من الدائرة، وكيف أن الأهالي هناك قد اشتكوا عليه بأن نحله تسبب في لسع أطفالهم وحيواناتهم، وعليه أن ينقل المنحل ويعود به إلى ولايته حتى لا يتم اتخاذ اجراء المخالفة اللازمة.

عندما سمع عزان كل ذلك قال لصاحبه :-

- ولكن انت قلت لي بأن المكان ما يسكنه أحد.

رد عليه وصوته متوتر في سماعة الهاتف:-

- هناك تدخلات ما نقدر لها.

- قل له صاحبي يطلب مدة كم يوم قبل النقل وإن شاء الله خير.

بعد أن انهى المكالمة مع صاحبه جلس يفكر ما الذي سيفعله بالمشكلة التي انبثقت له من الرمل فجأة، كيف صار ذلك المدى العظيم والسيح الفسيح لا يسع لسكان المكان، بينما قريته الصغيرة برغم تناقضاتها فهي تتسع لكل شيء ودون تذمر.

قام فجأة إلى سيارته وركبها متجها بها ناحية الغاف مرة أخرى، وعندما وصل جاءت تستقبله سلامة بنت الصعب وهي تقول له:

- يالله حيك يا عزان، كأنه عجبك فنجان قهوتنا.

أخبرها بأنه يريد زوجها في موضوع خاص، فردت عليه:-

- نويت تتزوج من أهلنا؟

ضحك عزان وهو ينفي سؤالها، لكنه قال لها:-

- أنتم أهل الخير والكرم، وهذا شرف كبير ان الواحد يتزوج منكم، بس ما هذا الموضوع.

أفسحت له المكان ليجلس في انتظار حمود بن غابش، وفي ذلك اليوم تأخر كثيرا حتى غابت الشمس وحل الظلام، مما حدا بعزان أن يقوم من مكانه مستأذنا، طلبت منه أن يجلس للعشاء ولكنه رفض، عندها طمأنته بأن سعيد سوف يزوره صباحا في مكان منحله، وعندما ركب سيارته قالت له:

- جهز لي غرشة عسل من النوع الأصلي.

ابتسم عزان ووعدها بذلك ثم غاب في الظلمة.

مبكرا سمع صوت محرك السيارة يقترب من منحله فقام، أوقف بن غابش سيارته ونزل منها وهو يصرخ ممازحا عزان:

- والله انت بدوي، باقي لك عزبة فيها كم ناقة وتتزوج بدوية من أهل هالرملة وتنسى الحضور.

رد عزان على مزاحه بكلمة واحدة وهو يضحك:-

- خلاص تم.

أخبره بما حدث معه من طرق بعض البدو للمكان وتقديمهم الشكوى عليه في دائرة الزراعة، عندها قام بن غابش واقفا وهو يقول:-

- والله ما تتزحزح شبر من مكانك وانا حمود بن غابش.

بحث في قائمة الأسماء قليلا في هاتفه ثم اتصل، كان الهاتف يرن كثيرا في الجانب المقابل دون أن يأخذه أحد، وكاد أن يفقد صبره لولا سماعه أخيرا صوتا رخوا يتحدث إليه، عرف الرجل في الجانب المقابل من يتصل به فحياه بحرارة لم تبدو في صوته عندما فتح سماعة الهاتف، قال له بن غابش مختصرا المحادثة حتى لا تطول:

- عزان بن سعيد ونحله وكل أهله اللي يريد يجيبهم هنا فجيرتي وفأرضي، سمعت والا ما سمعت ؟

- بس هذا الرجل ما طلع تصريح للنقل

- يا رجال اعطيه تصريح من اليوم.

- هناك شكوى ضده

- ما يهمك شيء، اعتبر الشكوى منحلّه مني، واللي يعاودك خبره إن الموضوع مع بن غابش.

لم يستطع الشخص الذي يتحدث في الجانب الآخر إلا الاستسلام للبدوي، كيف لا وهو الرجل المشهور في المنطقة ويقصده الجميع.وبعد فنجان القهوة الذي شربه مع عزان بن سعيد قام بن غابش ليذهب لكن عزان تذكر قنينة العسل استوقفه وأسرع داخلا إلى الخيمة، أخذ بعنق القنينة وأعطاها للرجل قال له :

- هذي لسلامة .

ذهب البدوي ودخل عميقا في الرمل حيث اتجهت القافلة.

(٢)

بعد أيام وهو في طريقه إلى منحله في ذلك المكان الرحب بين الجبل الأبيض وجبال الحلوي والذي يطلق عليه النجد، وفي طريقه إلى النجد شاهدها مرة أخرى، كانت تقف على ضفة الوادي وقد تجمّعت حولها الأغنام، بينما أقعى كلبها عند قدميها مستقبلا الطريق مخرجا لسانه، لم تكن تستبقله بوجهها، بل رأى جانبا منه، وحدها هناك، وحدها بكل مقاييس الزمن، إذ انفلتت من عاتق الحياة والتزاماتها، لا يدري من أين انبثقت ولا إلى أين تتجه، تترآى له مثل ملاك حارس للأمكنة، هي وحدها في هذا الزمن الذي ترك فيه الرعاة رحلاتهم وتنقلاتهم، تركوا الرعي وقمم الجبال التي عاشوا يتغنون في سفوحها بتعويباتهم الشجية، هي أقرب إلى الخيال، ولا يدري ما الذي يجذبه ناحيتها منذ ذلك اليوم الذي وقفت بالقرب من منحله.

تذكرها في إحدى الليالي قبل أن ينام، تذكر وجهها المصقول وكأنه زهرة جبلية أشرقت في المكان وعبقت رائحتها، اقترب منه حاجباها المقرونين حتى كاد أن يتعلق بهما مثل جناحي عقاب لا يغادر ملاعب الرياح في الأعالي، عبقت ليلته بعطرها الرهيف وشجنها القادم من سفوح الجبال، بصوتها الجبليّ ذي البحة البسيطة، وهو لا يدري ما الذي يزعجه، ما الذي يحاول أن يتذكره فيها أو يقربه منها، منذ ذلك اللقاء وهو يشعر بشيء يشبه الوخز، يشبه الزعل والضيق والغضب لكنه ليس ذلك.

ما إن وصل إلى منحله حتى غرق في عمله دون أن يكترث بالوقت المنقضي، لقد كاد أن يفقد خلية على وشك التطريد، سمع صوت الملكة وهي تحث حشودها للخروج، أدرك بفطنته بأن هناك خلية لم يفحصها جيدا، أصغى إلى الصوت في ذلك الطنين المتزايد للنحل الخارج إلى المراعي والحقول، صوتها الذي يأتي من أطراف المنحل، وبينما كان يقترب من خليتها يتضح الصوت أكثر فأكثر، حتى أدركها، وحتى لا تهرب منه، أسرع إلى صندوق وضع فيه بعض المستلزمات على جانب المنحل واستخرج منه قطعة بلاستيكية تتخللها فراغات وخطوط وسد بها فتحة المرعى، كانت تلك القطعة تسمح للنحل السارح الدخول من الفراغات الصغيرة ولكنها لا تسمح للملكة بالخروج، لقد اقتطعها من حاجز الملكات الذي يستخدمه في وقت الفيض وجني العسل.

- والآن.

قال ذلك وهو يفتح غطاء الخلية، وبخبرته التي تدرجت عبر هذه السنوات، أصغى لصوتها المنبعث من بين الإطارات، فتح كل إطار برفق باحثا فيه عنها، مدققا في حركة النحل، سحب الإطار الأول ثم الذي يليه وهكذا حتى عثر عليها وقد تجمع النحل حولها وما تزال تصدر ذلك الصوت الذي يحثهم على الخروج برفقتها، حينها أخذ الإطار بكل ما فيه من نحل وملكته ووضعه في صندوق صغير أحكم غلقه ثم عاد إلى الخلية متفحصا الإطارات المتبقية، باحثا عن ملكته الجديدة التي خرجت توا.

في الوقت الذي يلمح فيه الملكة الصغيرة على حواف الإطار الأخير يسمع صوتها قادما من البعيد، أو هكذا خُيل له، رفع رأسه وراقب القمم من حوله، ربما يسمع ثغاء شياه أو نباح كلب

لكن الصوت انطفأ فجأة وهو لا يعلم هل انبثق الصوت من داخله، حتى تخيل تعويبتها أم فعلا سمعها، وما هي إلا لحظات حتى عاد إلى شغله الشاغل في البحث عن طرود أخرى.

منذ الصباح استطاع تكوين إثني عشر طردا جديدا، وعليه أن يأخذ هذه الطرود إلى المكان الذي اختاره لها حتى يفصل النحل مكونا بذلك زيادة في منحله، ولقد اختار المكان مسبقا ووضع فيه عدة خلايا وها هو الآن سيأخذ الطرود الجديدة إلى ذات المكان.

حتى لا يفقد الخلية قوتها كان يأخذ القليل من النحل مع الملكة الأم ويترك الباقي حول الملكة الجديدة حتى إذا تلقحت يضمن فتوة وشباب خليته وامتلائها بالحضنة والتي سيستفيد منها وقت تزهير أشجار السمر بخروج الحشود الكبيرة والتي ستملأ الخلية بالعسل.

أما الملكة الأم فبعد أيام سيزوّد خليتها بإطارات مقفلة من الحضنة التي على وشك الخروج ويضمن نشاطها بذلك حتى تدخل بقوة أيضا على الموسم القريب.

قبل سنوات عانى الكثير من جراء الطرود التي رحلت عنه، لقد أهمل المنحل قبيل الموسم وتركه دون فحص، وفي الحقيقة هو لم يكن يدرك خطورة أن تترك الخلايا دون فحص خصوصا في وقت التطريد، ولكنه استطاع رغم ذلك بالحصول على بعض منها، تلك التي كانت تخرج من خلاياها ويجدها متعلقة القرب من المنحل.

ولأنه يدري أن الطرد الخارج من الخلية الأم لابد أن يتعلق بالقرب منها ربما ليوم أو يومين حتى تذهب المستكشفات للبحث عن مأوى جديد في شق من شقوق الجبال المحيطة فلقد استطاع احتواء بعضها وتسكينه في طرود موجودة، لكن بعضا منها فلت من بين يديه، كتلك الخلية التي ما إن وصل إلى المكان حتى رآها تحوم وتسافر باتجاه القمم، ولقد تبعها قليلا ليرى أين تذهب، ثم قفل راجعا وقد ظهرت الخسارة مرسومة على ملامحه.

بعد ثلاث ساعات متواصلة من العمل توقف ليتناول بضع فناجين من القهوة، فتح سيارته واستخرج منها صحن التمر ودلة القهوة وجلس على الأرض، عليه أن ينهي مهمته ويأخذ الطرود الجديدة إلى المكان الآخر، كان غارقا في تفكيره وتخطيطه دون أن يحس بمن يقف خلفه، ذات المرأة راعية الأغنام قد وصلت لتوها بعد أن تركت أغنامها على سفح قريب ترعى يحرسها كلبها السلوقي، لم يشعر بها وهي تقف لبضع ثوان قبل أن تقول:-

- شيء فنجان قهوة؟

التفت ناحيتها وعندما رآها قام من جلسته، أفسح لها المكان واعتذر لعدم انتباهه، مازحته قائلة له:-

- سارقنك العسل

جلست مقابلة له، أخذت بعض التمر ودلكته بإصبعيها قبل أن تأكله، كان ينظر خلسة إلى وجهها ويحاول تذكر ما الشيء الذي علق بذاكرته منذ أول مرة، حاول كسر جمود الصمت بينهما حين سألها:-

- هين تسكني؟

نظرت إلى الجبال وهي تقول:-

- فكل مكان، اللي مثلي ما يحتاج بيت، بيتي السيوح والوديان

أخبرته بأن لها أشهر في هذه البقعة، وأن المكان به عشب ومرعى وفير لشياهها ولقد أعجبها فاستقرت فيه متنقلة من مكان إلى آخر بين هضابه وتلاله بحثا عن مرعى جديد ومورد عذب تشرب منه وقطيعها، ولقد اتخذت مؤقتا شجرة سمر على ضفة واد قريب يدعى وادي الغاف لوفرة الماء فيه، وضعت حاجياتها هناك وهي تبكّر منه كل صباح ولا تعود إليه إلا مع الظهيرة أو قبل غروب الشمس.

امرأة وحيدة مع قطيع من الشياه وكلب، هؤلاء هم رفاقها، كيف لها أن تعيش وحدها معزولة عن العالم، تساءل في نفسه بذلك قبل أن يسألها عن أهلها، رشفت فنجان قهوتها وأخبرته مختصرة حكايتها الطويلة بأن لا أهل لها فلقد كانت وحيدة أبويها الذين توفيا منذ مدة، ثم لحق بهم زوجها وهي الآن بلا أطفال ولا أهل ليس لها من هذه الحياة سوى هذا القطيع وهذه البراري.

كان ينظر إلى وجهها الذي يجعل شيئا في روحه يشرق، بينما يحس بأن في تراب أيامه بذرة صغيرة تشق الطين لتخرج وريقاتها اليانعة للهواء والنور، حاجباها مقرونين بانحناء طفيف على الجانبين، عينان كبيرتان صافيتان في بياضهما رأى خرافة السحرة بينما تحرسها أهداب طويلة تضمخت بالكحل ، أنف صغير ودقيق وشفة صغيرة لوجه مصقول وذقن برغم أنه يبدو مسطحا إلا أن له حدبة صغيرة بدت محببة.

أسنانها البيضاء تشرق كلما ابتسمت، وكان يود أن تستزيد من حديثها وقد انجذب إلى بحة في صوتها برغم حدته وقوته، إلا أنه التقط تلك البحة الكامنة فيه، صوت رخيم فخم، أنثوي عذب قادم من أغاني الرعاة ومن فلوات التعاويب، صوت أمومي سحب دمه من خلاياه فشعر بسخونته على الأطراف، صوت لم يسمع لنبرته شبيها من قبل، أو ربما سمع ولا يعلم أين.

بعد أن رشفت فنجانها الرابع قامت لتذهب، وهي تشكره على استضافتها القسرية، مازحته بأن الحضر بخلاء ولا يعزمون من حولهم لكنه اعتذر بأنه لم يرها، ضحكت فتفتت صخور عتيقة في صدره، ربما كان ينتظر تلك اللحظة التي تجعله ضحكتها على أهبة الطيران إلى سماوات من العذوبة، الضحكة التي فكت قيودا كبّلت حياته الماضية، ها هي تصير فجأة عيدان قصب دقيقة تتحطم من رهافتها.

أراد أن يقول لها اجلسي، أبقي بجانبي، لم اكتف بعد، حملق في عينيها في اللحظة التي قررت فيها أن تغادر المكان فاكتشف السر، السر الذي عذبه ليال وأيام وهو يفكر فيها، وبينما تخطو خطواتها الأولى للمضي، ناداها يستوقفها يسألها عن اسمها وهو يقف تابعا لها، أجابت:-

- اسمي ثمنة.

لم يسمع بالاسم من قبل فكانت دهشته الأخرى، وعندما اقترب منها قال له:

- ثمنة، عيونش حلوات.

ابتسمت خجلة ونكست رأسها، ثم سحبت لحاف شعرها لتستر تلك الابتسامة الخجلة والعينين اللتين كادتا أن تسيلا على وجنتيها، أحس بأنه أحرجها فتراجع، قال ممازحا لها ولكي يكسر حالة الارباك الذي سببه:-

- فذمتي غرشة عسل حالش، لا تنسي.

ردت عليه وهي تغادر المكان ضاحكة:-

- أبغاها من الموسم الجديد.

ذهبت ثمنة، وبقي متسمرا مكانه يقتفي أثرها بناظريه، اختفت خلف أشجار السمر ثم رآها تصعد الجبل صاعدة إلى الأعالي تسوق القطيع أمامها بينما يجري الكلب يمينا ويسرة محاولا لملمة ما يخرج عن النسق.

السر إذن ليس في ملامح وجهها المصقول بفعل الشمس، ليس في نبرة صوتها الرخيم ذي البحة الخافتة، ليس في شفتيها الصغيرتين، السر يكمن هناك حيث سالت روحه منذ البدء وانجرفت بعيدا في هاوية لا قعر لها من الجمال والعذوبة، السر البرّاق الحلو، السر الموجع، هو ذلك السر الذي شاهده في حدقتي عينيها، العينين العسليتين التين خلقتا في صدره طائرا صغيرا قد بدأ يرفرف بجناحيه محاولا التحليق بعيدا، خلف تلك الجبال والوهاد، طائرا أخضر بألوان برّاقة وعينين صغيرتين دامعتين من الرقة.

حاول أن يستعيد ما تشتت من نفسه، حاول أن يعود لنشاطه ويعود إلى بقية الخلايا ولكن شيء أثقل صدره وظهر منحله كأنه شيء غريب بالنسبة له، ولولا أنه تذكر الطرود الصغيرة لظل في مكانه ذلك مثل الجبل.

قام مسرعا، عليه أن يأخذ الطرود قبل أن تموت من العطش، وضع الصناديق في سيارته وذهب، قرر العودة مساء لاستكمال الفحص فثمة بقية باقية من الخلايا لم تلمسهن يديه بعد.

عندما كان في الجوبة وبالتحديد في شقة المناخ وبعد أن ذهب عنه حمود بن غابش مؤملا إياه بحل مشكلته مع البدو، انتظر أياما قبل أن يأتيه بن غابش مرة أخرى وفي هذه المرة بصحبة الرجلين الذين طلبا منه نقل منحله من ذلك المكان، أسرع في تجهيز قهوته وبعد أن رشف الجميع فناجينهم أخبره بن غابش بأن لدى جيرانه وليمة في نهاية ذلك الأسبوع وجاءوا برفقته ليطلبوا منه حضورها، وحتى لا يقدم اعتذارات أخبره أحدهم بأنه إن لم يحضر لن تكون هناك وليمة أبدا، وأنما أقيمت على شرفه.

وهو كعادته لا يحمل في قلبه ضغينة على أحد ولا تعلق في نفسه الشوائب صغيرة كانت أو كبيرة، لقد تعلم أن يمحو كل ما يحدث له في حياته مثلما الريح تمحو آثار الأشياء في هذه البقعة الرملية، وعدهم بالحضور في الوقت المحدد وأعتبر ذلك كرما لا يستحقه.

منذ قدم إلى الجوبة وهو يشرف على تغذية نحله ويراقب نشاطه أولا بأول، ظل يعطي النحل محلول السكر كل يوم بواقع أربعين لترا يوميا يسكبه له في الحوض المخصص له والذي وضعه بالقرب مع وضع قطع الفلين على السائل منعا لحدوث حالات غرق كثيرة، وفي كل صباح يراقب النحل العائد مبكرا من مرعاه فيراه وقد حمل في أقدامه الكثير من حبوب اللقاح من تلك الحشائش الصحراوية المزهرة في ذلك الوقت.

على مدار شهر كامل وهو يكثف تغذيته السكرية للنحل محاولة منه لأنقاذ الكثير من تلك الخلايا الضعيفة إذ تشعر بوجود مرعى يسد حاجتها وبالتالي ستضع الملكات التي كدن أن يتوقفن نهائيا من قبل ،بسبب شح المرعى في بلده ، عن التحضين ووضع البيض، ولكن بعد أيام لاحظ الفرق الشاسع إذ امتلأت الإطارات بالحضنة الجديدة ويوما بعد يوم تزايدت أعداد النحل وبدأت الزوائد الشمعية تتكون بعد ثلاثة أسابيع إيذانا منها لطلب براويز جديدة حتى تبني عليها الشمع وتستزيد في وضع البيض.

في غضون شهر واحد استطاع أن يزوّد جميع الخلايا تقريبا بشمع جديد، بينما استخرج حضنة مغلقة على وشك الخروج من الخلايا القوية ووضعها في أخرى ضعيفة فتنشطت، ظل يزيد تلك الخلايا الضعيفة بواقع إطار كل اسبوع حتى لاحظ عودة نشاط ملكاتها في وضع البيض.

أدرك عزان بأن الساعة البيولوجية للنحل لا يمكن خداعها، ففي الوقت الذي كان في قريته يقدم الكثير من حبوب اللقاح المستوردة والتي يستهلكها النحل إلا أن الملكات ظلت كما هي، لقد أنفق الكثير على تغذيتها دون فائدة، بينما هنا في هذا الامتداد الواسع والمرعى الخصب من حشائش العلقا والحرمل والثرمد يلاحظ الفرق الواضح في حركة النحل، عزا ذلك إلى حبوب اللقاح الطبيعية التي تغتني بها المنطقة.

عرف بعد ذلك بأن الكثير من المشاكل قامت بين العديد من النحالين والبدو في أمكنة متفرقة من الجوبة، لقد اشتكى البدو في أكثر من مكان بسبب مضايقات النحالة ونحلهم على المراعي التي ترعى منها أغنامهم وإبلهم، وبالرغم أن الكثير منهم كانوا متقيدين بالاشتراطات إلا أن بعض هؤلاء النحالين كانوا يقتربون كثيرا من تخييمات البدو مما يتسببون في تزاحم النحل على موارد الماء التي خصصوها لشربهم أو لقطعانهم، ولأن النحل في بعض حالته يستشرس ويبدأ في اللسع فكان لزاما أن تتوقف كل تلك التوسعات.

المكان الذي اختاره له صديقه محمود لم يكن في منطقة الرعي الكثيفة ولكن كليهما يدرك المسافة التي تقطعها النحلة في مرعاها اليومي، إذ تستطيع أن تسير حتى مسافة نصف قطرها يصل إلى عشرة كيلومترات وبالتالي هناك ما يكفي من مرعى في هذه المسافة ولا يحتاج إن يبقي منحله في وسط المرعى، فالنحل بطبيعته يعرف إلى أين سيتجه.

على الرغم من وجوده في منطقة مقطوعة وغير آهلة بالسكان، وعلى الرغم من طبيعتها التي تختلف كثيرا عن طبيعة القرى الجبلية التي جاء منها إلا أنه لم يشعر بالأيام ولا بثقل الليالي، شعر وكأن هذا المكان الرحب قد أنقذه فعلا من تلك الدائرة الضيقة التي يحوم فيها من مزارعه وبيوت رفاقه في القرية، أحس بأنه لا فرق بين أن يذهب إلى قمم الجبال متحدا مع الأعالي وبين كثبان الرمال هذه التي صارت من عادته أخذ دلة القهوة ومذياعه والصعود إلى أعلى الكثيب

وهناك يمتدد على الرمل تاركا قدميه غائرتين فيه متكئاً على كومة صنعها بنفسه محملقا في الأفق، حيث تتلون السماء بالألوان المختلفة والزاهية قبيل الغروب، مستمعا إلى محطات إذاعية شتى، ولم يشعر في يوم ما بأن المكان لم يعد يطيقه، وعلى العكس شعر بأنه يصادق كل يوم كائنا من كائنات الصحراء، ضبا، غزالا، أرنبا، ثعلبا، جملا، بدويا، والكثير من حشرات الرمل التي يكتشفها في تجواله.

مع الأيام تعلم إدارة منحله بنفسه، لم يرد أن يصير مثل الكثير من أصحاب المناحل الذين تركوها للعمالة الآسيوية، فليس همه الربحية المؤقتة أو حتى المتضخمة، هو لا يسعى لكسب الكثير من النقود، بل كان كل همه هو الحياة ولذتها، وهو يدرك بأنه يوما ما سيترك النحل إذا شعر بالملل من وجوده وسوف يبيعه وسيبحث عن شيء جديد يملأ به حياته.

لقد أدرك الكثير من حياة النحل، الصبر على تحمل المكان فالنحلة عندما يقل الغذاء تقل طلعاتها إلى الخارج وتبدأ في اقتصاد ما لديها من مخزون حتى لا ينفد قبل أن تقطع الفترة الزمنية الممحلة تلك، العطاء والكرم في أكوام العسل التي تعطيه له في كل موسم، النظافة وهو يدرك تماما بأن النحل دائما ما يسعى لتنظيف خلاياه ورمي المخلفات في الخارج بعيدا، بل أن النحلة عندما يقترب موعد موتها تخرج بعيدا عن خليتها وتموت، فإذا حدث موت مفاجيء لبعضه تجد الشغالات يحملن النحل الميّت ويلقين به خارجا على مسافات بعيدة.

صار من عادة حمود بن غابش وهو يضمّر النوق كل صباح أن يمر على النحّال عزان بن سعيد، في الوقت الذي يعتبره الأخير استراحة محارب يسترخي فيها مع بضع فناجين من القهوة منصتا إلى الكثير من الحكايات التي يجيد بن غابش قولها، عن البدو والصحراء، عن شيوخ القبائل وأصحاب رؤوس الأموال الكبيرة الذين تعرف عليهم، ودائما ما يشرح له ويخبره عن نوقه،" هذه للشيخ فلان من الإمارات اسمها الغالية، مزيونة من مزايين الإبل وسبوق، اشتراها بمئة ألف وأعطاه شيخ من قطر مئتين وخمسين ألف حتى ياخذها منه وما وافق".

الكثير من محبة الرجل ظهرت في الأيام المقبلة، أحيانا يجيء بن غابش مع إفطاره وهو يقول:-

- بنت الصعب حالفة ما أتحرك اليوم إلا وريوقك معي.

شعر بروح البدوي تسري في دمه، وكان العجب من مقدرته على إدارة كل تلك الأمور التي يلتزم بها، كيف لرجل واحد أن يدير عقاراته ويضمّر نوقه، ويحضر العزائم في أرجاء الصحراء، بل يسافر لحضور بعضها في أماكن بعيدة، تمنى نصف تلك الطاقة تحول ناحيته ليستطيع الاهتمام بالتزاماته في القرية ولكن لا يعرف ما الذي يصيبه كلما فكر بكل ما يود أن يلتزم به.

يعتقد عزان بأن روحه التي بردت منذ زمن بعيد لا تستطيع جذوة أن تعيدها الآن، ولولا هذا المنحل الذي تغرق أيامه ولياليه بالقرب منه لأصبح لا يدري ما الذي يبقيه حيا.

فمنذ حصوله على خلية النحل الأولى التي نقلها من جبل بجوار قريته إلى صندوق بمعية صاحبه سعيد بن حمد وبدأه في تجربة تربية تلك الخلية ثم شراءه الخمس خلايا الأولى من أحد النحالين الذين أحضر نحله على تخوم القرية، عندما ذهب ناحيته وتحدث إليه مستوضحا الكثير في تربية

النحل ولم يعد من عنده إلا بشراء الخلايا الخمس، بعدها صار كل همه هو تربية النحل ومعرفة ما يحتاجه.

سنوات كثيرة مرّت عليه وهو يعيش في عزلته التي اختارها، لم يتزوج ولم يعمل في أية وظيفة، وبينما كانت حياته بائسة لا يدري من أين يجد قوت يومه، إلا أن ما يملكه من نخل وما يبيعه من ثمار سنويا كان يكفيه لشراء مؤن الحياة اليومية، ذلك قبل أن يصير لديه هذا المنحل الذي فتح له باب رزق وفير، ليشتري من ثمنه سيارة وتتحسن أموره يوما بعد يوم.

حضر ذلك الاسبوع وليمة البدو التي دُعي إليها، جاء جمع غفير لا يدري من أين انبثق كل هؤلاء الناس، حيث امتلأ المكان بهم وبسياراتهم وجمالهم، وفي ذلك المساء بدأت الأهازيج والفنون البدوية، شاهد رقصهم وسمع ونّاتهم وتغرودهم، كانت ليلة لم يعش مثلها من قبل، وبين الفينة والأخرى تقترب منه سلامة بنت الصعب وهي تشير إلى فتاة في الجهة المقابلة للحلقة تلبس ثوبا أصفر مزكشا وتضع برقعا بدويا غطى بعض وجهها، تقول له بنت الصعب:-

- تشوف هذيك المزيونة؟ أبيلك اياها.

يضحك بينما تتخطاه في مشيتها ناحية رتل النساء الواقفات ليشاهدن الرقص، تقترب من الفتاة ثم تهمس لها بشيء وهي تشير إلى عزان، تبتسم الفتاة وتلكز بنت الصعب بمرفق يدها ممازحة إياها ثم تنظر ناحيته وتعلق عيونها عليه.

ما أجمل البدو، يهجس في نفسه، لقد تحرروا منذ زمن بعيد من عقد القرى ومن التزامات لا معنى لها كبلوا بها أنفسهم، هاهم يرقصون مع بعضهم البعض رجالا ونساء، يغنون أغانيهم وهم يطلقون الرصاص فرحا، يصافحون بعضهم بعضا ويشمون أنوف بعض رجالا ونساء دون تكلف، تمنى لو كان بدويا يعيش منذ البدء متنقلا بين رمال هذه الصحراء الممتدة من محوت وحتى تخوم رمال وهيبة، ربما اختار حياة غير الحياة التي يعيشها الآن، تلك الحياة الباردة التي لم تشتعل جمرة روحه في أرجائها بعد.

غرق في رقصهم، امرأة تبدو في الأربعين من العمر ممتلئة تراقص رجلا في وسط الحلبة بينما عازف الطبل يضبط إيقاع رقصهما وجميع من في الحلقة يصفق مع دقة الطبل، ضحكات هنا وهناك، صراخ مملوء بالنشوة يخرج من بين الجمهور، ضحكة مغناج تهدر قليلا قبل أن تكتمها بيدها، ثم يد تسحبه إلى الداخل تدعوه للرقص وسط الحلبة.

امتدت له يد دون أن يشعر لتسحبه إلى الداخل، امرأة ذات طول فارع وجسم ممتلئ تلبس ثوبا أخضر بينما ينسل شعرها الناعم من تحت لحافها على كتفيها، وضعت لثاما ورديا خفيفا على فمها بينما نقش الحناء يزركش اليد التي تسحبه.

مشى خطوتين ثم توقف ولا يعلم ما الذي حدث، ومن أين جاءت تلك المرأة لتختاره إلى الرقص، لكن تردده ذلك دفع عليه الكلام من جانب الحلبة، وسمع صوتا يقول له:-

- أرقص مع الزينة، أرقص مع الزينة

سمع صوتا أنثويا أيضا يأمره ويقول له:

- أرقص مع الغزال، أرقص مع الغزال

كانت تمسك بيده بينما يهتز جسدها راقصا، دفعه أحد البدو بقوة ليجد نفسه في وسط الحلبة واقفا ينظر حوله وقد شعر بالحرج، على التصفيق وارتفع ايقاع الطبل، نظر حوله فرأى سلامة بنت الصعب تنظر إليه ضاحكة وهي تشجعه بتصفيقها، وتشير له وهي تهز جسدها بأن يبدأ في الرقص، وما كان منه إلا أن خلع ثوب الإحراج الذي تلبسه وبدأ يجاريها راقصا محاولا أن يتابع دقة الطبل حتى لا يبدو رقصه منكسرا.

رقصت أمامه شامخة بطولها الفارع، رجفت الأرض تحتها، اهتز جسدها، رأى صدرها الممتلئ يرجف في حين كانا ردفيها يقتربان منه لتتلامس معه قليلا ثم تبتعد، أمسكت بيده ووضعتها على خصرها ثم أدخلت يدها ملتفة على خصره وبدأت تراقصه خطوات إلى الأمام ثم خطوات إلى الخلف، تلاحم جانبا الجسدين وغارت يده في لحم خصرها اللدن، شعر بأن النشوة تعلو به إلى سماوات الحلم.

سحبت امرأة أخرى رجلا من الحلقة وتشابكا واقتربا من الراقصين في الوسط، صارت الرقصة ثنائية لرجل وأمرأة يقابلهما رجل وامرأة يبتعدان عن بعضهما ثم يقتربان حتى يتلقيا في الوسط، ثم زادت المجموعة شيئا فشيء حتى صار هناك صفّان يحتوي كل منهما على ستة أشخاص من ثلاثة رجال وثلاث نساء وفي المقابل يماثلهما أيضا الستة الراقصون، وزاد التصفيق والايقاع، بينما كلمات التحفيز من كل مكان تأمر الجميع بالمواصلة والاستزادة في الرقص وعدم التوقف.

بعد انتهاء الوليمة الكبيرة التي ذبحت فيها بعض النوق هيأ المكان لمنام الضيوف، أراد عزان أن يستأذن ولكن قيل له بأن الحفلة لم تنته بعد، فهناك في الصباح بعض المفاجآت التي تنتظره.

سهر تلك الليلة حول الجمر مع بن غابش وبعض صحبه يتحدثون في أمور كثيرة حتى إذا شعر بأن رأسه يسقط من النعاس قام إلى المكان الذي خُصص له ونام.

كانت أحلامه تلك الليلة عبارة عن أهازيج وصراخ ولا يدر هل نام حقا أم أن الهذيان أخذ به إلى البعيد، ولأن كل ما حدث له قد حدث لأول مرة ودفعة واحدة ليجد نفسه يعيش في عالم أشبه بما سمع عنه في حكايات قديمة، لم يتوقع أبدا ذلك، وفي الصباح صحى على صوت المؤذن وقام مع الجميع للصلاة.

شرب الجميع قهوتهم بعد الصلاة، ثم أحضر الفطور المكون من الخبز ومرق اللحم وسكب المرق على صفائح الخبز في صحون واسعة، كان مذاق الثريد في تلك الصباحية الباردة رائعا ولذيذا لم يذق مثله من قبل، بينما عجبه يمتد كل لحظة بين ثنايا تلك الصحراء التي رآها خاوية مقفرة من قبل، بينما تعيش بين أكنافها قبائل من البدو لهم حياتهم التي ما فتأت تثير اعجابه وفضوله.

سمع عن بعض عادات البدو ولكن لم يعشها ، وها هو الآن وفي ليلة واحدة قد اكتشف ذلك البون الشاسع من حياة قريته التي تمضي كل يوم إلى التعقيد والتزمت بينما ما يزال على وجه هذه الأرض وعبر بضع مئات من الكيلومترات بشر يعيشون حياتهم بعيدا عن كثير من التعقيدات التي صار الناس هناك في الأماكن المتمدنة يعتبرونها من ضروريات الحياة المجتمعية.

قام الجميع لآخر المفاجآت، حيث هُيأ مركاض طويل لسباق الهجن، اجتمع الهجّانة يمسكون نوقهم ينتظرون اشارة البدء ليفلتوا لها راكضة في السيح الممتد حتى النقطة الأخيرة التي ينتظر فيها المحكمون، كان يعلوا ظهورها أطفال صغار دون العاشرة، ربط كل واحد منهم بوثاق متين حتى لا يسقط من أثر الركض، وبعد لحظات أطلق العنان للنوق فبدأن في شق المسافة وهن ينثرن الغبار والأتربة من تحت أخفافهن متجهات ناحية نقطة النهاية.

رافقهن البعض من على جوانب المركاض بسياراتهم يتتبعون تحركاتها ويستقرؤون من تفوز في النهاية ومن ينتظرها التكريم وينتظر صاحبها العطاء الجزيل جراء تمرينه لها وتضميره.

عاد إلى منحله بعد أن انقشع الجميع مودعين بعضهم البعض، جلس أمام خيمته عائدا شيئا فشيء إلى الصمت، لم يكن يسمع في الجوار سوى طنين النحل وزقزقة بعض العصافير الخافت، استسلم للنعاس الذي تكثّف على رأسه مثل قطعة ضباب ثقيلة هجمت فجأة، أسقط رأسه على الآرض ونام.

صوت تعويبة يصدح في القمم، صوت امرأة تناجي الأعالي، صوتها يخترق الحجب ليصل إليه، يظن بأنها تغني له، بينما كانت تغني الفقد العظيم، وهو كلما سمع أغنية في الفقد ظنها له، صوتها تحمله الريح الهابطة من هضبات الجبل الأبيض، أو هكذا خُيل له حين يصل متقطعا وخافتا، يحدث نفسه أنها هناك، ثم يعود ليقول: لا أحد هناك، هذا الصوت لم يكن إلا بداخلي، الصمت والهواجس يخلقانه، الوهم يكمن في صوتها، ربما رحلت بعيدا، وهو لا يعرف أين وادي الغاف الذي أخبرته عنه، ربما الآن تعود مع قطيعها إليه، تتهيأ للمبيت يحرسنها جنيات الجبل ويغنين معها أغنيات حزينة في الفراق والغياب والموت.

عاد ذلك المساء إلى منحله، حاول أن يتفحص بعض ما بقي من الخلايا ولكن شعر بما يشبه الضيق، لقد عاد لكي يراها، لكي يأنس بسماع صوتها وهي تسوق شياهها إلى مراع جديدة، لكن الصمت هو ما أثقل رأسه، وربما بسبب ذلك لم يستطع اكمال مهمته في الفحص.

ركب سيارته إذ قرر البحث قريبا ربما يجد مسكنها في أحد الوديان المجاورة، طاف في الأرض شمالا وجنوبا، تمنى أن يصادف أحد الرعيان ليسأله عن اسم الوادي الذي تقطنه ولكن تلك البقعة لم تكن مأهولة بأحد.

عاد بعد غروب الشمس ولم يحض بمعرفة مكانها، ذهب إلى بيته، أغلق الباب عليه ولم يخرج للسهرة مع أصحابه، ظل هناك وحيدا يفكر في عينيها التين تقطران عسلا وتغرقانه في العذوبة والجمال.

مُبكرا ذهب صوب منحله، فبعد نوم عميق ليلة البارحة صحى يملأ نفسه تفاؤل أعاد إليه نشاطه المعتاد في الاهتمام بمنحله.

في البداية اتجه إلى المكان الذي وضع فيه الطرود الصغيرة التي فرقها عن خلاياها الأم، أراد أن يطمئن على نشاطها واستقرارها في مكانها الجديد الذي وضعها فيه على الأرض بجانب بعضها البعض دون أن يرفعها على القواعد المخصصة والتي تقيها من هجوم النمل، لقد كان الوقت مبكرا على نشاط النمل الذي يخافه والذي ما إن يدخل إلى خلية إلا ويتركها بورا ويطرد منها

النحل ليحتل براويزها آكلا عسلها وبيضها، فالنمل هو أحد أعداء النحل الذي يحاول عزان بن سعيد بخبرته اتقاءه ومكافحته في أرضية المكان.

في القواعد المعدنية التي تصطف فوقها خلايا النحل أبلغ الحداد وهو يصنعها له أن يضع في كل عمود كوبا دائريا يحيط به، شاهد ذلك في منحل لأحد النحالين أعجبته الفكرة التي لم يكن يعلمها، إنما كانت القواعد المستخدمة سابقا لديه يضع علبا معدنية مستخدمة من علب الفاصوليا تحت أرجل القاعدة ثم يملأها بزيت المحركات المستخدم وكانت كافيه لتقيه من صعود النمل إلى الخلايا، لكنها كانت مزعجة جدا إذ عليه أن لا ينسى تلك العلب وأخذها معه في كل مرة ينقل فيها منحله، وأحيانا تكون الأرض غير مستوية في المكان الذي انتقل إليه فيصعب عليه وضع العلب تحت الأعمدة، لكنه بتلك الطريقة الأخيرة صارت دائرة الحديد الملصقة بالعمود دائما تكفيه شر النمل ومخاطره وتعب التفكير في الوقاية منه.

مرة نسي وضع الزيت في الدائرة المعدنية لأحد القواعد وبعد يومين وجد النمل يحتل القاعدة وقد بدأ في الدخول إلى الخلايا، وعندما فتح أول صندوق وجد النحل مستثارا وبدأ في مهاجمته، فهرع إلى صناديق فارغة وضعها بجانب المنحل وبدأ في تنظيف الخلايا بوضع الإطارات في الصندوق الفارغ ثم نفض صندوق الخلية الأساسي ونظفه من النمل، وبقطعة قماش دهنها بالزيت قضى على النمل الصاعد، ثم وضع الزيت في الدائرة المعدنية.

يتواجد النمل كثيرا في المناطق التي بها أشجار كثيفة، ويحب المناطق الجبلية أكثر، هذا ما لاحظه خلال تجواله في السنوات الماضية متنقلا بمنحله من مكان إلى آخر، وليس كل النمل ضارا، بل هناك نمل عندما يدخل الخلية يتركها بورا وهو النمل الأحمر الصغير، ولأنه أصغر بكثير من حجم النحلة فهي لا تعرف كيف تقضي عليه ولا كيف تطرده أو تحمي المملكة منه، فهو يتسلل إلى داخل الخلية ولن يخرج منها إلا بعد أن يعم الخراب تماما فيها، لكنه بالمرصاد دائما له، فما إن يرى بعضا منه على الأرض إلا ويزيد من وضع الزيت ثم ينثر بودرة المبيد القاتل للنمل حول أعمدة القواعد، ينثرها بكميات قليلة احتراسا من تأثيرها على النحل، لكنها كافية لكي تطرد النمل بعيدا لأسابيع طويلة.

في الأماكن المكشوفة البعيدة عن الحشائش والأشجار تخف حدة النمل، وأيضا يكون في وقت الشتاء أقل بينما يتكاثر وينتشر صيفا لذلك كان وضعه لطروده الصغيرة تلك على الأرض دون خوف في ذلك الوقت من السنة الذي يعلن فيه انتهاء الشتاء منذ مدة قريبة ودخول الربيع ولكن الطقس ما زال باردا وهناك الكثير من الوقت على تكاثر النمل.

في صحراء الجوبة كان نحله بمنأى عن خطورة النمل، في تلك الرملة الناعمة التي تلسع حرارتها نهارا بينما تتكثف عليها البرودة ليلا ولا من غذاء ليعيش النمل فيها، وبرغم ذلك إلا أنه أخذ القواعد معه حتى لا يضع الخلايا على الأرض ويتركها عرضة لزحف الرمال و دخولها عبر الفتحات إلى الداخل.

صحراء الجوبة التي وجد روحه البدوية فيها، وجد ذاته أقرب لحياة البدو في تحرره من كثير من العوالق الاجتماعية هناك حيث كل شيء أقرب للطبيعة منه للتكلف.

يذكر كيف ذهب إلى بيت البدوي بن غابش صباح أحد الأيام ولم يجده، استقبلته سلامة بنت الصعب مرحبة به وهي تقول:

- الله جابك، لو ما جيت كنت بمر عليك.

أخبرته بأنها على وشك أن تذهب إلى محوت لأنها تريد شراء بعض الحوائج، ولأن زوجها ذهب إلى الباطنة في مهمة وسيتأخر لأيام فهي تحتاج إلى أن تشتري ما يلزم للبيت ولقطيع النوق، وطلبت منه مرافقتها إلى السوق حتى لا تذهب وحيدة.

قبل ذلك كان كلما جاء إلى بيتها تضع لثاما على وجهها، ولكن بعد فترة بدأت في خلع اللثام وصار يرى وجهها كاملا، فاللثام للغريب ولكنه ليس بين الأهل لثام ولقد شعر بأنه أصبح من أهل البيت من كثرة ما يجيء ويذهب في مناسبات مختلفة، وها هي الآن بنت الصعب تطلب منه مرافقتها إلى السوق.

هناك لازمة تتكرر في كلامها، التقطتها أذنه من كثرة ما هي غريبة على مسمعه، كانت تبدأ حديثها بتلك الكلمة الغريبة أحيانا ولم يكن يعلم ماذا تعني، كانت تقول له:

- تنعاني ، القهوة جاهزة بالخيمة.
- تنعاني بن غابش موصي عليك تتعشى عندنا.

وهكذا، وفي يوم سألها عن تلك الكلمة فضحكت، وقالت له:

- احلف انك ما تعرفها.
- والله ما أعرفها

أخبرته بأن معناها أن تموت قبله لينعيها في موتها دلالة على المحبة والمودة.

ذهبا ذلك اليوم إلى محوت إذ تبعد من هناك حوالي سبعين كيلومترا، أصرت أن تأخذ سيارتها وركبت بجانبه، كانت تتكلم طوال الطريق عن أشياء كثيرة في أغلبها قفشات لكسر حاجز الاغتراب في داخل كل منهما، وفي السوق ساعدها في تثبيت الأعلاف والحاجيات التي اشترتها على ظهر سيارتها وقادتها هي في طريق العودة.

سألته أكثر من مرة عن مزايين الصحراء، وعن جولاته في أرجائها، هل صادف أحدا منهن، وكانت أحيانا تلمح له فصار من تكرارها يفهم قصدها، ويهز رأسه نافيا، بينما ترمقه بعين فاحصة، وتصمت.

اختلطت عليه الظنون فهو لا يدري ما الذي تقصده بالمزايين أحيانا وبالغزلان أو بالطيور أو كما كانت تقول له:

- شيء طويرات مرن بك؟

أو :

- تبي تقولي ما شفت ولا غزال من يوم جيت ؟

وكان يهز رأسه نافيا ويضحك، وفي بعض إجاباته كان يظهر غباءه بأن الصحراء قد أصبحت خاوية من كل شيء ما عدا الرمل، لا غزلان فيها ولا طيور، يجيبها:

- من وين تجي الغزلان؟

لكنه في ذاته حاول يفهم مقصده، ولا يعرف إن كانت تهيء له قربها منه أم كانت تحاول جسّ نبضه ربما يخبرها بسرّ إحداهن وقد زارته خفية دون أن يعلم الجميع.

بعد أيام من ذهابهما وفي المساء سمع خطوات بالقرب منه، قام يستطلع المكان ربما أحد كائنات الصحراء اقترب من المنحل ورآها واقفة هناك بثوب أحمر ترتسم فيه زهور ملونة بالأزرق والأصفر، امرأة مربوعة القامة وما إن رأته حتى سلمت عليه وقدمت نحوه، صافحته وشمت بأنفها أنفه ثم دعاها لفنجان قهوة سريع متعجبا من تلك الزيارة المفاجأة.

من خلف اللثام كان صوتها رقيقا به حشرجة خفيفة تلطف تلك الرقة المتناهية، قالت له بأنها تريد عسلا، فدخل الخيمة ليحضر لها زجاجة العسل وتفاجأ بدخولها معه، وقف هناك مرتبكا إذ حسرت اللثام عن وجهها واحتضنته.

في منتصف الليل غادرته تاركة عطرها يفوح في أرجاء الخيمة، مشت وحيدة وهو يتتبع خيالها في العتمة حتى غابت، ثم سمع هدير سيارتها التي أوقفتها خلف تل الرمل، سمع الهدير لدقائق ثم اختفى تدريجيا.

بعد يومين مرت عليه بنت الصعب لكي تأخذه معها إلى السوق، قالت له وهما في الطريق:

- ايش أخبار المزيون اللي زارك؟

تعجب من سؤالها، كيف عرفت عن زيارة تلك المرأة، وعندما شاهدت استغرابه ظاهرا على وجهه ضحكت، وقالت له:

- تنعاني على هالوجه الحلو.

نكس رأسه خجلا وأدرك المؤامرة التي تآمرت بها عليه بنت الصعب، مع ذلك شعر بامتنان كبير في داخله لها على ذلك الكرم الذي لم يتوقعه أبدا.

(٣)

وكأن ماء انبجس فجأة من فالق في جبل صلد وسال حتى بلغ مجرى الوادي، ماء عذب ارتوت عروقه واخضرت روحه منه، ثم انحسر فجأة وغار وبقيت آثاره واضحة للناظرين، فعندما يمر أحدهم على الموقع يرى ذلك الأثر ويقول كان هنا ماء، هذا تماما ما حدث له، فلقد نهل من عينيها العسليتين وأشرقت نفسه وتاق للحاق بها والجلوس معها ولكنها اختفت دون أن يدري ما الذي حدث، ولا أين ذهبت.

بحث في البقاع التي حول منحله ولم يجد لها أثرا، ترقبها تخرج فجأة له وهو كعادته محنيا ظهره في صلاة الخاشع العابد يتبتل مخلوقاته الصغيرة ويناجيها ربما تخبره بالدرب التي سلكتها، أصغى إلى كل صوت يجيء من البعد لعله يستمع إلى تعويبتها أو إلى نباح كلبها وثغاء شياهها، أصبح المكان الواسع الممتليء بغابات السمر ناقصا، ثمة ما خرج عن مكانه وبدى شبه قاحل.

انتظرها كثيرا منذ آخر يوم أخبرها بأن عينيها جميلتين، انتظر وجهها المصقول وعينيها التي سيغنيانه عن كل عسل في الدنيا، لكنها لم تعد، استدل على وادي الغاف بسؤاله لطارقي المكان وذهب إليه بحثا عنها لكن وكأن شيئا لم يحدث، حتى عثر على ضالته أخيرا تحت سمرة معلقة على جرف، بينما يسيل الماء على منحدر صخريّ صلد من صخور الصفا في قعر الوادي، هناك وجد موقدا للنار وأثر بقايا القهوة المسفوحة على الأرض وقليلا من نوى التمر المتناثر هنا وهناك.

ذهبت ثمنة في تجوالها إلى وديان بعيدة، رحلت فجأة دون أن تخطط لذلك، نامت ليلتها تلك التي التقته في نهارها ثم في الصباح استقبلت دربا جديدا لا يمر على النجد، حملت على حمارها الزاد والحاجيات وأطلقت لقدميها الصغيرتين العنان.

عاشت ثمنة مع أمها منذ طفولتها متنقلة بين الوديان والقمم بحثا عن مراع تكفي احتياجات القطيع، فما إن تسمع عن مطر نزل في بقعة ما حتى تنوي الرحيل إليه.

مات أبوها وهي صغيرة وبقيت أمها وحيدة لتربي طفلتها ولم تكترث لبعض من جاءوا لخطبتها، عاشت سني حياتها مع صغيرتها لم تفارقها لحظة واحدة.

أمها سوّادة بنت خلف التي يعرفها القاصي والداني من أهل القرى من كثرة ما تطرق المكان بين حين وآخر لتشتري ما تحتاج إليه وتبيع ما تغزله من شعر شياهها وما تجود به الجبال عليها من عسل وزعتر ومن فاكهة جبلية كالبوت والتين، ثم تملأ ظهر حمارها بما اشترت من أسواق القرى وتعود ثانية إلى منزلها الذي ما أن تستقر قليلا فيه حتى تفارقه إلى آخر.

فقدت زوجها على بن حمدان أيام الجائحة العظيمة التي مرت على البلاد في بداية السبعينات من القرن المنصرم، كانا يسكنان في ردّة الروغ من وادي قعبت، وبدأت السماء تسكب مطرها الغزير.

تذكر علي بعضا من شياه القطيع التي لم تعد إلى المكان، الوقت يظلم أكثر من شدة الغيوم ومن اقتراب الشمس إلى غروبها، هبّ فجأة وصعد الجبل غير مكترث بالمطر ولا بهدير السيل الهابط من أعالي الجبال، دخل وادي الرفاص، كانت تسمع صوته وهو يطرّب لأغنامه ثم اختفى مع قصف الرعود وصفير الرياح.

ظلت هناك متكوّمة على طفلتها الصغيرة وقد ألحفت جسديهما بقطعة واقية من المطر، وعندما قرب الليل ولم يأت، قامت آخذة طفلتها ناحية كهف في وسط الجبل، ثم نقلت متاعها إليه، هناك استطاعت أن تتقي سياط المطر وشدة الهواء البارد الذي تخلل عظامها، خلعت ملابس طفلتها واستبدلتها بأخرى ثم بدلت ثيابها وأوقدت نارا صغيرة في كومة حطب كانت موجودة بداخل الكهف، وجلست تترقب عودة زوجها الذي تعودت عليه يذهب ويغيب كثيرا ثم يعود.

لكنه لم يعد، فبعد أن خفت المطر وانقشع السحاب خرجت من الكهف لترقب المكان، رأت المياه وقد غمرت الوادي تماما، والهدير يتردد على سفوح الجبال، هدير المياه القادمة من الوديان البعيدة وهي تجرف معها ما تجده في طريقها من أشجار وأغصان يابسة وحيوانات وحجارة، بينما ظلت شياهها في مأمن هناك تحت السدرة التي لا يصل إليها السيل في مرتفع منبسط، ورأت الحمار يقف هناك في العراء وقد غسله المطر لأيام.

لأيام كثيرة انتظرته ولم يظهر، خرجت تقتفي أثره في وادي الرفاص ولم تجد له أثر، نادت باسمه في القمم ربما يكون قد سقط في مكان وانكسر ولا يقوى على الحركة، انصتت ربما يجيبها، بحثت في المنحدرات والسفوح، فتشت كل الكهوف التي تعرفها وتنقلت من واد إلى آخر تستكشف الجوابي والشقوق ولكنها لم تعثر عليه.

اتجهت صوب القرى وسألت عنه، أخبرتهم بقصته فهبّ الجميع يستكشفون الأمكنة ربما يعثرون عليه ولكن بعد مدة كفّ الجميع عن البحث، قالوا لها أن تسلّم أمره لله، وتحتسبه من المفقودين، وأخبرها معلم القرية أن تنتظر أربع سنوات وإن لم يظهر تعتبره ميتا بعد ذلك وتدخل عدتها.

ولم تنتظره أربع سنوات بل العمر كله، ظلت ترتقبه ليل نهار، لعل ليلا يؤوب إليها لينام في حضنها، أو صبحا يشرق بوجهه لتنتفض هي من رمادها وحزنها لغيابه الذي طال أمده.

كبرت الطفلة وأصبحت شابة جميلة يسري جمالها في المكان وتحتل أركانه كلما حضرت، شابة في مقتبل العمر ذات وجه جميل وصوت رخيم، تمنى كل من رآها أن تكون من نصيبه، لكنها اختارت بقلبها من رأته وقد أخذ قلبها من مكانه ووضعه في قفص مغلق.

جاء سلمان بن عبدالله لخطبتها من بلاده البعيدة، جاء لوحده واقتفى أثرها بين الوديان وسأل الناس عنها حتى وصل إليها، ولم تكن بالمنزل عندما حضر، خرجت تحتطب وفي عودتها سمعت صوته متحدثا مع والدتها، وعندما استقبلها بوجهه رف قلبها دون أن تعلم ما الذي جاء به. فاتح أمها بالموضوع وقالت له كعادة القرويين أنها سترد عليه بالخبر، وعندما انصرف أخبرت ابنتها بأمره، فصمتت. ظل في صدرها شيء يتردد صعودا وهبوطا، شيء يشبه الفرح والحزن في آن واحد، وبعد ليلة واحدة أخبرت أمها بموافقتها عليه.

انتقل سلمان بماله وحلاله ليعيش مع ثمنة ووالدتها، لم يقم عرسا كبيرا، دعا أقرباءه وأصحاب القرى المجاورة وأقام وليمة بسيطة لهم، ثم عاش متنقلا يبحث عن المراعي كما هي عادة الشواوي سكان الجبال.

مرضت أمها بعد أشهر مرضا شديدا ولم يمهلها المرض حتى يذهبون بها إلى أقرب مستشفى، حلّت بها الحمى لثلاثة أيام وفي الليلة الرابعة وقرب الفجر فاضت روحها لترحل معانقة القمم التي حطت عليها.

كان وقع ذلك شديدا على ثمنة، آلمها فقد أمها حتى أسقطت جنينا لها في بطنها من شدة الحزن، وفي الأشهر التي تلت ذلك أظلمت الدنيا في وجهها ولم تكد تشعر بشيء، بينما أصبح زوجها هو الراعي والطابخ والمعيل الوحيد لها في هذه البرية.

لم تحبل بعدها مطلقا، ظلت لثلاث سنوات بعد أن شفيت من حزنها وعادت إلى طبيعتها لتعود الحياة إلى البيت بهية في ضحكتها وفي تعويباتها التي يتردد صداها على السفوح، وكذلك عادت البهجة إلى نفس سلمان بن عبدالله الذي لم تسعه الدنيا إذ استطاعت أن تنتشل نفسها من ذلك القعر المظلم المليء بالسواد والفقد.

لكن الأقدار تترصدها كما لو أنه لا مخلوق غيرها يستحق ويلات الفراق والوداع المتكررة، عندما استقبلت صفعة الموت البغيضة وجها لوجه وهي ترى جثمان زوجها مسجى تحت السمرة في جبل المنازل.

حدث ذلك في الصيف، إذ كثرت في ذلك العام خلايا النحل البري، وصار يبحث عنها مع الباحثين، وبدأ يجني ما يعثر عليه، مما أعطاه أملا كبيرا في الحصول على عسل وفير تلك السنة، ولأن العسل البريّ مرغوب ومطلوب وسعره مرتفع لندرته فلقد انتهز فرصة تواجده في جبل المنازل، حيث سلاسل الجبال المرتفعة المليئة بالكهوف وأشجار اللقم والعسبق التي يفضلها النحل البري لبناء بيوته فيها.

وفي أحد الأيام وهو يبحث عن خلية وجد مورد نحلها عند ماء في أحد الشراج، وبدأ في تسلق الجبل حتى عثر عليها متعلقة في حجر كبير، فما كان منه إلا أن اقتطع طوقها وجنى عسلها ثم هبط المنحدر عائدا صوب بيته.

ولكن الموت عندما يترصد الفتى ينتظره في أي شيء مهما كان بسيطا، لذا تحرك الحجر الذي وضع رجله عليه فانزلق، ولأنه يمسك بيد إناء العسل واليد الأخرى حرة، سقط وحاول الإمساك بجسد الجبل قبل أن ينزلق إلى الهاوية، بينما يفكر في إناء العسل حتى لا ينكفئ ويخسره، إلا أن الوقت لم يمهله ليستمر انزلاقه فجأة ساقطا من الأعالي إلى هاوية سحيقة على رأسه.

تأخر موعد عودته كثيرا فقامت تتبع أثره، هرع كلبها راكضا أمامها مستدلا برائحته، وعندما اقترب من المكان ركض حتى وقف على قمة صغيرة تطل على الجثة ونبح نباح المفجوع، حينها انخلع قلبها وركضت ناحيته، لتجده هناك والدم قد سال على الصخر وتيبس.

أتت به على ظهر حمارها ووضعته تحت السمرة، لم يكن من أحد معها ليساعدها على تغسيله ودفنه لذلك ذهبت ناحية القرية المجاورة وطلبت منهم أن يأتوا معها بعد أن أخبرتهم بوفاته.

الامكنة التي كانت لها ملاذا وأمنا، صارت أكثر وحشة، تكثف الصمت والظلام في أرجاء الأمكنة، وهي هناك قريبا من قطيعها تنام متكومة من الفزع والحزن، فهي التي رأت في الموت وحشا ترصد أحباها وأخذهم واحدا واحدا ثم تركها رهينة وحيدة تمشي إلى الأمكنة بذاكرة تحمل فيها شيئا من حياتهم، سكناتهم وتحركاتهم، أوجاعهم وأفراحهم، أصواتهم التي تسطع في جمجمتها فجأة وتسمعها واضحة لتلتفت بحثا في المكان.

في البدء كان البكاء وسيلة للخروج من ثوب الوجع الملاصق لفقدها، لكنها كفت بعد ذلك عن بكائها، تحجر الدمع في مآقيها، صارت تستجدي هطوله دون فائدة، وهي الوحيدة الآن إلا من ذكراهم التي تحرسها وتقتات بها لتواصل رحلتها في الحياة.

منذ ذلك الوقت وعلاقتها مع البشر قد انتهت، وها هي لسنوات عديدة تعيش متنقلة بين الوديان والسيوح، تغني على القمم تعويباتها الحزينة الشجية في الراحلين بينما يسيل العمر أمامها مثل ينبوع وحيد في أرض مهجورة.

عندما يئس عزان بن سعيد في العثور عليها في كل الأماكن المجاورة لمنحله كفّ عن البحث عنها لكنها لم تكف عن حضورها في باله، وفي ليلة كان يقضي فيها سهرته مع صاحبه ناصر بن سالم الحطاطي أخبره بالأمر، أطلعه على المرأة واسمها، فتدفقت الحكاية من فم الحطاطي ليخبره عنها، وكان كلما فتح جزءا من الحكاية ينفتح في قلبه مكان أكثر اتساعا لها، وعندما سأله في نهاية حديثه :

- ليش ما تزوجت؟

قال له الحطاطي وهو يعقد حاجبيه محاولا استقراء ما يدور في ذهنه:

- خطبوها ناس كثر لكن ما رضت تتزوج.

تبرق عيناها في مخيلته للحظات فيتوقف عن فعل الأشياء التي يمارسها تلك اللحظة، كأن يقود سيارته فيتوقف على جانب الطريق وينظر أمامه مباشرة في فراغ مديد لا يرى فيه سوى عينيها العسليتين اللتين عرف سر جمالهما الساحر الذي سلب له مجاري دمه، أو كأن يفحص خلية من خلاياه وقد أمسك بأحد البراويز ثم يراها رأي العين فيغمض عينيه ويقف مكانه متسمرا غائبا عن الحياة، بينما يدبّ النحل طائفا حول البرواز في الوقت الذي يطير بعضه داخلا إلى الخلية.

يتذكرها قبل نومه فيحتله الأرق، أو تأتيه في صلاته فلا يدري كم ركعة قد انقضت من فرضه، أضحى صوتها دليله في الدروب، وأمست تعويباتها تحرس وحدته.

تكاثر النحل في خلاياه تلك السنة، تزاحم في صناديقه حتى فاض، بدأ يحضر للخلايا التي أكملت عشرة براويز صندوقا مفتوحا من قاعدته ليضعه في أعلى الخلية ثم نقل فيه خمسة براويز من الأسفل ليتوزع النحل في خلية مكنونة من طابقين حتى لا يتزاحم أكثر وبالتالي لا يفقده من أثر التطريد الإجباري، وظل يراقب تلك الخلايا ويزيدها براويز جديدة وضع أساس الشمع فيها ليقوم

النحل بمطه في يوم أو يومين ومن ثم تبدأ الملكة في وضع المزيد من البيض في البرواز الجديد، مستغلة بذلك قوة المرعى في موسم الربيع.

اشترى كراتين كثيرة من أساس الشمع، ووضعها بالقرب من المنحل في صندوق معدني مع الكثير من البراويز الفارغة التي تنتظر استغلالها.

استفاد من نقل منحله إلى الجوبة تلك السنة إذ حافظ على الخلايا في صحة جيدة حتى تدخل على الموسم بنشاط كبير.

هناك تفرغ لعلاجها من كل الأمراض التي تحيط بها، في البدء وضع الشرائح التي يعالج بها طفيل الفاروا لكل خلية شريحة واحدة يضعها في الوسط تماما بالقرب من الحضنة، وراقب مفعول العلاج في الأيام المقبلة.

كانت شرائح العلاج المتدلية من أعلى البراويز تحوي مادة سمية تقضي على الطفيل الذي يتكاثر في العيون السداسية مقتاتا على اليرقات الصغيرة، لكن سمية تلك الشرائح تقضي عليه ليسقط على قاعدة الصندوق، وعلى عزان أن ينظف القاعدة من تلك الحشرة المزعجة التي تقضي على النحل بكنسها وإلقائها خارجا.

ترك الشرائح لأربعة أسابيع حتى يضمن أجيالا جديدة خالية من المرض، فالفاروا هي أحد الأعداء التي تقضي على النحل، تقتات على دم اليرقات ثم تتغذي على أجنحة النحل الصغير الذي خرج لتوه فلا يستطيع الطيران وبالتالي يزحف على الأرض ويموت.

لابد له من أن يعالج عن الفاروا مرتين في السنة، في تلك الأوقات التي تبدأ فيها بالنشاط والتكاثر في داخل العيون السداسية، تلك الحشرة الصغيرة التي تشبه القملة في صغرها، والتي تجيء من المرعى على ظهر العاملات لتندس في كثير من العيون وتبدأ في التكاثر.

قبل ذلك لم يكن يعالج خلاياه من هذا الطفيل، وبالرغم من أنه عندما فحص الكثير منها لاحظ وجود حضنة جيدة فيما لا يقل عن بروازين، ولكن كثافة النحل تقل تدريجيا، وكان يعزوا ذلك إلى شدة الحرارة أو شدة البرد، بينما كان طفيل الفاروا يقضي على معظم النحل الجديد الخارج توا.

فقد الكثير من النحل، ماتت بعض الخلايا وبقيت بورا، اشتد الوباء على بعضها ولم تستطع أن تعيش في صناديقها فهجرتها لتذهب بعيدا في الجبال، اكتشف ذلك مؤخرا فبدأ في علاج ما تبقى واندهش من كمية الطفيل المتساقط على قواعد الخلايا، حينها بدأت تعود تدريجيا إلى نشاطها، بينما قرر دمج بعضها مع بعض حتى لا يفقدها تماما.

لم يكن حلم الفاروا موجودا من قبل، مثله مثل كثير من أمراض النحل الحالية التي وصلت إلى المكان عبر طرود النحل المستورد، لقد عانى معظم أصدقاءه النحالين من القضاء على تلك الأمراض بإتباع قواعد أكثر صرامة في التعامل مع النحل.

في كل اسبوع يغير ويبدل طريقة علاجه، مرة يحضر معجون الثوم ثم يضع ملعقة صغيرة منه أعلى البراويز، وفي الاسبوع التالي يغمس كرات القطن في الكحول المركز ويبادل بين هاتين الطريقتين.

من خبرته المتراكمة في مجال تربية النحل يعرف مدى أهمية الثوم بالنسبة للنحل، فهو يعمل كمعقم للخلايا ضد الكثير من الجراثيم، ويحد من تكاثر طفيل الفاروا، ورائحته تعطي الملكة النشاط لوضع بيض أكثر، بينما الكحول يعمل على تنشيط النحل عامة ما يستثيره لتنظيف الصندوق من الداخل وإلقاء جميع المخلفات خارجه.

يتفقد قاعدة الصناديق وينظفها دائما فهناك تحب فراشة الشمع في الزوايا الضيقة للصناديق أن تضع بيضها خفية. حتى في ذلك المكان البعيد النائي في الجوبة وجد فراشة الشمع داخلة في بعض الخلايا، لا يعرف من أين جاءت، ولا قضاء على هذه الفراشة ولا ضررها إلا بالتنظيف الدوري لتلك الصناديق ومتابعة نشاط الخلايا، فكلما كانت الخلية ضعيفة جدا كلما هجمت عليها فراشة الشمع لتملأ العيون السداسية الفارغة ببيوضها وبالتالي تفسد الإطارات تماما. وعليه كلما عثر على ديدان الشمع في أحد تلك الإطارات أن يخرجه ويحرقه بعيدا عن المنحل.

عندما يأخذه التفكر في تلك الأمراض يتذكر قول الشايب سالم بن علي في كل مرة تكتشف فيها أمراضا جديدة في الأشجار أو الحيوانات كان دائما يردد:

- ايش يجينا من الخارج، كل البلاوي هناك، واحنه ما عندنا إلا فاتحين بلادنا للشر اللي يجي أكثر من الخير.

مكث شهرا ونصف في ذات المكان، لا يذهب إلا لشراء ما يحتاج إليه ثم يعود مسرعا، أو تمر عليه بنت الصعب أو زوجها، وفي الليالي ينتظر هبة الصحراء في سماع هدير محرك سيارة البدوية التي تأتي على فترات متباعدة لتمكث معه بضع ساعات ثم تذهب.

شعرها الفاحم الطويل المضمخ بزيوت عطرية يغسل رئته مما تكدس فيها من غبار الأيام، وشوشة الذهب في معصميها يشبه همسها الذي يكاد لا يسمعه، جسدها اللدن وكأنه يمخر في بحر ثم تتركه بين النوم واليقظة وتخرج على أطراف قدميها تظنه نائما، بينما يستمع إلى خطواتها ثم إلى أزيز سيارتها مغادرة.

اتصل به صاحبه ناصر بن سالم الحطاطي يسأله عن أحواله ويطمئن عليه، فهذه المرة الأولى التي يغادر فيها المكان لمدة طويلة هكذا، تداول معه الأخبار واطلعه عزان على المكان وأريحيته فقرر الحطاطي أن يزوره مع صديقهما الثالث سعيد بن حمد.

بعد أيام كلمه مرة أخرى وأخبره أنهما قادمان فخرج يستقبلهما على الطريق العام، ثم أحضرهما إلى خيمته، فتعجب الحطاطي من كيفية معيشته تلك، وبدأ يسأله عن أحواله يجيب عليها عزان بتفاصيل كثيرة تجعلهما يهزان رأسيهما متعجبين من قدرته على البقاء في مكان واحد هكذا طوال هذه المدة.

في المساء تحدث حمود بن غابش إلى عزان وأخبره بأنه سيمر عليه في حدود الثامنة والنص ليلا ليسهر معه، لم يخبره بقدوم صاحبيه بل جعلها مفاجأة له، ولم يخبر صاحبيه أيضا بما اتفق عليه مع بن غابش.

أجهز تلك الليلة عشاء رائعا من اللحم المقلي، وشواء الدجاج وأخرج قنينة من عسل البرم، جعل تجهيز كل ذلك متأخرا حتى يحضر البدويّ، وفي الثامنة والربع سمع صوت سيارته تقف بالقرب من تل الرمل ثم سمع صوته يناديه قادما.

اندهش البدوي حين رأى أصحاب عزان يجلسون بجانبه، عاتبه إذ لم يخبره حتى يقوم بالواجب وعزم عليهم صباح الغد لتناول الفطورعنده، ولم يدع لهم كلمة ولا رأي حتى افتض منهم الموافقة على ما أراد.

في عتمة ذلك الليل وهم يجترون الحكايات كل يلقي ما يملكه منها على الرمل، يسمعون هدير سيارة تقترب من مخيمهم، يتتابع صوت اقترابها حتى تقف أسف التل لكنها تشتعل مرة أخرى مبتعدة لتختفي في العتمة.

كاد سعيد بن حمد أن يذهب مستطلعا لولا أن أشار له البدويّ بالجلوس، قائلا له:

- خطّار صاحبك ما عجبتهم اللمّة.

وهو يغمز عينه لعزان الذي لم تظهر على ملامحه أية نتيجة تدل على ارتباكه أو سعادته، وهو كذلك مذ عرفه أصحابه لا تستطيع أن تأخذ من وجهه حقا ولا باطلا.

في يوم رجوع أصحابه إلى القرية رافقهم حتى الطريق العام ووعدهم بعودته قريبا، فعليه أن يتم بعض ما تبق من أعمال تخص المنحل وسيأخذ ما يشبه الإجازة لأيام بعيدا عنه.

رفع طوابق جديدة في خلايا منحله حتى وصل عددها إلى عشرين خلية ذات طابقين، ورأى الوقت مناسبا ليبدأ في عملية التقسيم لصنع خلايا جديدة، وبواسطة جهاز جنتر لصنع الملكات العذراوات استطاع أن يحصل على مئة ملكة جديدة، لكن احتياجه لما يقرب النصف من تلك الملكات فاحتفظ بالباقي وأرسل رسالة من هاتفه كإعلان لبيع تلك العذراوات المتبقية والتي جعل سعر الواحدة بثلاثة ريالات.

استقبل الكثير من الاتصالات وفي غضون يومين باع آخر دفعة منها، واستقبل اتصالات أخرى ترجوه في صنع ملكات أخرى مما حدا به لإعادة التجربة من جديد.

خمسون طردا جديدا جاهزة الآن لإضافتها إلى منحله، لم يشأ أن يبيع منها شيئا، فهو يتمنى إكثار الخلايا اتقاء لبعض مواسم الشح التي يضعف فيها النحل وتموت طوائفه من الجوع.

وها هو الآن في النجد الواقع بين هضبة الجبل الأبيض وجبال الحلوي، في هذا السيح الواسع المليء بأشجار السمر، ينتظر بداية الموسم بخلايا جاهزة لنشر جيوشها في الأرجاء جالبة رحيق زهور البرم ولتصنع منه عسلا أسود فاخرا ينتظره الكثير من الناس ليشتروه منه.

هناك مشكلتين يتمنى أن لا تحدث إحداهما في موسم البرم، الأولى نزول المطر برغم أهميته للنحال وللنحل إلا أنه يتسبب في سقوط كافة الزهور المتفتحة لأشجار السمر وبالتالي لن تزهر تلك الأشجار ثانية، وسوف يضيع عليه الموسم تلك السنة.

حدث ذلك فعلا لعدة مرات متفرقة، في أحد السنوات وبعد أن جنى القليل من عسل البرم وفي عز الموسم حدث منخفضا جويا هطلت فيه الأمطار لثلاثة أيام متتالية أصبحت أشجار السمرفيه عارية تماما من كل زهورها ، وفي سنة أخرى هطل المطر في بداية الموسم مما أجل في إزهار كثير من الأشجار التي شربت ماء المطر وأنبتت أوراقا ثم أزهرت متأخرة وحدث أن اختلط عسل البرم بعسل الزهور الأخرى التي نبتت جراء المطر مما غيّر في لون العسل من أسود غامق إلى أحمر فاتح، وبرغم أنه جنى الكثير من ذلك العسل إلا أن ذائقة الناس الذين يبحثون عن عسل البرم كانوا يودونه خالصا، وهذا لا يعني بأنه لم يبعه تلك السنة بل باعه وبالثمن الذي حدده لوحده واستفاد منه، لأن هناك الكثير من المشترين الذين يحبون العسل هكذا أيضا.

المشكلة الأخرى وهي تكاثر يرقات الفراشات البيضاء عند تزهير أشجار السمر التي تقتات عليها آكلة عيدان تلك الزهور اللؤلؤية البيضاء لتسقط كلها على الأرض، وما من حل لهذه المشكلة إذ تعمّ المكان من كثرة تلك الفراشات التي تحاول التكاثر في ذلك الموسم الربيعي المؤاتي لها في اعتدال حرارته ووجود الغذاء المناسب، لكن هذا لا يعني أنه لن يحصل على بعض العسل وإنما ستكون الكمية أقل من المتوقع.

يسمع صوت نباح يجيء من طرف السيح تحجبه أشجار السمر، نباح مكتوم يصله عن بعد، يقف منصتا له لعله يعرف مكانه ليهتدي إليه، يتردد النباح مرة إثر مرة في أوقات متباعدة، ينصت ربما يسمع صوت ثغاء أو غناء ولكن لا شيء سوى نباح كلب بعيد.

يقفز إلى سيارته ويذهب في ذلك الاتجاه، فهو موقن الآن بأن صوت الكلب لن يبتعد أكثر من دقيقتين على السيارة، يشق طريقه بين الأشجار متتبعا دربا سلكه أحدهم من قبل أو يختصر المسافة صانعا دربا جديدا، ثم يتوقف وقد أطفأ محرك سيارته منصتا إلى النباح ريثما يعود مرة أخرى متناهيا إلى مسمعه.

كلب أبيض ببقع سوداء غطت جسده يقف على صخرة كبيرة وينبح، لم يكن كلب الراعية ذاته، لم تكن هي ولكن أحد الرعيان انتقل بقطيعه قادما من وادي حام ذاهبا إلى وادي منصح، مرّ من هناك واستراح تحت تلك الصخرة ليأكل بضع تمرات وليشرب فوقهن القهوة ليعينه ذلك على المضي طويلا حتى يصل إلى مقصده.

شعر بالحزن يتكدس في صدره ويثقل كاهله، ما الذي فعلته الشاوية حتى صار على حافة الجنون، يهجس في نفسه: "هذا جنون حقا، أن أبق متعلقا بسماع صوتها أو بانتظار خيالها خارجا عليّ من بين ثنايا هذه الأشجار، ما الذي حدث حتى رفّ هذا القلب فجأة دون أن يرف مسبقا، لا أعرفها تماما، لا أعرف سوى حكايتها التي سمعتها من الحطاطي ولكنني مستعد أن أسير في طريقها غير عابئ بكل ما أملك، لقد اختفت فجأة وأخذت معها شيئا من بعضي، لقد تركتني ناقصا، بل لقد زرعت فيّ شيئا جديدا لم أعهده حتى أستشعر نفسي وقد أصبحت الآن كاملة، شيء ما انقشع من ضباب روحي لتخرج هي من خلال ذلك الضباب، بعثتني من سكرتي المديدة وليتها

لم تفعل، آه لهذا المكان الذي ساقني إليها، أين سأجدها؟ وما الذي سأقوله لها وأنا مدرك بأنها لا تود الاقتراب من أحد، الجنيّة الجبلية المتوحدة هذه تشبه الساحرات اللتي يحكون عنهن وهن يغيّبن الشباب في الوديان البعيدة بصوتهن الشجي، يصعدون خلفه ثم يسقطون في الهاويات السحيقة حبا وتضحية في غنائهن الساحر".

في بدايات شهر أبريل لتلك السنة بدأت أزهار السمر في التفتح، عبق المكان بالرائحة المميزة لتلك الزهور اللؤلؤية وبعد أيام صار يشم الرائحة في الخلايا كلما فتح عن بعضها الغطاء، ولذا واستعدادا للموسم عليه أن يصفّي الخلايا مما بها من عسل قديم ويتركها لتمتلئ بعسل السمر، هكذا ومن صباح اليوم التالي أحضر معه فراز العسل وبدأ في تصفية جميع خلاياه، ساعده في ذلك كل من ناصر بن سالم الحطاطي وسعيد بن حمد والعامل البنجالي.

وضع العسل المستخرج في دلاء محكمة الغلق ليستفيد منه فيما بعد الموسم عندما تشد الحرارة وتموت الأعشاب ويقل المرعى، لابد له أن يعوّض خلاياه بهذا العسل الذي سيعجنه مع حبوب اللقاح الطبيعية التي يشتريها دائما من محل بيع أدوات المناحل.

تلك المرحلة الحرجة من كل عام يحاول بعض من أصدقائه النحالين أخذ مناحلهم إلى المنطقة الجنوبية في ظفار لدخولها سنويا في تلك الفترة في موسم أمطار يستمر لثلاثة أشهر، تنبت فيها الأعشاب وتزهر في كل مكان حتى تصبح الأرض مكسوة بالأخضر، وعندما ينقشع الضباب تتحول المروج والجبال إلى بساط ملون من أزاهير تلك النباتات، مما يجد النحل مرعى خصبا ليتكاثر ويزيد، ولكنه لم يجرب تلك التجربة، إلا هذه السنة عندما أخذ منحله إلى الجوبة ولكنه يتمنى لو يجد الفرصة لأخذه إلى ظفار.

الصيف لديه يعني التعب والهلاك، فما ينجو من نحله من شدة حرارة الجو سيهلك بسبب الدبابير الحمراء التي تتكاثر في تلك الفترة متغذية على تمور النخل، تلك الدبابير التي لا شغل لها غير اقتناص النحل الخارج إلى المرعى وأكله.

لقد أتعبته الحيلة ولا يدري ماذا يفعل وكيف يسيطر على ذلك، وضع الكثير من مصائد الدبابير حول المنحل وطعّمها ببقايا الأسماك حتى تجذب رائحتها تلك الحشرات، وكانت تدخل منها في تلك المصائد المئات يوميا وتموت مع ذلك ما زال الكثير من الدبابير حائما حول المنحل.

بحث عن بيوتها في الجبال المجاورة، تتبعها عندما كانت تجيء للشرب ووجد بيوتها ودمرها ووضع السم على بوابات تلك البيوت فقضى عليها، لكن الكثير من تلك الدبابير كانت تجيء من مسافات بعيدة ولن يستطيع أن يقصي كل تلك البقاع بحثا عن تلك البيوت.

تمنى أن يجد مكانا في الجوار خاليا من الدبابير، لكنها دائما تعيش في مناطق الجبال وبقرب واحات النخيل، إلا أن عليه الآن أن يفكر جديا في نقل منحله إلى أرض الجوبة مرة أخرى أو يذهب به إلى الجنوب.

إن خوفه من الجنوب واحتراسه من خسارة نحله أكثر من أن يذهب به إلى الجوبة ، فبرغم الأرض المعشبة في ظفار إلا أن المطر أحيانا يشتد لأيام متتالية مما يتسبب في جوع الطوائف وتبدأ في مهاجمة بعضها بعضا لعدم قدرتها على الطيران بعيدا، وبالتالي ستهلك الكثير من تلك

الطوائف كما حصل مع كثير من النحالين في إحدى السنوات حيث لم يتوقف المطر لأكثر من اسبوعين ليل نهار مما انهارت تلك الخلايا وامتلأت بالماء وتعفنت ومات النحل الذي يسكنها وبدلا من أن يعودون من هناك بخلايا نشطة عادوا بصناديق فارغة أكلها الماء والعفن.

في كل عام تخرج قوانين جديدة من وزارة الزراعة لتضيّق الخناق على النحالين في نقل مناحلهم إلى مناطق أخرى إلا بموافقات من مراكز الزراعة هناك وبتعهدات من أصحاب المزارع على استقبال تلك الخلايا، جعلت تلك القوانين حرية التنقل صعبة جدا ، وهو يعلم مغامرات أصحابه الذين ذهبوا رغما إلى تلك الأماكن لأنهم لا يودون في خسارة أموالهم التي تعبوا في إدارتها، كل هذه الأشياء تثبط من عزيمته هو الرجل الذي لا يريد أن يتحرك كثيرا ويشعر بالقلق واللاجدوى عندما يستمع إلى الأحداث التي تقع كحرق مناحل أحد النحالين لأسباب واهية منها أنه لم يكن لديه تصريح نقل أو أنه وضع منحله في مكان محظور على النحالين.

بدأت أفواج النحل تخرج إلى المراعي المزهرة، فمنذ الصباح الباكر راقب النشاط في الخلايا عبر بواوبات المرعى، رأى جيوش النحل وهي تسوق حبوب اللقاح وأغلبها عائد وقد امتلأت حوصلاتهن بالرحيق، ويوما بعد يوم امتلأت البراويز بالعسل وبدأ النحل بعد اسبوعين بتشميعه ايذانا بنضجه بعد أن طبخته العاملات وسحبت منه الرطوبة الزائدة، ولأن الموسم ما زال في بدايته سيفيده ذلك في فرز الخلايا أكثر من مرة لينتج أكبر قدر ممكن من العسل في نهاية الموسم.

أخذ فراز العسل مع معاونيه وبدؤوا قبل شروق الشمس، انقسموا فريقين، عزان والعامل البنجالي يخرجون براويز العسل من الخلايا ويضعونها في صناديق فارغة حتى إذا امتلأ ظهر السيارة أخذوها إلى حيث ينتظر سعيد بن حمد والحطاطي لاستخلاص العسل منها بواسطة الفراز، مرت الساعات وهم يعملون حتى انتصف النهار ودخل الوقت على الظهيرة، وما انتهوا إلا من نصف الخلايا.

أحضر عزان بن سعيد معه ثماني دلاء فامتلأت كلها بالعسل، عندها قرروا التوقف ذلك اليوم وإنهاء ما بقي في اليوم التالي، وأعاد عزان البراويز المفروزة إلى الخلايا، وذهبوا ليعودوا غدا مرة أخرى.

مرّ الموسم وفيرا تلك السنة، حيث كانت حصيلة ما جنوه من العسل يقارب ألفا ومئتين كيلوجراما، تم تخزينها في مناضج العسل، تلك الخزانات الكبيرة الحجم المصنوع من المعدن الغير قابل للصدأ، في انتظار تعبئته في قناني الزجاج التي خصصت له.

انتهى موسم العسل في تلك السنة، ودخل الصيف بلهيبه وحرارته، أراد عزان بن سعيد نقل منحله إلى مكان آمن وظل وارف بداخل مزرعته، ولكن عنّت له ولصحبه رحلة جبلية أرادها سعيد بن حمد للبحث عن العسل البريّ، لذلك تم تأجيل نقل المنحل حتى عودتهم من تلك الرحلة.

في تلك الساعة المبكرة من صباح صيفي ، وقبل أن تشتد حرارة المكان في الثلث الأخير من شهر يونيو، كانت أشعة الشمس تسقط مائلة على السفوح الجبلية في عقبة النخلة ، بينما تنبثق المياه من بين الحصى منسكبة في حوض صغير مفتوحا على جفاف المكان ، يسري خرير الماء مخترقا ذلك الصمت المطبق على المكان ، يملأ الحوض بعذوبته الباردة من ليلة تخللتها رياح الكوس ثم يتدفق غائرا مرة أخرى في رملة ناعمة قد اكتست نعومتها بالبلل قبل أن يغور مرة أخرى في كومة حصى كبيرة تغطي الوادي، ولولا تلك البقعة الصغيرة التي ينبع منها الماء لما كان هنالك من أثر له لمسافة طويلة بسبب الجفاف وقلة الأمطار التي هطلت شتاء ذلك العام.

في الرملة الناعمة أسفل الحوض الصخري ترقص النحلات الصغيرة رقصة الفرح بوجود ذلك المنهل العذب قبل أن تقف وتدس لسانها الصغير في الرملة الرطبة شاربة حتى الارتواء ثم تطير محلقة صوب قمة الجبل الشرقيّ في الحد الفاصل بين وادي وعلة وعقبة النخلة وقد سلكت طريقا مستقيما وكأنها تتعلق بخيوط الضوء الصباحيّ المائلة ، بينما كانت أجنحتها تلمع وقد بدت في البعد مثل ذرات بيضاء متوهجة تخترق ذرات الغبار الصغيرة العالقة في جو الجبال العالية .

ترقص النحلات على الرملة ، تطير فرادى أو جماعات ، تتسابق على شرب ما يمكنها من ماء تحمله معها صوب خليتها التي دستها في مكان ما في القمة ، وكان ذلك السباق ضروريا قبل أن تشتد حرارة المكان حينها يهدأ النحل ويتوقف قبيل الظهيرة .

السماء زرقاء مغبرة بعض الشيء ، لكن الجو صحو تماما ، وعلى ضفة الوادي بالقرب من الينبوع تقف نخلتان نحيلتان وبينهما غطت المكان بظلها الوارف شجرة لثب كبيرة أحاطت بها أعواد الحلف الصفراء وكأنها تحرس المكان وتخفيه عن كل طارق .

بين أعواد الحلف الصفراء اندس رجل أربعينيّ وقد لبس قميصا قطنيا على لون الأعشاب وتعمم بمصرّ داكن ، كان قد تماهى مع العشب وجلس هناك ساكنا يرقب الرملة الناعمة ، مستمتعا بمراقبة تلك الكائنات الصغيرة وهي تجيء وتذهب ، محاولا أن يرسم في مخيلته طريق ذهابها إلى الخلية .

لقد وصل إلى المكان مساء البارحة مع رفاقه ، وضعوا أمتعتهم عند جذع الشجرة واستصلحوا لهم مكانا تحتها ، لكنهم قبل غروب الشمس صعدوا التل على الناحية الغربية وهناك صنعوا مرقدا لهم في ذلك المكان المفتوح على ريح الكوس ، وبرغم البعوض الذي تحلق حولهم محاولا أخذ وجبته من الدم إلا أنهم ناموا نومة عميقة غير آبهين بشيء .

في نومته تلك لم يستيقظ سوى مرتين فقط ليغير من وضعية رقدته وليقرأ الوقت في ساعة اليد ، ثم يعود ليغرق مرة أخرى في بحر النوم هانئا بذلك السكون العميق في جبال الحلوي البعيدة عن القرية .

يلتف على نفسه في وضعية الاستعداد ، لقد جلس على الأرض واتكأ بمرفقيه على ركبتيه واضعا يده اليمنى أمام عينيه ليحجب ضوء الشمس عنهما ، لقد تسلل إلى المكان قبل هبوط النحل لورده ، اندس هناك حتى يسهل له المراقبة دون أن يعرف النحل شيئا عنه ، لقد جاء هو ورفاقه

خصيصا للبحث عن تلك الخلية بعد أن أعيت الناس بحثا واستكشافا في الجبال المحيطة ، فالذين بحثوا عنها كانوا يبحثون في المكان الخطأ ، لذلك كان عليه قبل أن يفقد طاقته في البحث أن يعرف درب تلك الدبابير الصغيرة من أين تجيء وإلى أين تذهب .

لقد اكتشف سلطان بن حسن مسقّي (مورد) النحل هذا منذ أبريل الماضي ، كان قد داهمه في صبيحة أحد الأيام وقد وصل إلى المكان في حدود الساعة العاشرة صباحا ، كان ضوء الشمس قد غطى المكان تماما ، ولا يمكن له أن يراقب مسار النحل في تلك الساعة من النهار ، فالضوء القوي المشع يخفي النحلة عندما تطير ولا يمكن رؤيتها ولا اتجاهها بمجرد أن تحلق مرتفعة إلى الأعلى .

لكن سلطان بن محسن وضع زاده تحت شجرة اللثب ، أوقد ناره وصنع قهوته ، وعند الظهيرة وقبل أن يصلي صلاة الظهر كان قد طبخ غداءه ، لقد قرر أن يبقى في المكان حتى تميل الشمس ناحية المغرب ، وعند الثالثة عصرا اقترب من الحوض لكنه لم يستطع أن يمسك بأية نحلة تذهب ، كان النحل قد غير مساره بعدما أحس به ، فبعضه كان يتجه غربا حتى يختفي في بياض الفضاء ، والبعض كان يرتفع عموديا بينما بعضه كان يندس في أعشاب الحلف متخذا طريقا لولبيا لم يقدر على التواصل معه لسرعة طيرانه وصغر حجمه .

بات سلطان تلك الليلة ولثلاث ليال أخر بعد ذلك باحثا عن خلية العسل تلك في سفوح الجبال القريبة ، كان في كل مرة يقترب من الينبوع يكتشف دربا جديدة للنحل غير الدرب الأولى التي رآه يسلكها ، وفوق هذا كان النحل عندما يشعر باقتراب الرجل من الحوض ينقطع عن المجيء للشرب ، وكان عليه أن ينتظر كثيرا دون فائدة .

رجع سلطان إلى القرية وأخبر إخوته وبعد أيام ذهبوا للبحث عن العسل مرة أخرى ، كانوا ثلاثة ، ظلوا هناك لأربعة أيام باحثين في كل الأمكنة ، وبعد أن تعبوا من البحث أخبروا الآخرين عن مكان المسقّي وعن حالته وكيف أنهم تعبوا كثيرا ولم تبق في المكان بقعة إلا واستكشفوها ، لم يبق كهف ولا شجرة ولا حصاة وقد قلبوا المكان رأسا على عقب ولم يعثروا على شيء .

لقد سمع سعيد بن حمد عن حكاية مسقّى العسل ولم يكترث ، لم يذهب كما ذهب الآخرون جريا بل انتظر حتى هدأت الأمور واستكان الناس وعاد النحالون إلى بيوتهم ، وقال لرفاقه الذين استشاروه للذهاب :

- تهيّدوا .

كان الجميع يبحث منذ بداية أبريل ، كانوا يركضون في الوديان والجبال باحثين هنا وهناك عن كل نحلة تطير ، لكن ذلك الركض يهدأ ما إن تشتد الحرارة ويدخل الصيف بعنفوانه على الجبال ، عندها تخف الأقدام عن طرق الدروب الجبلية وتخمد المواقد في الوديان البعيدة ويعود الهدوء للمكان إلا من أصوات كائناته القليلة والمتوجسة .

عرف سعيد بن حمد حكاية النحل تلك وسأل كل من حكى له عن سلوك النحل في طيرانه ، كان يستقرئ الوضع من بعيد قبل أن يذهب ، ولم يكن ليذهب قبل الأوان فهو يعتقد بأن الأرزاق

مقسّمة قبل أن يخلق البشر ، وها هو الدليل بين عينيه ، فكل من ذهب باحثا عن ذلك العسل عاد خائبا وكان يعتقد بأن من السهولة جدا أن يحصل عليه .

في تلك الأيام الأخيرة من شهر يونيو وضع زاده في حقيبته وذهب ، كان قد قبل التحدي مع نفسه بأن يجد العسل وأن لا يعود إلا وقد أحضره معه ، تواعد مع ناصر بن سالم الحطاطي وكان أكبرهم سنا، وعزان بن سعيد أو الذي كان لقبه عزان حلّيه، اتفقوا أن يلتقوا عند عقبة العين، وكان الحطاطي قد وصل متأخرا بعد أن قلق أصحابه عليه ، كان عزان على وشك حث صاحبه للصعود دون انتظاره، ولكنه نظر ناحية سعيد بن حمد فرآه يتكيء على حقيبته مسترخيا وهو يراقب قمم الجبال.

وصل الحطاطي لاهثا، اختلق لهم عذرا، الغفوة قد أخذته، كان سعيد بن حمد منكسا رأسه يرتب حزام حقيبته عندما نظر بنصف عينه إلى عزان الذي كانت إبتسامة خفيفة تتعلق بطرف شفته السفلى، ولكن ما إن لمح تلك النظرة من سعيد بن حمد حتى اختفت وعمّ الصمت.

خرجوا من القرية بعد صلاة العصر مباشرة ، استقبّلوا وادي قعبت وانعطفوا ناحية وادي مقدسي ، ثم صعدوا العقبة الطويلة في جبل الطايح حتى أشرفوا على عقبة النخلة من فوق .

كانت الشمس على قدر قامة إنسان عن المغيب ، جلسوا هناك يلهثون من التعب والعطش ، اخرج عزان من حقيبته بضع تمرات وقنينة ماء تناوبوا على شربها ، كانت ريح المساء تهبّ صاعدة المنحدرات وما زال بها بعض السخونة بعد نهار قائظ .

من هناك يستطيع الرائي أن يرقب الوديان البعيدة ، شجرة اللثب الكبيرة في شغف حبيب تلعب بها الريح ، والسدرة التي على مصب وادي المليل بدت شاحبة بأوراقها الصفراء ، نظروا إلى أسفل الوادي حيث سيتجهون ، راقبوا قرص الشمس ، عليهم أن يهبطوا سريعا قبل الغروب .

قبل أن يشق الصباح طريقه إلى الجبال ، دخل سعيد بن حمد في عتمة الفجر إلى أحراش الحلف واندس فيها ، جلس هناك منتظرا بصبر وهو يرقب تفتح المكان رويدا رويدا مثل زهرة جبلية تتفتح في الأعالي ، كانت القمم غارقة في العتمة مثل وحوش ضخمة تحرس الوادي ، بينما يرى أشجار اللقم في المنحدرات البعيدة وكأنها حيوانات أسطورية تراقبه ، وهناك من إحدى القمم يأتي صوت طائر المصميم رقيقا وعذبا مثل أغنية منسية لراعية تهجر المكان إلى بقاع أكثر اتساعا ، كانت أسراب البعوض تولي هاربة لتدخل إلى الأحراش خوفا من الضوء ، لقد سمع طنينها الهادر وهي تذهب ، لقد مرّ به سرب كبير وهو في جلسته المتصلبة تلك ، بل لقد حامت حوله بضع بعوضات وطنت قريبا من أذنيه قبل أن تستكين إلى بياتها النهاري الأشد قسوة في الظهيرة .

طلب من رفاقه عدم الاقتراب من المكان وأن لا يحدثوا ضجيجا، تمنى أن لا يتحدثون ولو همسا، وكان هذا المطلب لصالح الحطاطي الذي واصل رقدته مستغلا ذلك الوقت القصير بين الفجر والشروق .

لم يتبق في مسمعه سوى صوت الخرير المنساب بين الحصى نازلا في الحوض الصخري ، وكان المكان لم يزل مبكرا لنزول النحل ، مع ذلك ظل مرابطا مكانه مستسلما لحفيف أوراق الحلف حين تلعب به ريح الصباح الأشد نعومة من صوت إمرأة تناديه في الذاكرة .

ينبلج الصباح شيئا فشيئا ، تمتد خيوط الشمس مائلة من القمم الشرقية ، سرب حمام جبليّ يحط بالقرب من الحوض ، سرب حمام متوجس يقف على الحصى ، كانت خمس حمامات رمادية اللون ذوات أعناق يلتمع ريشها بألوان مختلفة ، ولأن الحمام الجبليّ يعجبه فلقد آنس لهذا القرب منها وظل يتمعن في حركاتها وهي تقترب من الماء وتشرب ثم ترفرف جافلة وكأنما أحست بشيء غريب قربها ، أو كأن رائحته قد وصلت إلى أنوفها ولم تدرك مكان الخطر ، شربت مستعجلة ثم رفرفت الحمامات متتبعة مجرى الوادي صعودا حتى اختفت في المنحنيات الصخرية .

يتمدد الضوء في القمم فيهبط إلى الأسفل ، التفت إلى رأس قمة وادي حبيب، كان الضوء يزينه مثل رأس جنديّ تلتمع قبعته، ينتشر الضوء على مهل و ينكمش الظل منحسرا ذاهبا إلى بقاع أكثر أمانا حيث لا يستطيع الضوء الوصول، وكلما طال الوقت ارتفع قرص الشمس ونزل ضوءها ناحية الوادي.

عينان من بين أحراش الحلف تلمعان، عينان ترقبان الماء ، لمعة الضوء وصلت منعكسة إلى حيث الرملة الناعمة فبدا بريق نجيمات يلتمع في قطرات الماء الصغيرة ، وما هي سوى لحظات حتى سمع طنين نحلة يحتل المكان ، نحلة واحدة فقط ، نحلة تحلق حول النبع ، تطنّ على صفحة الماء ثم تذهب إلى الحصى الكبير ، هناك حيث يخرج الماء منسابا تطنّ ، كأنها تستكشف المكان وتختبر أمانه وأعداءه ، تستمر في دورانها وطنينها لدقائق ثم تقف على الرملة الناعمة ، تدخل إبرتها وتمتص الماء .

شعر سعيد بن حمد بأن الوقت الذي استغرقته النحلة في شربها للماء هو عمر طويل ، زمن كاد أن يتمدد للأبد ، حتى أن نفسه قد وسوست له بأن النحلة قد غادرت المكان ولم تعد هناك ، ولولا أنه يرى التماع جناحيها في بريق الرملة الناعم لصدق هواجسه وكف عن المراقبة ، كان قد توقف حتى عن رفّ رموشه خوفا من غيابها عن ناظريه ، شعر بحرقة خفيفة في عينه اليمنى لكنه لم يعطها أي اهتمام ، بدأ الضيق ينبت في صدره ، الملل كائن سرعان ما يخرج قرون استشعاره خصوصا في مكان صامت جدا كهذا ، قال في نفسه :

"هذه ليست نحلة، إنها خزان ماء كبير"

تعجب من وصفه ذلك فانفتحت أساريره ، رآها تتحرك في الرملة ، رفع حاجبيه ثم قطبهما، أدرك أنها على وشك أن تغادر ، ضيق من أهدابه ليركز النظر أكثر ، طارت النحلة بعيدا ، سلكت في طيرانها طريقا مستقيما ، وضع يده أمام عينيه واستمر يراقبها ، حلقت وحلقت ، انعكاس الضوء على اجنحتها يبقيها في ناظره ، ذهبت النحلة ، اجتازت الجبل الأول هبوطا مع الوادي ، ارتفعت إلى فوق ، قطعت الجبل الثاني متخطية الوادي من الجهة الشرقية حتى اجتازت القمة الأخرى لوادي وعلة، كادت أن تغيب عن نظره لمّا دخلت فجأة في الظل وفي زرقة

السماء، لكنه استطاع أن يلحق بها في اللحظة الأخيرة ، وهناك بعيدا في طريق القمة البعيدة لوادي النمارات اختفت أخيرا عن عينيه .

ظل في مكانه ، لم يتحرك ، انتظر قدوم زائرات أخريات ، ومع أنه تيقن تماما أين هي خلية العسل وفي أي مكان سيبحث إلا أنه أراد أن يتأكد أكثر .

على جنب وضع المنظار المقرب، سيحتاج إليه لرصد تلك المسافة البعيدة التي قطعتها النحلة ، سحب يده بهدوء تام وأمسك بالمنظار دون أن يبعد نظره عن الماء، رفع يده ممسكا به حتى وضعه بالقرب من عينيه.

نظر من خلال عدستي المنظار وبدأ بضبط الرؤية الغائمة، وجه المنظار على القمة التي تتساقط خيوط الضوء من خلالها والتي رأى النحلة تشق طريقها تماما فوق شجرة قفص نبتت في شق تعتليه صخور بيضاء على شكل قوس، أنزل المنظار وعاد يركز نظره على الماء.

قبل أن تنقضي بضع دقائق من رحلة النحلة الأولى جاءت ثلاث نحلات وبدأن يرقصن فوق صفحة الماء ، اختبأ في الحرش قريبا منهن ، وما لبثن أن توقفن تماما للشرب ثم حلقن خلف بعضهن البعض يتتبعن دربا طويلا وصاعدا للقمة البعيدة وكأنما مُدّ أمامهن خيطا مستقيما يتتبعنه .

رفع منظاره ورصد تحليقهن ، استطاع أن يمسك بواحدة منهن، أعاد ضبط الرؤية حتى بدت واضحة أمام عينيه، ذهبت النحلة في طريقها صوب القمم، وهو بين الفينة والأخرى يعيد ضبط المنظار وتقريبه حتى تبقى في نظره، كان يهمهم بأغنية طربية في الوقت ذاته معجبا بمنظاره الواضح الرؤية والمكبر والمقرب للمسافات البعيدة.

لقد اشتراه من دبي، كان لديه منظار آخر غير هذا وأكبر بقليل منه، لكن الزمن جعل من عدساته غير واضحة، وكان يصفه بأنه عجوز وبأن عينيه قد ضعفتا، ويعتقد بأن الكبر يغزو كل شيء، ليس الكائنات الحية فقط، بل حتى الأجهزة.

ذهب مع هلال بن عزيز، أو مثلما يُلقب هلال كمبيوترات، لأن له محل لبيع أجهزة الحاسب الآلي، وهو عادة ما يشتري الطلبيات من سوق الجملة بدبي.

كان هلال كمبيوترات يذهب كل إسبوع، وفي بعض الأوقات يذهب في الإسبوع أكثر من مرة، ولأن بين قريته ودبي حوالي ٤٥٠ كيلومترا فهو يضطر أن يذهب مبكرا، بل قبل الفجر حتى يصل في الساعة العاشرة والنصف إلى الحادية عشرة صباحا، وهذا يعتمد كثيرا على توقفاته في الطريق وعلى زحمة المرور.

ذهب سعيد بن حمد إلى محل هلال وسأله إن كان يعرف أمكنة بيع المناظير في دبي، فأخبره بأنه يعرف أكثر من مكان لكن لو ذهبا معا سيأخذه إلى أكثر الأماكن وفرة وتنوعا في المناظير، وقال له هلال كمبيوترات:

- بخليك تشوف الذرة وهي تمشي فجبل الذروة.

وافق سعيد بن حمد للذهاب معه ، كان الوقت شتاء، خرجا من القرية في الرابعة صباحا وتوقفا لصلاة الفجر في الدرب، ولم يتوقفا بعدها حتى وصلا إلى شناص، كانت وقفتهم الثانية عند المطعم الذي تعود هلال كمبيوترات الإفطار فيه، وبعدها توجها مباشرة بعد أن قطعا الحدود إلى برّ دبي وغرقا في سوق الحواسيب حتى قاربت الساعة على الواحدة والنصف.

في المساء وبعد أن تأكد هلال بأنه اشترى كل ما يحتاجه ذهبا إلى ديرة ومن محل المقانيص اشترى سعيد بن حمد منظاره هذا بعد أن جرب الكثير من المناظير الموجودة، قال مخاطبا هلال وهو يجرب إحداها:

- من كثر الدوربينات يصيبك حول.

اقتنع أخيرا بهذا المنظار ولم يلم نفسه بعد ذلك ، كان نعم الإختيار، بل كان يشكر هلال كمبيوترات كلما لقاه ويبقى يمتدح في المنظار وكأنهما يلتقيان لأول مرة .

لقد تأكد الآن بأن البقاع التي طرقها العسّالون من قبله بحثا عن العسل مختلفة تماما عن الحقيقة ، لقد عرف الدرب بسهولة جدا ، وما عليه إلا أن يتهيأ للصعود والبحث في تلك المنطقة التي رسم إحداثياتها في مخيلته .

يسميه الرفاق رجل المهمات الصعبة، فنحافة جسده ولياقته البدنية تجعل منه مميزا في صعود الجبال وفي الحركة، فهو يتسلق القمم كما لو أنه وعل، لذلك ما على الآخرين إلا أن يرسموا خارطة البحث وأن يوكلوا بالأماكن الخشنة له، هذا الرجل الذي لم يسمعه رفاقه ذات يوم يشتكي من تعب.

وبينما عزان بن سعيد يجمّع الحصيّات التي ينكشها من التراب ويكوّمها بالقرب مطلقا العنان لفكره أن يذهب بعيدا منتظرا الدور الذي عليه وهو ينظر إلى مطّارة الماء الفارغة التي يلزم ملؤها ، أطلق الحطاطي شخيرا خفيفا في رقدته والتي حلم فيها حتما بشيء له علاقة بالعسل، في تلك اللحظة التي سمع صوت سعيد بن حمد قادما من بين الأحراش منبها إياهم بضرورة إعداد قهوة الصباح.

أخذ عزان إحدى الحُصيّات ورماها على قدم الحطاطي، والتي أحدثت ألما أيقظه، هب جالسا ينظر إلى ساعته ويرقب ضوء الشمس باحثا في الجوار عن سعيد .

عيناه حمراوين من أثر النوم وكأنهما جمرتين كما يصورهما أصدقاءه، فهو هكذا كلما نام ولو لدقائق ومع استيقاظه تحمر عيناه حتى لا ترى في بياضهما إلا الدم.

من يرى عيناه وهو مستيقظ سيجزم بأنه عصبي جدا ولكن في الحقيقة ليس هناك أحد في برودة أعصابه ، بل أنهم يحاولون جاهدين ودائما يفشلون، وعندما تدور الدائرة عليهم يخرج شياطين الغضب من صدورهم واحدا واحدا.

ومثلما هو لا يحقد على رفاقه، فهم لا يحملون ناحيته حقدا، يدركون تلك الموجات التي تجيء وتذهب والتي لا تبقي في الصدر إلا المودة، ولأنهم دائما من يبدؤون بمناكفته لذلك يصبرون

عليه ويقبضون على قلوبهم عندما ينقلب عليهم من حالته الوادعة إلى الحالة الثعلبية كما يسميها سعيد.

إن أكثرهم غضبا واشتعالا هو سعيد، لكنه أيضا أكثرهم ضحكا وحكايات، والأجمل من هذا هو انتقائه للكلمات التي لا يمكن أن تدور في مخيلتهم ببديهية تختص بكل مقام ، فهو حاضر البديهة متحدث لبق يرتب جمله ومفرداته وكأنه يقرأ من كتاب، مع ذلك فتلك الخصلة التي يعتبرها الرفاق نقطة الضعف لا تنفك تأتيه في كل رحلة.

قام الحطاطي من مكانه وسحب رجل عزان الموضوعة فوق أختها بشدة قائلا له:

- انهض ما جايين نرقد هنا.

كادت تلك الجملة أن تخرج العفاريت منه وهو يدرك أن شخير الحطاطي كان يقطع عليه تأمله، مع ذلك قام وزعق في سعيد بن حمد مستفسرا ، والذي طلب منه أن يأتي إلى جانبه.

قام سعيد بن حمد من مكانه واقترب من المورد ، جاءت نحلة وبدأت تطن ، شعرت بوجوده وبقيت تطن لفترة طويلة حتى غادرت المكان دون أن يعرف أين ذهبت ، انقطع النحل فجأة ، مرّت دقائق طويلة لم تأت غيرها ، جاء عزان ووقف بالقرب منه، أخبره باتجاه النحل، شرح له سلوكه المتوجس كلما أدرك وجود إنسان بالجوار، النحل ذكي جدا، وكلما كان مليئا بالعسل كان أشد احتراسا من أن يعرف أحد بيته، رفع طالب منظاره كاشفا المكان الذي أشار إليه صاحبه، اتضحت له في البعيد الكثير من تفاصيل الجبل ونباتاته التي لابد أن يستكشفوها جيدا، سطعت رائحة القهوة في المكان، شعر سعيد بوخز في معدته وتذكر بأنهم لم يتناولوا فطورهم بعد، تجاوز الحرش إلى حيث يعد الحطاطي قهوته، بينما تبعه عزان بعد دقائق ظل مراقبا فيها الرملة الرطبة منتظرا هبوط النحل الوارد.

يحتاج النحّال لبضع حطبات يابسات من الجوار، حطب الحبن أو القفص وبعض حشائش السخبر اليابسة تكفي لإشعال النار وصنع قهوة لها مزاج جبلي في دقائق معدودة.

القهوة تطفئ العطش وتلطف المزاج، شربوا قهوتهم مع بضع تمرات، وجلسوا منصتين إلى كلام سعيد بن حمد الذي كان يصف لهم بدقة اتجاه النحل وطبيعته ، فمن طنينه على صفحة الماء وطيرانه وانقطاعه عن الورود سريعا كل هذا يعني بأن الخلية قريبة جدا، ولكنها أيضا صعبة للغاية ويرجع ذلك لحذر النحل من طارقي المكان .

في العادة لا يبتعد النحل كثيرا عن مورده خصوصا في جبال الحلوي، فهو يبني خليته في القمة المجاورة وإن تخطاها ففي القمة التي تليها فقط ، لكن المحل الشديد والجفاف الذي يضرب الوديان حتى تبدو قاسية وعقيمة يذهب النحل بعيدا بحثا عن مورد شربه .

يعرف سعيد بن حمد ذلك جيدا، لقد صادف سنوات قحط مثل هذه وأشد، ويدرك أيضا صعوبة البحث في جبال عقبة النخلة ، لقد تذكر أنه بحث مع أخويه سيف وزايد عن العسل في ذات المكان لثلاثة أيام وكانوا على وشك أن يغادروا عقبة النخلة في اليوم الرابع عندها وجدوا الخلية بالقرب منهم وقد تعلقت على غصن شجرة اللثب .

يقول أخوه سيف عن عقبة النخلة :

- عسلها بغيض ، لازم تتعب وتهلك نفسك وخلاف تلقاه

لقد وجدوا المسقّي قريبا من أحراش الحلف ، ما يزال سعيد يافعا في تلك الأيام ، وتعلم من أخوته كيفية البحث عن العسل ، وفي تلك الرحلة لم يكونوا يقصدون البقاء في عقبة النخلة تحديدا لكن رؤيتهم للمسقّي أجبرتهم على ذلك ، كانوا ينوون الذهاب إلى منزلة بنت سعد ومن هناك يدخلون وادي المليل ويصعدون من خلاله ناحية وادي الجريف ، هكذا كانت الخطة، لكنهم جاءوا باحثين عن العسل ولا يمكن أن يفوّتوا عليهم مورد صادفوه، فعسل في اليد خير من عسل في المخيلة .

كان النحل يطير إلى الأعلى ، يتخذ طيرانا عموديا حتى يمتح ويختفي في بياض السماء ، وبعضه يذهب في ارتفاعه صوب الغرب ، ظل سيف بن حمد يراقب حركة النحل حتى تيقن أن العسل في القمة الغربية ، حينها توزعوا ، سعيد أخذ الجانب الحدريّ من عقبة النخلة ، وزايد قرر أن يبحث في الوسط ، أما سيف فذهب إلى الجانب العلويّ المحاذي لشغف حبيب .

قاربت الساعة الثامنة صباحا عندما بدؤوا البحث ، يتذكر سعيد أنه لم يترك في صعوده وبحثه جرفا ولا شجرة قفص أو عسبق ولم يترك شرجة ولا حصاة في طريقه إلا واستكشفها دون فائدة ، واستعان بمنظاره المقرب أحيانا لاستكشاف الأماكن البعيدة ولم يجد شيئا .

هبطوا جميعا في حدود الساعة العاشرة ، لقد أكلت الشمس كل طاقتهم ، ونال منهم العطش والتعب ، كان سيف أول من وصل لذلك جهّز القهوة ريثما يهبط إخوته ، بعدها عاد إلى المسقّي وراقب طيران النحل واتجاهه .

- لازم ندور من القمة .

قال سيف وهو يخرج نوى التمر ويرمي به في فمه ، لكنهم أجلوا البحث حتى شمس الرايح ، ومع ميل الضوء مساء راقب الأخوة مسار النحل الذي يتجه صوب الغرب أو إلى الأعلى ، مما تيقنوا أنهم يبحثون في البقعة الصحيحة .

ثلاثة أيام وهم يصعدون الجبل الغربي لعقبة النخلة ، ثلاثة أيام صباحا ومساء ولم يجدوا أثرا للعسل ، وكلما راقب سعيد النحل يرى بين الفينة والأخرى واحدة من تلك النحلات تدخل في أحراش الحلف ، لذلك في اليوم الرابع عندما هبط تعبا من بحثه و أخواه ما زالا على القمم ، قرر أن يبحث في أحراش الحلف وشجرة اللثب وبين زور النخيل على الضفة حيث يتجه النحل ، استكشف بحذر شديد خوفا من الأفاعي أو حشرات الأحراش حتى وصل إلى حيث ألقت النخلة بزورها على شجرة اللثب وقد شكلتا ظلا شديد العتمة ، هناك في ذلك الظل القاتم وبعد أن رفع الزور بحذر شديد وجد الخلية .

زعق بكل صوته يخبر أخويه بمكان العسل ، كان سيف يهبط متتبعا شغف حبيب ، توقف وصرخ يسأل أخاه ، والذي رد عليه بالإيجاب عندها قال لهم آمرا وغاضبا من التعب والإرهاق :

- حرقوه .. حرقوه .

لقد صدقت الكلمة التي قالها سيف بأن عسل عقبة النخلة صعب جدا ، ها هو عندهم ، بينه وبين مقيلهم بضعة أمتار مع ذلك أهانهم وأذلهم حتى وجدوه ، وها هو مرة أخرى يتعب ويهين الذي جاءوا قبلهم ، ولقد عادوا إلى قراهم بعد أن استنفدوا كل ما لديهم دون جدوى .

ومرة أخرى مع مغامرة جديدة في ذات المكان ، يحاول أن يخترع طرقا جديدة لعله يستطيع من خلالها فهم سلوكيات النحل الجبليّ .

هل سيسقط في الخديعة مرة أخرى ؟ وهل سيقضي مع رفاقه أياما بلياليها في وديان عقبة النخلة والنمارات ؟

المكان الممحل طارد للحياة وللأمان ، أما المكان الخصب فتجد كل شيء يهفو إليه ويستطيبه ، وهذا الوقت من أقسى أوقات السنة ، لا ماء في الوادي ولا شجر نابت على السفوح ، أعشاب السخبر يبست ، والظفرة اصفرت أوراقها وتناثرت مع الريح ، أما الخرمان فلقد انكمش على نفسه وظهرت أشواك أغصانه مثل قنفذ متوجس من أعداءه .

في منعطف الوادي الغربيّ في ذلك الحد بين سمر محمد ووادي النمارات اختفى آخر أثر للنحل ، لقد شاهدها تغيب هناك ، ولذا فلزاما عليهم أن يبدأوا البحث من هناك .

هو لا يستغرب كل هذه المسافة التي قطعتها النحلة حتى تشرب ، لا ماء في الوديان سوى ذلك الينبوع الصغير المتبقي في عقبة النخلة ، ثم أن النحلة خفيفة جدا وتستطيع قطع كل تلك المسافة في ثوان .

يدرك الآن بعد تلك السنين من الخبرة أن النحل عندما يطير يصنع خطا مستقيما وهو عائد إلى بيته ، عليه فقط أن يرسم ذلك الخط الوهمي الطويل ويبدأ البحث .

ليس البحث سهلا بالتأكيد ، لطالما بحث عن خلايا العسل وأعياه التعب وعاد خالي الوفاض ، فالذي يعرف الجبل جيدا يدرك أن من المخاطرة البحث في تلك الشقوق القاسية ، وعليه أن يكون صبورا صبر كائنات الجبل ، أن يصعد ويهبط في اليوم مرات ومرات وأن يكون يقظا لموطئ قدميه وبصيرا بكل جزء في الجبل .

لقد حدث معه أيضا أنه كان يبحث في شغف براكيم القريب من البلدة ، سقّى للنحل وبدأ يبحث مع أخيه محمد ، مرّ على الخلية وهي في كهف صغير جدا تحت موطئ أقدامه ، مرّ على الخلية أكثر من مرة ولم يرها ، وبحث أخوه في ذات المكان أيضا لكنهما لم ينتبها لذلك الكهف ، وقبل أن يهبطا من الجبل ، في تلك اللحظة الفاصلة بين الأمل واليأس ، شاهد محمد وكأن حشرات صغيرة تهوي من تحته مباشرة ، هبط مترا واحدا فقط ورأى الخلية .

صعدوا جميعا ، تناثروا في الجبل كل يبحث من جهته، كان هناك في الأعلى شجرة عسبق كبيرة احتلت المكان تتناثر حولها أشجار عسبق صغيرات ، لقد مرّ عزان من هناك ذات يوم ، يعرف الدرب جيدا ، وإن لم تخنه ذاكرته فإن شقّأ جبليا به أثر خلية قديم ، قد أخذ أحدهم عسلها وبقي أثر الشمع في المكان.

يتذكره جيدا ، ويهجس في نفسه " يعود النحل أحيانا إلى بيوته القديمة "

صعد حتى وقف عند العسبقة الكبيرة ، نظر إلى قلبها ، فتح أغصانها ، أمعن النظر أكثر ربما يشاهد دخول النحل فيها ولكنها بقيت ساكنة ، استكشف الأخريات الصغيرات ولكنهن خاويات ، صعد إلى الشقّ الجبلي فلم يجد فيه شيئا ، بحث في القرب حتى تأكد بأن العسل لا يوجد في تلك البقعة .

وقف على الحد الفاصل بين الوادي الكبير ووادي النمارات ، هناك في القمة ، ما يزال الوقت مبكرا ، نظر إلى أسفل الحد ، كانت هناك شجرة قفص كبيرة تتراقص مع النسيم في شرجة صغيرة تتناثر في أسفلها حجارة بنية دائرية .

وقف ووجهه ناحية المسقّي ، رأى بريق الماء عند أحراش الحلف ، رسم خطا وهميا مستقيما يصعد ناحيته ثم يهبط صوب القفصة ، خمّن أنه لو استمرت النحلة في الصعود سيكون العسل في الجهة المقابلة لجبال وادي النمارات ، وإن هبطت فسيكون هبوطها ناحية القفصة ، وعليه أن يتأكد جيدا ، لذلك هبط إليها وفي طريقه ظل يلحظ المكان .

كل شجرة صغيرة أو كبيرة مرّ بها ناصربن سالم الحطاطي بحث فيها ، كل حجر وشق جبليّ ، أمسك بمنظاره المقرّب ليرى الأشياء البعيدة ، وقف بالقرب من شجرة صقل ، تمعن فيها لكن الخلية لم تكن هناك أيضا ، قال محدثا نفسه :

- ما أحلا هذا المكان حال العسل .

لكن تتمنى النفس أشياء كثيرة ، وليس ما تتمناه النفس يصير، وكانت تلتمع في مخيلته ذكرى قريبة هناك في بين جنبات القرية.

(٥)

سعيد بن حمد ، نحال الجبال الذي شبّ بين هذه القمم ، والذي لا يتوانى عن أية رحلة يقترحها أصدقاءه للذهاب بعيدا في رحلة جبلية تستغرق أياما، بل تشتد عزيمته وفرحه ، وكأنه طفل أعدته إلى عالم الخيال ليستكشفه مرة أخرى وبذات الدهشة .

تسكره الروائح العطرية للزهور فيجد نفسه سابحا في ملكوت من الينابيع الجبلية وأزهار الشجر البري الذي طالما احتك جسده بها في رحلاته فتفوح من أغصانها الدقيقة الروائح التي تأخذه إلى النشوة .

يكفيه أن يمر بقرب نبتة جعدا حتى يقف ثم يأخذ شهيقا قدر استطاعته ليدخل عطر النبتة إلى رأسه ، يستشعره وهو يسري بين شقوق جمجمته حتى يصل إلى قمة الرأس ، كانت الجعدا هي ذاكرته الأولى ، ذاكرة الرحيل إلى جبل الهضمة وتسلقه تلك الحجارة الكبيرة ، مفتونا بتفاصيل الجبل الأبيض، تسلق صاعدا وهو يراقب الكائنات من حوله ، سرب قطا طار من بين يديه ، ما جعله يجفل من تلك الرفرفة المباغتة وهي تهرب إلى مكان آخر ، صوت الشنا في أعالي الهضمة يتردد صداه بين الفينة والأخرى، سأل أخاه الأكبر الذي ذهب معه فأخبره ، وصف له أخوه شكل طائر الشنا وحدثه عن جمال عينيه مما جعله يحلم بالإمساك بإحداها كما أمسك بالصفرد في فخ منصوب بمزرعة أبيه .

الصفرد ذو الريش الناعم ، بلونه الذي يشبه كثيرا لون الحجارة الجبلية ، اللون البني المرقط بالأسود ، الصفرد الذي يشبه القطا في شكله ويختلف عنها في صوته المغرد الذي يطرب له، الصفرد الذي ظل لأيام في البيت وقد نتف ريش جناحيه حتى لا يطير وربط رجله بخيط ، تماما كما تربط دجاجة جديدة على المكان حتى تألفه.

لكن الصفرد هيهات أن يألف المكان ويأنس لبيوت البشر، استمرفي إحضار الحبوب والماء له ، ولأيام راقبه ، يرى الدجاجات تقترب منه وتنكش الحب من تحت قدميه ، لأيام ظن فيها بأن الصفرد قد آنسه ورافقه ، كان يجلس بجانبه يرقبه ، يرقب حركاته ، ولقد فتن بجمال عينيه ، ولأيام وهو يُحضر ما يتبق من فتات ليضعه أمام الصفرد .

أفلت بعد أيام قبضته عن الطائر ، فك عقدة الخيط التي تلتف حول رجله ، مشى الصفرد بخطواته الأولى مثل طفل يتعلم المشي لأول مرة ، وبهدوء مشى ، وبهدوء نكش الأرض ، ثم اقترب من الدجاجات ولكنهن حاولن أن ينقرنه بمناقيرهن كرسالة له، فهو ليس بدجاجة بالرغم من أنه سمع أمه تقول بأن الصفرد دجاجة الجبل ، ابتعد الصفرد ببطء ، وظل يخط المكان بقدميه مستكشفا الأرض ، وهو ينظر بين الفينة والأخرى لقمم النخل وأغصان الأشجار ، حتى أمن له وتركه ، لقد ذهب حيث يلعب مع أقرانه ، كان في الحقيقة يود أن يخبرهم بنجاح خطته في أنسنة الصفرد لكنه تأخر هناك ، أغرته اللعبة فلعب معهم ، وعندما عاد ظهرا مع أربعة منهم كان الصفرد قد اختفى من المكان.

بحث عنه مع الرفاق في الأرجاء ولم يعثر عليه، بحثوا في الشرجة المجاورة وبين النخيل ، راقبوا الأشجار ، حاول أن يقلد صوته لعله يسمعه فيرد عليه ، لكن الصفرد كان قد تماهى بلونه مع لون الجبل واختفى .

تلك الذكرى تعود دائما إليه ، برغم أنه اصطاد كثيرا من الصفارد إلا أنه لا يزال يشعر بخسارته وفشله في امتلاك ذلك الصفرد .

رائحة نبتة نفاذة تفاجيء أنفه، شذاها العطري يجعله يتوقف فجأة ، لقد داس بقدمه على أغصانها فتكسرت، ثم فاحت الرائحة، سأل أخاه عنها فقال له إنها الجعدا، قبض بيده بعض أعواد الجعدا ورفعها إليه ، طرب وحلق في الأعالي مثل بازي الجبل .

يحب طير البازي ، يقول بأن هناك في أعماق روحه ما يتشابه وهذا الطائر ، فهو يحب القمم واستكشاف المنحدرات ، وهو معجب بخفته وسرعة انطلاقه وبمقدرته على قنص طريدته في دقائق محدودة .

عينا البازي تشبهان عينيه ، وروحه تتمازج مع روحه ، لذلك كلما شاهد بازا بالقرب توقف يتمعن في طيرانه ويتتبع حركاته وهو يمسح السفوح .

البازي لا يخرج إلا إذا كانت هنالك طريدة في الجوار ، ولذا فهو يبحث في الجنبات عن طريدة ، عيناه ليستا كعينيه في حدة النظر لكنه يحاول جاهدا معرفة المكان الذي كمنت فيه الطريدة مرتجفة وخائفة من ذلك الجارح الذي يحوم بالقرب .

تستمر اللعبة من أوجهها الكثيرة ، فكل يجيد دوره فيها على أكمل وجه ، البازي بالحوم حول الطريدة وانتظار لحظة الانقضاض ، الطريدة المستكينة إلى مخدعها في الظاهر والمتأهبة للإفلات في اللحظة الحرجة ، وهو الباحث في المشهد عن مكان الخبيئة ، ليصير صقرا آخر يحوم بتكهناته عن مكمنها قبل الهجمة الأخيرة للصقر .

يصرخ الصقر فتحمل السفوح صوته الحاد إلى البعيد ، يبتسم هو الجالس على طرف الجبل متقرفصا وكأنه على أهبة الطيران ليلحق بالطير قبل اقتناصه ، يرتفع البازي ناحية السماء ليغيب فجأة في الزرقة وهي تلك اللحظة التي يغيب فيها الطير لحظة انقضاضته السريعة ، بينما القنيصة تدرك ذلك تماما ، فتخرج جافلة بجناحيها الذين يتخبطان في أغصان شجرة الشوع بينما تنفلت ريشات صغيرة يحملها الهواء من هول اصطدامها بالشجرة ، كانت إحدى طيور القطا التي تابعها بعينيه منتظرا عودة الطائر السماوي الذي سينشب مخالبه الحادة في جسدها .

كادت القطاة تختفي خلف أول المنحدرات عندما شاهد الصقر هابطا من الجو مثل طلقة لا تعرف الرحمة ، وبخفة وسرعة هائلة ينقض على القطاة حاملا إياها بينما تهتز بين مخالبه محاولة الفكاك ولا فكاك ، يتناثر ريشها الناعم لتحمله تيارات الهواء إلى أمكنة شتى في الجبل ، معلنة للكائنات التي تعيش بالقرب انتهاء لعبة المطاردة .

مذ كان صغيرا وهو يرى الصقور تحوم بالقرب من بيتهم ، كانت الدجاجات جرس الإنذار الذي يضج بالمكان ، فما إن يمر إحدى تلك الصقور حتى تصرقع الدجاجات ، آخذة البيت بأصواتهن وكأنهن يتنادين ويحذرن بعضهن من الخطر الداهم .

في تلك الحال كانت النساء يخرجن من بيوتهن وهن يصرخن أيضا ، والكثير منهن يرفعن أيديهن للسماء ويحركنها حتى يخفن الصقر ويذهب ، ولا بد من مراقبة كل شيء بالجوار حتى لا يهبط فجأة ويأخذ ما يريد .

كانت الحيلة تنفع في أحيان كثيرة ، لكن الصقر يهجم بغتة في بعض المرات ولا يترك للآخرين معرفة قدومه وذهابه ، هكذا فجأة يأخذ الدجاجة ولن يتوقف إلا على قمة بعيدة ، عندها لن يفيد صراخ النساء ولا صرقعة الدجاج في شيء .

صادف مرة وهو في طريقه بين النخيل عندما مر بالقرب من المقصورة أسماء بنت نوفل زوجة ناصر الحطاطي وهي تركض مولولة وصارخة خارجة من المقصورة باتجاه الجبل ، كانت تحاول انقاذ دجاجتها وقد هجم عليها الصقر ، كانت الدجاجة من الثقل لدرجة أن الصقر لم يستطع التحليق بها ، ولقد أنشب مخالبه فيها وهي ترفس تحت قدميه ، وكلما حاول الطيران ارتفع قليلا ثم حط على الأرض .

لم تترك أسماء بنت نوفل وقتا للصقر حتى يهرب بدجاجتها ، ركضت ناحيته وقد امتلأ المكان بزعيقها ، كانت تنطلق ناحيته مثل ثور انفلت من الحظيرة فجأة ، مع ذلك ما زال الصقر يحاول أخذ صيده ، اقتربت منه وفي يدها عصا طويلة وما إن هوت عليه حتى أفلت قبضته وحلق حائما فوق المكان.

أخذت أسماء بنت نوفل دجاجتها وقد جرحت كثيرا من مخالب الصقر، احمر وجهها وهي تلعن الصقر وتصفه بأقذع العبارات ، كان الدم يسيل ساخنا من جسد الدجاجة ، سالت دموعها أيضا وظلت في مكانها باكية.

الجعدا تعني المزاج الذي لا يجربه سعيد بن حمد إلا في الجبال، لا يشرب الشاي المنكه بالجعدا إلا في رحلاته للبحث عن العسل، فكلما وصل إلى مكان مقيله أو مبيته بحث بالقرب عن أعوادها الخضراء وقطف بعضها ، تكفيه بعض الأعواد لأيام ، فطعم الجعداء مر لو وضع بكمية كبيرة، فيكفي أن يضع نصف عود في إبريق مملوء بالماء ، إبريق الشاي ، الذي يحبه هكذا ، خاليا من الحليب، شايا أحمر منكها بالجعدا ، وهو خير من يصنع شايه الخاص الذي يرشف قطراته بتمهل في حين يظل الإبريق على جمر الموقد محتفظا بسخونته حتى آخر قطرة .

الجعدا ليست مزاجا فقط بل هو يدرك أهميتها الطبية من وصفات العطارين ، وهو يصفها أحيانا كثيرة لمرضى أوجاع البطن والانتفاخات المعوية ، ويدرك أهميتها لملسوع الأفعى والعقرب، يغلي أعوادها ويعطيها للملسوع ثم يضع الأعواد الطرية على اللسعة فيخف الألم وتشفى اللسعة بالتدريج .

إن التجربة خير برهان كما يقول، ولقد مرّ بتلك التجربة عندما ذهب هو وأخيه الأكبر سيف وعمه عبدالله في رحلتهم صوب وادي العيص ، كان ذلك منذ ما يقب من خمسة عشرة سنة، عندما باتوا في الوادي ولسعت عقرب أخاه في يده .

كانت عقرب صفراء كبيرة، يصفها عندما تأتي ذكرى تلك الحادثة ويقول أكبر من كف ود مرزوق، عقرب صفراء يكاد السم يطفر من صفرتها، صرخ سيف من اللسعة وقام من مرقده راقصا من شدة الألم.

كان ذلك قبيل الفجر، لقد اندست العقرب في لحافه المبلول بالماء بغية تلطيف الهواء الساخن في تلك الفترة من شهر يونيو، لقد اجتذبتها برودة المكان لتستكين من الحرارة في طيات ذلك

اللحاف، تسللت حتى دخلت فيه، سرت بالداخل واستكانت هناك ، لا يعرف منذ متى لكن مع تململ سيف في رقدته وهو يحاول تغيير وضعية نومه ، شعرت بحركته ولدغته.

كان يرتعش من شدة اللدغة، العقرب الصفراء من أشد العقارب سمية في تلك الجبال، وبرغم أنها نادرة وقليل ما يصادفها ، إلا أن القدر قد ساقها تلك الليلة لكي تسكت شخير سيف بن حمد كما يقول عمه في مزاحه بعد أن هدأ الألم.

قاموا من رقادهم مفزوعين على أثر الصرخة، وما إن عرف العم بالسبب حتى قال لسعيد :

- أفا عليك دور جعدا.

ولأنهم كلهم قد خبروا المكان من قبل، يعرفون النباتات التي نبتت في الجوار، لذلك لم يحتج من الوقت إلا القليل حتى أحضر العم بعض أغصان خضراء من الجعدا.

وضع الأغصان على حجر مفلطح ثم قام بدقها بحجر آخر حتى صارت عجينا، أخذ ذلك العجين ووضعه على اللسعة، وفي لحظات قليلة بدأ الألم يخف وخفت الرعشة من جسد سيف .

نفض سعيد لحاف أخيه فسقطت العقرب الكبيرة هاربة، وعلى ضوء المصباح اليدوي طارد العقرب وقتلها ، وقال ممازحا أخيه الذي ما يزال يمسك بيده الأخرى يده الملسوعة:

- لو تدور على عقرب صفرا سنة ما تلقاها، وهذي جايتنك إلى الفراش.

انبلج نور الصباح من القمم، ذهب الألم إلى غير رجعة ولم يتبق من ذكراه إلا تلك الوخزات القليلة ، كانت رحلة لا ينساها سعيد، ففيها العسل الذي فاض من اوانيهم برغم تلك اللدغة الشديدة من عقرب الجبال الصفراء.

بعضهم يموت من شدة سم تلك العقارب، كما سمع من حكايات العسالين والقناصين والحطابين الذين كان بعضهم يموت في هذه الجبال بسبب العقارب الصفراء، والذين كانت تنقصهم الحيلة في إسكات ذلك الألم، وعدم علاجه الفوري بما يجب، لكن سعيد بن حمد يعتقد أيضا بأن قابلية الأجسام لها دور كبير في الشفاء من اللسعة ، فليس كل سم عقرب مميت وليس كل لسعة مؤلمة.

هناك ممن يولدون ولا تؤثر فيهم سموم العقارب، مثلا فالشايب سالم بن علي كما يقول عن نفسه في حكاياته أنه لا يشعر بلدغة العقرب، ولا تؤثر فيه، ويقول أنه طالما تعرض لتلك اللدغات التي يحسها مثل طعنة إبرة صغيرة في جلده، وبعد ذلك يكتشف بأنها كانت من عقرب.

يعزو الشايب سالم بن علي ذلك بأنه عندما كان رضيعا، بحثت أمه عن العقارب تحت الحصا وفي الجواربين أكوام الزور اليابسة حتى وجدت إحداهن، أحضرن شوكة من أشواك النخل طعنت العقرب في ظهرها ثم أخذتها ووضعتها مثبتة في الأرض بتلك الشوكة، كانت العقرب حية تتحرك ولكنها غير قادرة على الفرار، أخرجت الأم ثديها وضغطت عليه بيدها لتخرج بعض القطرات من الحليب، وجهت الثدي ناحية العقرب ثم جعلت القطرات تتساقط على ظهرها حتى أصبح ظهر العقرب أبيض.

تركت العقرب مكانها لبعض الوقت حتى يبس الحليب عليها، ثم أخذتها بشوكتها وأغرقتها في الماء حتى ماتت.

تعتقد الكثير من الأمهات كما سمعهن بأن هذه الطريقة تنفع في الوقاية من لدغات العقارب، سيكبر أولادهن بعد ذلك ولن يشعروا أبدا بتلك اللدغات الخطرة ولن يخشوا من العقارب الصفراء القاتلة.

ذلك كان من حظ الأطفال الذين يولدون في الصيف حيث يكثر خروج الحشرات المختلفة، ولكن الذين يولدون شتاء كان عليهم تحمل الألم والإحتراس من أشهر الصيف كل عام، والبحث والتدقيق في كل لبس يلبسونه حتى لا تكون العقرب مندسة بين طياته.

هناك أيضا عشبة صغيرة عرفها بعد ذلك وتسمى شجرة العقرب، لكنها نادرة، هي عشبة صغيرة تنبت في الجبال، أعوادها دقيقة ولزجة، لها أوراق دائرية كبيرة تغطي المكان بأوراقها، ليس لها رائحة، وهو يدرك سر هذه النبتة العظيمة في علاج الملسوع بلسعة العقرب، إنها تشفيه حالا وكأن الألم لم يكن، تلك النبتة التي تمضغ مع اللعاب ثم توضع على موضع اللسعة لا شك أنها ذات سر عظيم كما يقول.

هو يعرفها جيدا، برغم أنها نادرة إلا أنه عرف شكلها وهيئتها منذ المرة الأولى التي أخبره فيها أخوه سيف عندما كانا يمشيان في الوادي ، مرّا ببقعة كثيفة وخضراء التفت عليها نباتات الخشت على حافة الوادي، كانت الأرض طينية رطبة، مما جعل نباتات الخشت تتكاثر وتنمو في المكان حتى أصبحت كثيفة جدا، وارتفعت عيدانها بسنابلها الأسطوانية البيضاء، هناك وفي ذلك الحرش من الخشت تسلقت شجرة العقرب أعواد الحرش ، ملتفة بأوراقها ذات الشعيرات البيضاء الدقيقة.

وقف سيف ينظر إليها بتمعن، أخبره بأن هذه هي شجرة العقرب، كان سعيد قد سمع عنها ولكن لم يرها، ولأنها نادرة فما كان من سيف إلا أن يقتطع عيدانها يلفها ليضعها بداخل حقيبته.

سوف يطحن تلك الأعواد ثم يخزنها لديه إلى وقت الحاجة.

عرف سعيد بن حمد مكانا قريبا من القرية تنبت فيه شجرة العقرب، تأكد من مكانها وتركها هناك، راقبها بين فترة وأخرى من العام فوجدها لم تزل موجودة ، قال في نفسه:

- بيجي يوم ونحتاجها.

واحتاجها عندما لسعت عقرب سوداء إبنته ميّا، كانت في العاشرة من عمرها، ميّا التي يحب أن يدلعها ويناديها ميّوه، وكان عائدا من جلسته المعهودة في الوادي حيث يصلي العصر ويجلس ليلعب الحالوسة من المعلم خميس بن سعود، معلم القرآن.

سمعها تصيح، فاعتقد أنها تبكي كعادتها عندما يغيضها إخوتها الكبار، لكنها كانت تبكي هذه المرة بحسرة شديدة، عرف أن شيئا ما يؤلمها فناداها، وعندما سمعت صوته ذهبت راكضة إليه، عانقها كعادته لكنها كانت تمسك بيدها على موضع اللسعة في ساقها، أخبرته زوجته بأن عقربا لسعها قبل قليل.

حاول سعيد تهدئة ابنته ولكن بلا فائدة، فوخز الألم كان شديدا عليها ، أزاح ثوبها ورأى مكان اللسعة، ثم أخذ عودا صغيرا من القش بين أصابعه وبدأ يمرره على مكان اللسعة وهو يقرأ رقية الملسوع، قرأ سورة الفاتحة ثلاث مرات ثم تلاها بسورة الفيل وعندما وصل إلى فجعلهم كعصف مأكول حرّف الآية كما في الرقية إلى وجعلهم كزلال بارد وصار يكرر ذلك عشر مرات ثم تفل من لعابه على موضع اللسعة وطلب من ابنته أن تجلس في مكانها ولا تتحرك حتى يجيء.

ذهب مسرعا إلى مكان الشجرة ، وجدها هناك وقد مدت أغصانها إلى الأرض، قطف بعض أعوادها وعاد مسرعا ، وجد ابنته قد هدأ نشيجها ولكنها ما زالت تتألم من شدة الوخز، أدخل الأعواد في فمه ولاكها حتى انهرست ثم أخرجها متشبعة بلعابه ووضعها على موضع اللسعة، فكان وكأنه لم يحدث شيئا قبل ذلك.

سكتت ابنته عن الصياح، وسكت الألم وانتهى، وقامت ميّا تركض فرحة بعد أن صاحت وذرفت الدموع وبللت وجهها وثوبها من شدة البكاء .

مذ كان صغيرا وهو يرى غرشة العسل في غرفة أمه ، في مندوس قديم مطرز بمسامير دائرية من النحاس، كان كلما تاق إلى طعمه فتح الصندوق وأخذ قليلا من العسل في كفه وظل يلحسه ببطء، متلذذا بطعمه وبشذى الزهور الجبلية التي نكّهته.

الآن كلما مر على نبتة مهدهدي تفتحت زهورها الصفراء الصغيرة، يأخذ عودا ممتلئا بتلك الزهور ويقربها من أنفه فتسطع الرائحة، رائحة الزمن الذي مضى، غرفة أمه ورائحة الخشب العتيق للمندوس، عطر العود المركز ودقيق أوراق الآس المعقود في صرة من القماش، علبة الشورانة وعبق ملابس أمه، ثم رائحة العسل الحوليّ الذي يظل هناك سنة وراء سنة متكثفا لزجا حتى يتحول إلى اللون الأسود الكحلي تماما .

كل زهرة لنبتة جبلية تعني له مذاقا فريدا، فهو لا يخفى عليه معرفة الرحيق الذي صنع النحل منه عسله، يعرف النباتات وأزهارها كما يعرف العطار أنواع العطور في دكانه، كانت هوايته وما زالت أن يأخذ قبضة من الزهور ويقربها من أنفه، يسحب الهواء بروية من يريد أن يجتذب الرائحة لتظل حبيسة رئتيه، ويبقى هكذا يختزن ما استطاع ، يكرر ذلك مع كل زهرة حتى يتيقن بأن الرائحة رسخت في أنفه ولن تفارقها أبدا.

في كل مرة كان ينتقي زهرة ما، مرة وقف عند نبتة رِيِّحْ وقد تفتحت أزهارها بيضاء لؤلؤية ، لم يكن يعرفها من قبل، عيدانها قريبا من عشبة الشِكّاع لكنها بلا أشواك، لها أوراق مْهِدْهِدي لكنها أقصر، مسح بيده على أغصانها كمن يربت على كائن صغير ولطيف اكتشفه للتو ، أخذ قبضة من زهورها كعادته وشمها، سرت الرائحة حتى وصلت دماغه، سطع الشذى العطري زكيا وغريبا لم يعهده من قبل، تختلف عن الجعدا ، حار في أمرها، لم يصادف من قبل عشبة رِيِّحْ، أخذ غصنا منها ووضعه في جيبه، عرف بعد ذلك اسمها، وفي مذاق العسل كان يجد طعمها في حلقه.

إن مطر الشتاء حببه في الزهور وروائح النباتات، فالسنة التي تهطل فيها الأمطار شتاء تعني له رحلات متكررة إلى حيث يتشبع بالعطر الطبيعي، تعبق شراج الجبل المبلولة بالمطر بالبخار المشبع بشذى الأعشاب العطرية، تفوح منذ الصباح الباكر، يكفيه أن يجد متسعا لجسده حتى يجلس هناك متحدا مع الصباح، مراقبا الحشرات والدبابير الصغيرة وهي تسرح جيئة وذهابا مأخوذة بالعبق، تقف على زهرة ما ثم تنتقل عنها إلى أخرى ، حشرات كثيرة، نحل ودبابير مختلفة، بعضها يشبه النحل لولا أن جسمه كبير ومدور، طنين تلك الدبابير مختلف على السمع، فبرغم أن كلها يطن إلا أن لكل حشرة طنينا يختلف عن الأخريات، جنادب خنافس جراد مقابروحشرات ملونة عديدة، وهو المتحد بالنور وبالعطر، مغمضا عينيه ، سابحا في بهاء الصباحات التي خلفتها أمطار الأمس.

يطيب لأمه أحيانا أن تصنع فنجانا من العسل والذي تخلط فيه بعض الشينوز، لتقدمه لأبيه، فوالده يفضل تلك الإضافات التي يعتقد أنها تزيد من الفائدة الطبية للعسل، فلقد قرأ في كتاب فاكهة ابن

السبيل الذي يضعه في زاوية المجلس مع مجموعة من كتب الفقه والدواوين الشعرية وبين فترة وأخرى يجرب الخلطات العشبية كما وصفت في الكتاب.

طعم العسل بالشينوز لا يشبهه طعم، كانت رائحة الشينوز تفوح من مقلى أمه قبل أن تطحن البذور ثم تضعها في علبة فارغة من التنك.

(٦)

كان يطلق عليه عزان حلّيه، ذلك لإدمانه شرب الكولونيا ، عزان بن سعيد الذي لديه الآن منحل كبير والذي عرف به، عزان النحّال، ولكنه بين الفينة والأخرى يسخر مع رفاقه عندما يزورهم وكلما طرق باب أحدهم وخرج طفل من أطفالهم يخبره بأن يقول لوالده :

- قوله حلّيه جاي عندك .

إن ذكرى الحالة التي مرّ عليها عزان لا تبدو الآن بأنها تزعجه، لقد تجاوزها تماما وتصالح مع ماضيه ، وتصالح مع لقبه الذي ما زال بعضهم يطلقه ساخرا خفية وهمسا، بل أن بعض الأطفال المزعجين ما زالوا ينادونه كلما مرّ " حليه ، أووه حليه " ، و عزان لا يكترث بما يسمع وعادة ما يبتسم وينشرح صدره كلما أعاد أحدهم لذاكرته تلك الأيام القديمة. وحتى نطلعك أيها القاريء العزيز على حكايته لابد أن نعرج على البدايات هناك في مزرعة زايد بن مرزوق .

يسكن زايد بن مرزوق في مزرعته الواقعة في الجهة الجنوبية للقرية ، ولقد أحاطها بسياج من الشباك و بنى بيتا من غرفتين أمامهما دهليز طويل يطل مباشرة من فوق على الفلج ، بينما درج صخري من حجارة بلورية كبيرة يهبط من البيت ناحية الفلج .

كانت مزرعته تسمى القويرة وهي بعيدة عن الحارات، منقطعة في تلك الشرجة الجبلية لا يربطها بعالم الناس سوى الفلج وبداية النخل التي لم تكن سوى أحراش لم تستصلح للزراعة وقد أحالت السيول رملا ناعما فيها حتى غدت من المستحيل أن يستفاد منها .

في القويرة يقضي زايد بن مرزوق جل وقته ، يشذب النخل وأشجار اللمبا والسفرجل حتى غدت مثل غابة كثيفة من ظلال الأشجار ، وقد صنع مجلسا في الشمال الشرقي من الضاحية باتجاه الجبل وكان كلما حان وقت المساء أخرج عدة السهرة ، عودا ، زجاجة ويسكي ، ولحما مقطعا ومشكوكا ، ثم يرتب الجلسة حيث يفرش زولية حمراء تحيط بها وسائد مزركشة بالأحمر والأسود ثم يتناول كأسا أوليا منتظرا ضيوفه الذي سيتوافدون واحدا تلو آخر إلى المكان .

كان زايد بن مرزوق الوحيد في القرية من يعاقر الخمرة ، كان قد تقاعد من عمله كحارس في شركة النفط البريطانية، قضى فيها جل شبابه متنقلا ما بين أملاك هذه الشركة في الصحراء ومكاتبها في مسقط وكان قد تعود في فترة راحته أن يسهر مع رفاقه العمانيين أو الأجانب من إنجليز أو هنود وشيئا فشيء بدأ يسلك طريق الشرب .

كان في إجازاته القصيرة عندما يعود إلى البلدة يحضر معه ما يساعده من شراب ليقضي عطلته في المزرعة كل مساء يشرب ويدندن بعض الأغنيات التي حفظها لأبي بكر سالم أو سالم الصوري والمقيمي ، بينما يشوي القليل من اللحم مخففا به حدة الشراب .

تعلم العزف على العود في الصحراء، لقد صاحب أحد العازفين من أهل الباطنة ، تعلم منه البدايات، ثم اشترى عودا وصار لا يفارقه أينما ذهب.

انتشر خبره في البلاد ، جاءه الناصحون فردهم غاضبين، ذهب المعلم مرهون بصحبة خلفان وابن عمه سيف بن حمود، كان وقت الظهيرة وقد بدأ بالشرب ولكن لم يزل في البداية ، تحدثوا معه وناصحوه، وهو في صمته يراقب تحرك أفواههم من فوق اللحى، انتظر لحظة صمت تشرق

من ثرثرتهم التي لا تعنيه وعندما حانت قام وملأ كأسا من زجاجة الويسكي ورفعه عاليا وهو يقول:

- هذه جنتي وناري.

لم يزدهم على ذلك وجلس يدندن عوده، نظر الثلاثة على بعضهم بامتعاض شديد ونزلوا الدرج عائدين إلى بيوتهم.

يتذكر زايد بن مرزوق تلك الحادثة ويضحك، حتى بعد ذلك بعشرات السنين لم يزل يعيد تلك الحكاية، حتى بعد أن توقف عن الشرب وذهب حاجا إلى مكة لعدة مرات لم يزل يحكيها.

منع الناس أولادهم وذويهم من الاختلاط بود مرزوق، كان الأب يهدد أولاده بالقتل إن جلسوا معه، وكانت إجازته تلك تعني حالة التأهب مع الجميع خوفا من أن يستميل قلب أحدهم ويشرب معه.

لكن دندنة العود كانت فخا لكثيرين صاروا غير مبالين بتهديدات آبائهم التي ما كانت سوى فقاعات من الصابون ترتفع إلى حيز معين ثم تنفجر.

بدأ الشباب يتلصصون عليه من قمة الجبل ومن ثنايا الشرجة ، بدأ بعض منهم يتقرب منه للإستماع إلى دندناته ، طالت السهرات ووجد رفاقا له بدؤوا يشربون بخجل في البداية ثم صاروا أكثر شربا وسكرا مع الأيام .

أطلق عليهم الناس اللوفرية ، صاروا يتكاثرون كمن أصيب بعدوى مرض خطير ، يتزايدون كل يوم ، حتى وصل عددهم إلى خمسة وعشرين رجلا ، بعضهم لم يبلغ الثامنة عشرة ، انساق مع رفاقه إلى تلك السهرات التي كانت تسري مع هدوء الليل حتى تصل أصواتهم إلى الوادي والحارات القريبة .

في الأيام التي يذهب فيها زايد بن مرزوق إلى عمله البعيد يعود الهدوء إلى المكان ، يصير موحشا بظلامه الدامس ، بينما يتفرق الرفاق باحثين عن من يمنحهم جرعات من الخمور المهربة أو المجلوبة من نوادي الضباط العسكريين .

اكتشف بعضهم طريق الكولونيا فصاروا يسهرون عليها ، كانت صديقة سهرتهم عندما تعز عليهم جرعات الويسكي أو علب البيرة ، كانت عطور الكولونيا متوفرة في متجر البلدة الذي يديره سلفراج الرجل الهندي ، وكان يطلب الكولونيا من المسوق بعشرات الكراتين عندما وجد سوقا رائجا لها في البلاد .

أطلق الرفاق على الكولونيا الكثير من أسماء التحبب ، فهي الشمبريشة وهي المحنتيني وبدؤوا يخرجون إلى السيوح والوديان البعيدة يسهرون هناك حتى ينتهي شرابهم ثم يعودون إلى بيوتهم أو ينامون في مكانهم حتى الصباح الباكر .

يتكاثرون في الإجازات الاسبوعية والعطل الرسمية الطويلة ، ثم يختفون ذاهبين متفرقين إلى أعمالهم البعيدة ، تاركين المكان للأقاويل والحكايات يلوكها الفلاحون والشياب عن الزمن الذي أخذ شباب القرية إلى الهاوية .

عرف عزان بن سعيد طريق الشمبريشة أو عطر الكولونيا فبدأ يشربه ، وعرف أبوه بقصته فذهب يهرع إلى المكان الذي سقط فيه ولده ، وعندما شم رائحة الكحول تفوح من فمه عاد حزينا دون أن يحركه من مكانه ، ومن يومها وهو لا يتكلم معه ولا تعنيه أخباره أبدا .

تكررت قصص السكر مع عزان حتى أثرت الكولونيا على عقله وجسده ، صار يترنح جيئة وذهابا في دروب القرية ، ينام في أي بقعة يسقط فيها وعندما يستيقظ يذهب ليشتري زجاجة عطر جديدة وعندما يجيء زايد بن مرزوق فطالب أحد السكارى الذين يعودون من المكان وقد تورمت وجوههم من اللطم والصفع ، كان كلما ضربوه أكثر انتشى أكثر حتى يسحبونه وهو فاقدا لوعيه نازفا لدمه فيلقونه في أقرب مكان تمر عليه درب الذاهبين إلى الحارات ، وهناك قد يمر عليه من يرق له قلبه فيضمد جراحه .

كان عزان شابا ذكيا ولطيفا ، هاديء الطباع ، لا يسمع صوته عندما يتحدث ، يمشي في طرقات القرية منكسا رأسه ، خجولا عندما يتحدث مع الآخرين ، ولا يتحدث عنه الجميع إلا بالحسنى .

كانت النساء تضرب به المثل لأبنائهن عندما يحببن التمثل بشخص لديه تلك المكارم كلها ، وفجأة تنقلب الأحوال دون أن يتذكر حتى صاحب الشأن لم تغيرت أحواله وأنقلبت حياته رأسا على عقب ، يقول الشايب سالم بن علي :

‘‘ سبحان مقلب القلوب ، هذا الولد أصابه الحسد من ألسنة الناس ، فهم ما يذكرون الله كلما مدحوه وذكروا سيرته’’

أما أبوه فلقد صمت وأعتزل الناس، اتهم أهل القرية بتضامنهم مع السكارى لفعل ما فعلوه .

كان زايد مرزوق يستطيع تحدث اللغة الإنجليزية بطلاقة، وعندما يتحدث مع من حوله يطعم جمله ببعض الكلمات ، لكنه كان يكرر إنه إنسان لوفري ، حتى صارت صفته التي ينعته بها الناس ، جاء اللوفري وذهب اللوفري وقال اللوفري ، وفي الحقيقة كان قد أخذها من كلمة low free والتي تعني رجل خارج القانون أو مخترق للقوانين وهو يعني بها أن قوانين القبيلة والقرية لا تعنيه .

انتشر لقب اللوفري بعد ذلك على كل من جالس وصاحب زايد بن مرزوق ، ثم صار يطلق على كل الشباب الذي يخرجون ويسهرون في الوديان بغية السكر ، بينما كان الرجال والنساء ينصحون أولادهم :

‘‘ إياني وإياك وتطلع مع اللوفرية والا تجالسهم ’’

صار لقب اللوفري مخيف ومتوجس ويدل على شر كامن خلف غموض الأعمال التي يمارسها أؤليئك الشباب .

لكن عزان لم يطلق عليه لوفري أبدا ، إنما سرى لقب خاص به يقال بأن من أطلقه عليه هو ناصر بن سالم الحطاطي الذي كان يسمّي الخمر بالحل ، فهو يعتقد بأن الخمر وحل التراب أو الكاز من مصدر واحد ، لذلك كان كلما تحدث عن أحد اللوفرية قال :

‘‘ هذا يشرب حل ’’

إلا عزان فلقد لقبه ب " حليه " نسبة إلى الحل ، وصار ينادونه عزان حليه حتى لم يعد أحد يذكر عزان بن سعيد بتاتا ، وربما هو قد أعجبته هذه التسمية فصار كلما سكر يقول لكل من يصادفه في دربه المترنح :

" محد يبغاه حليه ، حليه معقوقبه "

في يوم ما عزان الشايب سالم بن علي من ناصر الحطاطي أن يأخذ بيده والده، قاده من يده واليد الأخرى تتحسس الدرب بعصاها الغليظة ، صعد الحارة ونزل إلى الوادي ثم صعد الدرب بين النخيل حتى وصل إلى البيت ، كان يتمتم بالدعاء طيلة الدرب حتى وقفا عند الباب ، قال له الحطاطي :

" وصلنا "

أمسك الشايب سالم بن علي بيد الرجل وقال له :

" لا تكون هنا ، وكون قريب "

فهم الحطاطي مقصد العجوز فذهب ليجلس تحت النخل في مكان يستطيع أن يراه وهو خارج ، طرق العجوز الباب ، وبعد لحظات خرجت كاذية زوجة سعيد وعندما رأته توجست في نفسها مجيء الرجل وكلمته بصوت على وشك البكاء ، أخذت بيده وأدخلته إلى حوش البيت ، نادت زوجها فجاء يتكيء على عصاه وهو يسحب رجله الثقيلة ، وقد بانت عرجته التي سمعها العجوز في مشيته قائلا له :

" حرقت رجولك بالوسوم والعرجة كل يوم تزيد "

رد عليه سعيد وهو يجلس بالقرب منه :

" شيء عندك دوا حالها "

أحضرت كاذية بسطة القهوة وجلست بالقرب منهما دون أن تقول شيئا ، تحدث الشايب سالم كثيرا كعادته غازلا الحكايات ببعضها حتى توقف فجأة ونكس رأسه قائلا :

" جاي أكلمك عن ولدك "

قال له بلغة صادمة وقاسية :

" اشرب قهوتك يا سالم وماشي كلام عن هذا الولد "

" لكنه ولدك "

" هذا ما ولدي ، هذا بذرة فاسدة "

" سبحان مولف القلوب يا إنسان ، يمكن كلمة منك ترد له صالح الرأي "

" لا تتعب نفسك ما عندي كلام حاله "

حاول الشايب سالم أن يلين قلب الرجل بالأحاديث وبالآيات ولكن بلا فائدة ، كانت كاذية تبكي بصمت وتذرف دموعها حرقة على ضياع ولدها الوحيد ، كانت تحاول إخفاء بكائها ولكنه يرتفع شيئا فشيء دون إرادتها حتى سمع نشيجها ، قالت تخاطب الرجل الأعمى :

‘‘ ضيعوه يا سالم ’’

قال لها :

‘‘ إذا همه ضيعوه ، انتوا ردوه هذا ولدكم ، وحيدكم ، فلذة كبدكم ’’

عندما لم يجد الشايب سالم أذنا صاغية قام ليخرج ، قادته كاذية حتى الباب وهي تهمس في أذنه :

‘‘ تمنيتك تقنعه ’’

قال لها بصوت هاديء وحزين بدا وكأنه يخرج من عمق المكان :

‘‘ هذا انسان عنيد ، عنيد وكظيم ، الله يهدي الولد ويعينه ’’

خرج الشايب سالم بن علي عائدا إلى عريشه بصحبة عصاه ودليله ناصر الحطاطي ، كان على غير عادته طوال العودة فلم ينبس بكلمة أبدا ، مع ذلك لم يسأله الحطاطي وصمت لصمته حتى أوصله إلى بيته وخرج ذاهبا لمقصورته وهو يضع في الطريق مضغة جديدة قائلا لنفسه :

‘‘ يبتلي الله الواحد منا في كل شيء حتى في نفسه ’’

كان الشايب سالم بن علي حنونا مع عزان ، كلما مر على سبلته في الأوقات التي يكون فيها بمفرده يناديه ليجلس بجانبه ، كان ذلك الهائج في سكره ينقلب إلى طفل مستكين وباك ، ينشج وأنفاسه تعلو وتهبط مثل أمواج تتلاعب بقارب صغير ، وكان الشايب سالم يتمتم ببعض الآيات والأدعية ، ولم يُسمع ، مذ تعود السكران القدوم إليه، كلمة تضايقه ، وكان عزان يستكين حتى يضع رأسه في حجر الرجل العجوز وينام ، وفي مثل تلك الحالات على الشايب سالم أن يظل مكانه وعلى حالته حتى يستيقظ .

في مرات عديدة يعود الزائرون من عند مدخل العريش عندما يشاهدون السكران نائما هناك ، يخرجون على طرف أصابعهم خشية أن يوقظوه ، كانت إشارة واحدة من العجوز تكفيهم حتى يقفلوا راجعين ، وكانوا في قرارة أنفسهم يجلون الرجل الأعمى الذي يستطيع إحتواء ذلك الشاب السكران والهائج في سكره .

عندما يستيقظ الفتى من غفوته يطلب منه الشايب أن يفتح مندوسا في طرف العريش ، يخرج منه قنينة عسل أسود ، طالبا منه أن يسكب القليل في فنجان ويلعقه ، كانت قناني العسل تصطف في المندوس ، وكطفل يستمع إلى أوامر والده ينفذ عزان أمر الشيخ ثم يذهب خارجا هائما مرة أخرى في طرقات القرية ، وفي معظم الأحيان يذهب لينام تحت لمباة الغلالة ، يختار الركن الذي لا يقابل الدرب ، يندس خلف جذعها وينام بقية يومه .

في كل مرة كان عزان وهو في حالة سكره الثقيل يقول للشايب سالم بن علي والنشيج يأخذه مثل شلال الفلج الهابط إلى الجهة الحدرية من البلاد :

‘‘ أتمنى يده ، تجي تحط على راسي ، عصاه على ظهري ، لو تكلم معي وأمرني بأي شيء سويته ’’

كان يعني والده ، فهو يتمنى أن يرضى عليه أبوه ، أن يأتي ويأخذ بيده ، أن يسامحه ، أن يفك عقدة الصمت التي صنعها بينه وبين ولده الوحيد ، أن يكسر كبرياءه وغضبه ويمد يده التي طالما انتظرها طالب لعله يعود إلى رشده .

ما الذي حدث مع عزان ؟ من يملك حكاية انقلابه فجأة ؟ من يحكي عن غرقه في جابية الخمر التي بلا قعر ؟ فكل واحد في هذه القرية له حكاية مختلفة تماما عن غيره وكل واحد يؤكد مصداقيته بشاهدت وسمعت ، ولا يعرف المرء عندما يصغي إلى تلك الأقاويل من شاهد حقا ومن سمع ؟

قال عمير بن خلفان وكان أحد اللوفرية الذين يعتمد عليهم زايد بن مرزوق في تهيئة المكان والسهرة :

جاءنا عزان متلصصا من الجبل ، جلس مطلا على جلستنا قبل أن يجيء الأصحاب ، كنا هناك ثلاثة فقط ، أنا وزايد ومسمار ، كان زايد يدوزن أوتار عوده بينما كنت أملح اللحم وأتبله بالبهارات ، وكان مسمار يحكي لنا حكاية ما وهو منهمك في سحل المشاكيك ، رفعت رأسي لأرى ذلك الفتى يجلس أعلى رؤوسنا ويبتسم ، ولأننا نعرف والده و تدينه وورعه ومحبة الناس له ، هزتني رعشة كبيرة ، صدقوني كأن أحد ملائكة السماء يراقبنا ، بقيت رافعا رأسي ، صامتا ، وفمي مفتوحا من المفاجأة ، قلت أتمتم بصوت خافت لا يسمعني إلا زايد بن مرزوق :

‘‘ لا حول ولا قوة ’’

نظر إليّ ود مرزوق وكان قد أعطى ظهره للجبل ، كنت أنظر إلى الفتى ، رفع زايد رأسه ولف رقبته ناظرا إلى الخلف ورآه هناك ، فهب من جلسته ملقيا بالعود على الأرض كمن لسعته جمرة وصرخ فيه :

‘‘ روح يا ولد ما نريد مشاكل ’’

لكن عزان ظل مكانه هادئا مبتسما وهو ينظر إلينا نحن الثلاثة ، جلس ود مرزوق وقام ، أما مسمار فذهب ليقتطع زورة أخرى ، قلت له :

‘‘ تفضل ’’

نظر ود مرزوق ناحيتي وقال :

‘‘ هين يتفضل ، إنت فيك عقل ؟’’

هبط عزان ناحيتنا ، سلم وجلس ، ظل صامتا طرف الحصير ، وبعد فترة حتى يزيل توترنا قال لود مرزوق :

‘‘ أبغى أشرب ’’

أشار زايد إلى ترمس الماء ، لكن عزان هز يده أمام وجهه ثم أشار إلى قنينة الويسكي :

‘‘ أريد من هذا ’’

خرجت عينا ود مرزوق عن محجريهما غضبا وتعجبا وخوفا ، قال صارخا :

‘‘ ما باغيين مشاكل ، لعن بليس وروح من هنا ’’

تناول عزان الزجاجة وسكب منها في كوب ، تدخلت وخلطت له الشراب مع الماء ، تناوله وشربه دفعة واحدة ، مد يده بكوبه الفارغ ناحيتي وقال :

‘‘ زيدني ’’

هاج ود مرزوق وكاد أن يرمي الزجاجة في الجبل ، اقترب مسمار وكان يراقب الموقف عن قرب قائلا له :

‘‘ ما كذا يوم يشربوا ، شوي شوي ’’

لكن يد عزان ظلت ممدودة تنتظر ملء الكأس مرة أخرى ، فلم يكن مني إلا أن أخذت كأسه وسكبت له ثانية واعطيته إياه بعد أن خففته بالماء ، فأخذه في جرعة واحدة ، وبعد عدة كؤوس انفتحت نفسه وما عدنا نستطيع ايقافه .

شرب حتى لم يعد يستطيع أن يتحرك من مكانه ، تقيأ علينا ولوث نفسه وسقط مغشيا عليه ، خفنا عليه وخفنا على أنفسنا من أبيه ، فمن يدري ؟ ربما دعا علينا فتحل بنا كارثة ، قام مسمار ونظف وجهه وبلل شعر رأسه بماء بارد وسحبه قليلا ليستريح ، نام لدقائق ثم قام ، ومشى يحاول الذهاب إلى بيته ، حاولنا فيه ولكن لا فائدة ، خرج من القويرة وصار كما يعرف الناس بعد ذلك .

أما ود مرزوق فلم يتحدث عنه أبدا ، كان يخاف خوفا كبيرا من أبيه ، يعتقد بأن لعنة عظيمة ستلحقه يوما ما ، يهمهم مع نفسه قبل أن يغمض عينيه للنوم :

‘‘ خايف من دعواتك يا سعيد ، من يبغى يسويلك سبب ؟ ’’

وكلما جاءت سيرة عزان في حضرته يُسكت الذي يتحدث عنه وينهي الحكاية ، طالبا من الجميع ألا يتحدثون عنه في حضرته .

لكن هناك حكاية مختلفة تماما من مسمار ، ومسمار هو عبدالله بن حمد الرجل صاحب اللحية البيضاء الطويلة ، وصاحب الشعر المنفوش دائما والذي لم يحدث أن وضع شيئا عليه ، وكان يلقب بمسمار لنحافته وطوله ، يقول مسمار :

عزان ولد عاقل ، لكنه ذات يوم خرج مع أصدقائه إلى طرف القرية وكانوا قد أخذوا معهم شرابا وقد أخفوه خلف أحراش الحلف ، فكانوا يتناوبون عليه يشربون كؤوسهم ويعودون لسهرتم دون أن يشعر بهم عزان ، وكنت معهم ، لقد رأيتهم وهم يتآمرون عليه ويسكبون الشراب في عصير البرتقال الذي يشرب منه حتى بدأت الخمر تلعب برأسه ، ولم يتوقفوا ذلك اليوم حتى سكر سكرة عظيمة ، ولما عادوا رموه في وسط القرية وكان لا يستطيع الحركة وحدث ما حدث بعد ذلك كما يعرف الجميع .

لكل رجل من اللوفرية حكايته عن بداية تورط عزان في سكره والذي لا يشبه سكر أحدهم أبدا ، فهو يتحول بعد كؤوس عدة إلى شخص هائج لا أحد يستطيع الوقوف في وجهه ، والأعجب من ذلك أنه في حالة صحوه القليلة يعود هادئا مستكينا كما هو معروف عنه قبل ذلك ، ولكن دون ابتسامة ، فلقد اختفت من محياه وما عاد يسرح في وجهه سوى حزن عجيب .

صار الجميع يتحاشى عزان حليه سكرانا كان أم في صحوه ، لقد سيطرت الخمرة حتى على لسانه وكلامه ، صار الحديث لديه بطيئا وثقل لسانه حتى في غير حالات السكر ، وأضرت الكولونيا بجسده فنحل جسده وأصابه الرعاش وبات لا يقوى على ترك الخمر ليوم واحد .

ولأن الخمر لا تتوفر دائما معه ولا مع رفاقه فقد كان يشرب الكولونيا والتي أطلق عليها الرفاق خمرة الفقراء ، لأنهم لا يستطيعون شراء الخمور الأصلية لندرتها وغلاء ثمنها ، إلا إذا سنحت الفرصة لبعض الضباط أو من له صلة بالإنجليز في إحضار كراتين البيرة والنبيذ وزجاجات

الويسكي فيصير كالعيد في القرية ، يحضره الجميع ولا يقومون من مجلسهم إلا وقد انهوا على آخر قطرة من الشراب .

كانت لجلساتهم كيّالا يقيس لهم الشراب بالتساوي ، وكانت هذه مهمة مسمار ، فمسؤوليته فتح الزجاجات وسكب الخمر في غطاء القنينة أولا كمقياس على القسمة العادلة ، ثم يعطيه لصاحبه ليخففه بالماء أو العصير كيفما أراد ، وكان يحسب في دفتر صغير لكل واحد عدد الأغطية التي أخذها وعدد الكؤوس التي شربها ولا يمكن أن يعطي أحدا كأسا زائدا على رفاقه إلا إذا سمح أحدهم من حصته في الدورة الواحدة .

كان الشراب يدور على الجميع بالتساوي وعلى من ينهي كأسه أن ينتظر رفاقه جميعا حتى يشربون كؤوسهم وهكذا طوال السهرة حتى تفرغ الزجاجات ، أما علب البيرة فتوزع من البداية على الحاضرين على حسب أعدادهم ، فقد يحصل الواحد منهم على ثلاث أو أربع علب له الحق في شربها في ذات الوقت أو بعد انتهاء القناني .

في الجلسات التي يحضرها عزان حليه كانت غالبا ما تنتهي بالصراع والضرب ، فبعد كؤوس عدة يطلب حلّيه المزيد دون مراعاة لقانون توزيع الشراب ، فيدخل في البداية بملاسنات مع هذا وذاك حتى تنتهي بالضرب ، وغالبا يتشكلون عصبة عليه ، يضربونه حتى يفقد وعيه ثم يتركون له المكان ويذهبون عنه إلى مكان آخر ، لكنهم بعد صحوهم يرجعون ليطمئنوا عليه وينسون ما حدث ثم يبدؤون من جديد .

يقول عمير بن خلفان بأن جدته ميمونة بنت سيوف كانت تحكي عن جدها راشد بن سيوف بأنه كان يصنع الخمرة من تمر الفرض ، وكانت له ضاحية من النخيل تسمى المندسة ، وقد حفر حفرة عميقة في وسطها لا يعرف عنها أحد .

كان يخمّر تمر الفرض في خرس من الطين بعد أن يضع التمر في الماء ويخلطه بكميات من العسل ، ثم ينزل ذلك الخرس الطيني في حفرة نخيل المندسة ، ويتركه هناك لأيام طويلة حتى يختمر وبعد ذلك يخرجه ويستخلص منه شرابا لاذعا يدسه في جحلة خصصها لذلك .

كانت قهوة راشد بن سيوف موصوفة بلذتها ، كان الجميع يمر عليه ليشربوا فنجانا أو اثنين ، كانت تلك القهوة قد أخذ بها الصيت بين القاصي والداني ، ولقد حاول الجميع معرفة صنعها ولكن كان راشد بن سيوف يضع سره في تلك الحفرة التي لا يعلم عنها أحد .

بعدما مات راشد بن سيوف أخبرت زوجته بحكايته التي كانت تعرفها وتكتمها ، لقد كان راشد بن سيوف يأخذ القليل من جحلة الخمر ويضعه في دلة القهوة ، كانت الخمرة هي من تصنع النشوة واللذة في رؤوس شاربيها دون أن يعرفوا السبب ، ولكن بعضهم حاول مع زوجته أن تخبرهم كيفية الصنعة لكنها أكدت لهم بأنها لا تعرف شيئا .

‘‘ هذي الحكاية تدل أن عمير بن خلفان بدأ يسكر ’’

ضحك أحمد بن شنون عندما سمع حكاية خمرة راشد بن سويف ، واستطرد يخبر الحاضرين بأنهم كلما جلسوا للشرب ودارت الكؤوس فهناك علامة واحدة فقط على سكر عمير بن خلفان ، فبعد أن يهز رأسه ويهمهم طويلا يسكت الجميع في انتظار المفاجأة التي سبقوا أن سمعوها عشرات المرات ، وفي كل مرة يبدأ وكأنه يحكي الحكاية لأول مرة :

‘‘ هيييييه هيييييه ، وينك يا خمر راشد بن سيوف ’’

ثم يرفع رأسه يكلم ندماءه وهو يبتديء ب " يقولوا عوين ...."

وأحمد بن شنون أو أحمد لعرج أو ود شنون هو شاب لم يتعدى الثلاثين يعمل كموظف في إحدى الوزارات في مسقط ، يعمل فراشا ينقل الأوراق والمراسلات من دائرة لأخرى ومن قسم لآخر ، وكان لا يأتي إلى القرية إلا في عطلة نهاية الإسبوع .

كان أعرجا ، وسبب عرجته أنه أصيب عندما كان طفلا بشلل الأطفال لكن كانت الإصابة خفيفة ، مما سببت له ثقل في رجله اليسرى وصار أعرجا بسببها وأخذ العرجة في اسمه كما في جسده .

كان أحمد من القلة الذين لا تؤثر فيهم الخمر ، فهو لو ظل يشرب طول نهاره وليله يظل كما هو ، لا يتغير فيه شيء ، ولولا تلك الرائحة التي تفوح من فمه ما كان لأحد أن يميز بين صحوه وسكره .

على ود شنون أن يختم الجلسات ويسحب السكارى ويقودهم في حال فقدانهم لوعيهم ، وعليه أن يتدخل في المنازعات القوية ويفصل بين المتنازعين ويعالج جرحى المشاكسات الخمرية ، لكن عندما يتعلق الأمر بعزان حلّيه فهو يقول :

" أنا بري من هالمخلوق ، تصافيوا وحدكم بعيد عني "

إن معظم شلة الندامى أو اللوفرية أو شلة السكر أو ما شابه من ألقاب منحت لهم من أهالي القرية ، كانوا يعملون خارج البلدة في أماكن متفرقة ولا يأتون إلا في الاجازات الطويلة أو العطل الإسبوعية ، فما إن يصلوا إلى بيوتهم وقد أحضروا معهم متطلبات البيوت من مواد غذائية وغيرها حتى يذهبون إلى تجمعهم في أحد الوديان أو في القويرة مزرعة زايد بن مرزوق ، يظلون هناك ليلتهم الأولى ثم يقضون نصف نهارهم التالي مع عوائلهم ويعودون للإجتماع ثانية وهكذا حتى تنتهي العطلة أو ينتهي الشراب تماما ولا تتبقى قطرة واحدة .

على كيال السهرة وفي أغلب الأحيان يكون مسمار هو الكيال أن يعيد غطاء القنينة الفارغة إليها ثم يضعها جانبا ، فكل قنينة فارغة تنتهي تعني بداية أخرى ، وكان كلما رمى بإحداها في شراج الوديان يقول مخاطبا لها :

" هو عليش أكلتينا "

ثم يستطرد بعد أن يصمت قليلا :

" وما تأكلنا إلا الخمر "

يرد عليه أحدهم :

" لا تكفر بنا يا مسمار ، ولا تحرف القرآن ، الآية تقول وما يأكلنا إلا الدهر "

يضحك مسمار ويخاطب ندماءه :

" سمعوا من يتكلم عن القرآن ، اشرب وانت ساكت يا ولد "

تتناثر زجاجات الخمر الفارغة في الشراج البعيدة ، حيث تعود الندامى قضاء سهراتهم ، تتناثر بأشكالها المختلفة بأعناقها الطويلة ، بألوانها ، بأحجامها ، لقد انتهت دورة حياتها وانسكب ما بها في بطونهم ، لتبقى هناك تلفحها شموس الأيام الصهدة حتى تتطاير الأوراق الملصقة عليها ، يتكدس الغبار على زجاجها اللامع وتتبخر رائحة الشراب النفاذة التي كانت فيها .

ثم تأتي اليد التي تأخذ بأعناقها وتجمعها لتعيد لها مكانة أخرى في المحبة ، تأخذها يد العسال ، تنظفها مما أصابها من نوائب الدهر ليعود زجاجها لامعا ، ثم يسكب في بطنها عسله، والذي يبدو من خلف شفافية الزجاج البلوري اللامع نقيا و لذيذا ومسيلا للعاب الباحثين عنه.

يسطع ضوء الشمس كلما تمدد النهار، وكلما ارتفع قرصها الوهاج ترتفع الحرارة في الجبال، في ذلك الوقت من الصباح عندما حانت الساعة التاسعة كان الرفاق ما يزالون يبحثون في الكهوف والشقوق الجبلية والأشجار وبين الحجارة الكبيرة عن خلية العسل التي ما زالت مختبئة عنهم في مكان ما .

كانت الشمس تأخذ من نشاطهم ومن الأمل ، والبحث ما زال في أوجه تماما، لكن الهواء الغربيّ الحارق بدأ ذلك اليوم قبل المعتاد، كلما صعد أحدهم آمل أن يجد بالقرب منشده ولكن ما إن يصل إلى المكان حتى يقف حائرا.

سعيد بن حمد لا يتعب، لا يمل، ولا يعرف الكسل، لقد أصرّ أن يعثر على العسل في هذه الرحلة، فلقد صادف في حياته ما هو أصعب من هذه الخلية ووجدها في النهاية.

لقد اقتسموا الجبال بينهم كل يبحث في حيزه الذي أوكل له، جلس الحطاطي على قمة تشرف على الوديان البعيدة ، رأى منها مكان مقيلهم في عقبة النخلة، أخرج صرة الغليون من حزام إزاره ، قبض بإصبعيه الإبهام والسبابة قبضة من نثار الغليون وحشا بها فمه، أحس برأسه يتخفف من ثقل التعب، كان العرق يملأ قميصه الداكن، نزل إلى ظل صخرة مبتعدا عن وهج الشمس لدقائق، ولكي يستمتع بدوخته التي ما زالت تتصاعد إلى دماغه، ومن هناك راقب نبع الماء الضئيل المتبقي في الوادي القاحل ورسم خط طيران النحل كما شاهده سعيد بن حمد ، كان يجيء إلى تلك القمة مباشرة.

يدرك ناصر بن سالم الحطاطي بأن النحل البعيد لا ينقطع عن الوِرد وذلك بسبب بعده عن الماء، ولكنه سيغيره إلى مكان آخر سيشرب منه ، فسأل نفسه:

- ماذا لو كان في الوادي المقابل للخلية نبع صغير يشرب منه النحل أيضا ؟

نظر إلى قعر وادي النمارات، كان صفا الوادي يبدو أغبر وقد جفت المياه منه ، وهو هناك في القمة يلزمه ما يقارب من نصف ساعة حتى يهبط ويدخل الوادي لكن الفكرة تأكله، فهو مقتنع تماما بأن ثمة مكان آخر به ماء يقصده النحل كلما توقف عن النبع الأول لوجود أحدهم.

انتهى تأثير الغليون فبصق بالنثار المختلط باللعاب وقام هابطا الجانب الآخر وقد قرر الذهاب إلى المقيل بواسطة الوادي حتى لو تأخر قليلا.

الانحدارات خطرة جدا، الحجارة بدأت تسخن رويدا رويدا ، لن يستطيع الاتكاء بيديه لحظة هبوطه بسبب حرارة الجبل الساخنة، لكنه أراد أن يتأكد تماما بأنه لا يوجد في الجهة المقابلة لبيت النحل المخفيّ في جسد الجبل مكانا يشرب منه، لا بد له من أن ينفي ذلك أو أن يثبته، فلقد علمته التجارب بأن معرفة وتوكيد اتجاه النحل وموارده وسلوكه في طيرانه يساعد كل ذلك في الحصول بسهولة على العسل، أو العكس تماما ، فلربما بحث في المكان الخطأ حتى التعب .

يتوقف الهواء في بعض الأوقات فتنهمر أمطار الجسد، لقد تبلل القميص كليا ، وكأن الحطاطي قد خرج لتوه من بركة ماء ، كان شعره يقطر وجسده كله يقطر عرقا، ولم تكن هناك حتى نسمة هواء ضئيلة تحمل عن الجسد ما يعانيه من ثقل حرارة الشمس وعقبات الجبل الصاعدة ، بل أن بعض المسالك قد يحتاج فيها أن يمشي على أربع، ليتحول مثل حيوانات الجبل، محنيّ الظهر ممسكا بيديه على الحصى الثابت وهو يتقدم نازلا صوب الوادي.

كان الحطاطي يذهب وحيدا أو برفقة أناس من القرية، وفي ذات يوم التقى الحطاطي في طريقه سعيد بن حمد وقال له مازحا:

- فوادي فشومة الجبل معك.

ضحك سعيد وقال له:

- إذا معزّم نروح تو.

فتح الحطاطي عينيه على اتساعهما وقال صارخا :

- بعيد الشر.

كانت فرحة سعيد لا توصف، فهو وإن لم يكن قد صاحب الحطاطي يوما في رحلة إلا أنه سمع الكثير عن توقه وعزيمته وحكاياته التي لا تنتهي ، وعن قفشاته التي اعتادوا عليها بعد ذلك، حتى صارت كل رحلة لابد للحطاطي منذ البدء أن يكون فيها.

ثم انضم للرفقة عزان بن سعيد، فلقد طلب بخجل من الحطاطي أن يذهب معهم لكي يكسر حدة الفراغ الذي سببه توقفه عن شرب الخمر، قال له:

- أحسني لو ما سويت شيء برجع أشرب مرة ثانية.

ولأن الحطاطي يعتبره ولده الصغير، وله محبة في قلبه واحترام لذلك الإنسان الذي راقب محنته عن قرب، قال له:

- إذا رجعت تشرب بقتلك برصاصة بين عيونك.

لذلك وفي تلك الليلة بعد أن صلى صلاة العتيم طرق باب بيت سعيد بن حمد وأخبره بأمر رغبته في رفقتهما ، هز كتفه وابتسم قائلا:

- ماشي مشكلة، خله يجي، الجبال تصفد الرجال.

ومنذ رحلته الأولى معهم أثبت استطاعتهم في الاعتماد عليه، فهو الشاب القوي البنية الذي يحمل الزاد وهو أيضا من يقوم دائما بجلب الحطب وإصلاح المواقد وإشعال النار وملء مطارات الماء وغسل أواني الطعام، وفوق هذا كان حظه كبيرا في البحث عن العسل والعثور عليه.

كان عزان هادئا وصامتا على عادته ، يستمع إليهم وهم يتحدثون جالبين الحكاية تلو الحكاية عما يحدث في القرية أو عن رحلاتهم الجبلية وما يصادفونه من عقبات ، كانت الذكريات تتداخل مع الحكايات الأخرى، وكان يضحك بلطف مستمتعا بتلك الرفقة التي ألهته عن رفاق الخمر، والذين ما زالوا يحاولون معه للعودة إلى مجالسهم وسهراتهم .

وفي ظهيرة ذلك اليوم الذي سوف يذهب مع رفاقه إلى عقبة النخلة وهو مستلقٍ تحت شجرة السوقم الكبيرة في حوش بيته ، تناهت إلى أنف ناصر بن سالم الحطاطي رائحة البرم العسليّة بينما كانت زوجته جالسة بجواره منهمكة في خياطتها.

فتح عينيه وتنفس بعمق سامحا للرائحة بأن تدخل إلى أعماق رئته ، ثم زفر الهواء بتأنٍ واختتم زفرته بأحححححح كبيرة ، كأنه قد تلذذ بطعم العسل الداخل إليه من خلال الرائحة .

نظرت إليه زوجته بنصف نظرة وهي تدرك بأنه صار في الآونة الأخيرة تمر عليه حالات كثيرة لا تفقهها ، تقول في نفسها :

- الرجّال شيب وبدا يخرف
- عسل ، عسل ، من هين ريحة العسل ؟

سأل زوجته وهو يصلح من هيئته، جلس مستندا بظهره على جذع السوقمة .

تشمم الهواء بأنفه ، رفع رأسه يلاحق الرائحة التي تناهت إليه قبل قليل ، التفت يمينا وشمالا ، قام وجلس ، اقترب من زوجته وشمّ لحافها ، عنقها ، صدرها ، هبط إلى حجرها وشمّه باحثا عن تلك الرائحة التي دوّخت رأسه ، كان يلاحقها مثل كلب ، وضع يديه على الأرض واقترب من التراب وشمه ، نظر إلى زوجته بعينين غائمتين حتى شكّت بأن الحطاطي قد جنّ ، قالت هاجسة :

- ناقصنا جنون الحطاطي وتكتمل .

توقف عن البحث بأنفه ، قام وجلس أمامها مباشرة ، وضع عينيه نصب عينيها وظل يحدق فيهما ، كانت عينا أسماء بنت نوفل عسليتين وكأنهما سوف تقطران على التو على خدها المصفرّ من أثر الشورانة والآس ، وضع إبهامه على طرف شفتيه عقد حاجبيه نظر إلى عينيها وحدقتاه مرتفعتان إلى أعلى نقطة ممكنة في محجريهما .

شعرت أسماء بالرهبة وبدأت قشعريرة خفيفة تمشي في مفاصلها صاعدة إلى أكتافها ، ولولا أنه كسر تلك اللحظة بسؤاله لربما بكت المسكينة من خوفها وقد بدأت تتيقن من جنونه لقد لعبت بها الهواجس حتى خافت أن تمتد يداه إليها وتخيلته ممسكا بعنقها الدقيق وهو يضغط عليه خنقا حتى الموت .

- من وين العسل ؟

سألها ، لكنها هزّت رأسها مبدية نظرة استغراب من ذلك السؤال .

- ريحة عسل تفوح من ملابسش ، قولي من وين العسل ؟

انكمشت على نفسها ، مد يديه وفتح إبرة الصدر ، سقطت البوابة المزركشة على الجانب الأيمن فأشرق النحر ببياضه الحليبي وقد ظهر منبت الصدر ، قرّب أنفه حتى لامس عنقها ، شمها ثانية ونزل حتى دسّ أنفه في نهاية الصديرية ، كانت يداه تسندان جذع السوقمة وكأنه يود لو يحتضنها ، أو كأنه يحاول احتضان الرائحة في جسد امرأته .

تيقن بأن زوجته ستخفي عليه الحقيقة ، ربما أحدهم أهداها عسلا ، أو ربما أكلت العسل عند جاراتها ، لكن سؤالا ظل يتردد في ذهنه ، لو كانت قد أكلت العسل فشفاهها من تشي بها ، رائحة فمها ، أنفاسها ، لكن رائحة العسل تهب من ثنايا الصديرية ، من هناك تماما حيث يربض نهدان متحفزان من خلف شلحتها الفيروزية .

دس وجهه كاملا في صدرها ، انغرز الأنف أكثر حتى وصل إلى عمق الصدر ، وكلما توغل في عمق الشق كلما فاحت رائحة العسل الجبليّ أكثر وسيطرت على قمة رأسه .

بشدة شقّ بيديه القويتين صديريتها ، تمزقت دشداشتها النيلية المطرزة من نحرها حتى منتصف الصدر بخيوط فضية لامعة ، انشق الصدر وظهر نهدان صغيران وقد تكورا على نفسيهما مثل طوقي نحل جبلي متقابلين تعلقا على حجر صقلته السيول فأصبح أملسا ولامعا ، كانت الرائحة تتصاعد إلى عنان السماء وكان دبيب النحل يسري هادئا في تخوم المكان .

اقترب برأسه وشمّ صدرها ، ابتعد قليلا فخفتت الرائحة ، كان في كل اقتراب منه تسطع رائحة العسل البرميّ وكل ابتعاد تنقشع سحابتها رويدا ، لا تخفت كلها ، لا تغيب ، لكنها تلعب معه لعبة الحضور والغياب .

أمسك كتفيّ زوجته العاريين بيديه ودسّ رأسه أكثر وتنشّق بعمق ، وهو يقول :

- عمري ما دقت فراسي ريحة كما ريحة هالعسل ، من وين العسل ؟

سألها ولم ينتظر جوابا ، أخذ شهيقا عميقا وكأنه يملأ رئتيه من نبعها فلا تمتلئان ، كأنه يشرب من ينبوع عذب بعد عطش شديد فلا يرتوي ، رفع رأسه ونظر إلى عينيها العسلتين وسألها ثانية :

- من وين العسل ؟

ظلت أسماء بعد ذلك مستلقية تحت جذع السوقمة ، رأسها متكأ على عرق كبير ناتئ من الشجرة ، وجسدها متمددا في الرملة المفروشة فوق الأرض الطينية ، كانت قد أغمضت عينيها ودخلت في إغفاءة صغيرة، حينما أغلق ناصر بن سالم الحطاطي باب منزله ذاهبا إلى حيث ينتظره رفاقه الذي أخّرته تلك الرائحة عنهم والتي ما زالت تتجول في أنفه .

سكن الحطاطي في المقصورة التي اشتراها بثلاثمئة ريال من حارث بن شيخان ، وكانت تسمى المقصورة برغم أنها كانت معطلة لا زرع فيها ولا شجر سوى بعض النخل الذي بدأت قممه بالتساقط ، كان السيل الذي يهبط من الشرجة قد ملأ المكان بالحصى ، وليس في وسع صاحبها حارث بن شيخان الرجل صاحب المقاصير الكثيرة أن يلتفت إليها ، لذلك سير للحطاطي دلّال القرية هاشل بن مسعود والذي تفاوض معه لكي يشتريها ومع أن مبلغ ثلاثمئة ريال لا تعني شيئا إلا أن ناصر بن سالم الحطاطي كانت تعني له قوت أشهر هو وزوجته .

كان للمقصورة ماء من الفلج ، وكان ماءها كثير ، فلها خمسة آثار الظل من الظهيرة وحتى العصر ولها أيضا أثران ونصف من ضحى اليوم السادس .

كانت المقصورة في الجزء النائي من النخل الملاصق للجبل لذلك وكما هو متعارف عليه في القانون العرفي للقرية فستكون السيوح الملاصقة لها والشرجة أيضا كلها تتبع المقصورة .

فكر الحطاطي بالموضوع واستشار زوجته حين كانا يسكنان بيت الغريفة والذي كانت ثلاثة أرباعه قد تآكلت وتساقط الكثير من سقفه ، وفوق هذا لا يحق له استصلاحه كون بيت الغريفة ملكا لعائلة بن شيخان جميعهم ولم يتنازل أحد عن حقه في البيت لذلك ظل كما هو حتى تساقط حجرا حجرا وطفالة طفالة .

قالت له زوجته :

- كم معك ؟

هرش رأسه بأصابعه قبل أن يقول لها :

- ما يسدن .

لكن أسماء بنت نوفل زوجة سالم بن ناصر الحطاطي هبت من جلستها وفتحت سحارتها مستخرجة منها علبة معدنية خضراء ، فتحت غطاءها واخرجت منها لفافة من القماش وضعت في وسطها بعض النقود ، عدت نقودها أمامه فوجدتها أربعمائة ريال ، قالت لزوجها :

- كان ما يسدن ببيع الصيغة .

أخذ ناصر بن سالم الحطاطي ثلاثمئة ريال فقط وأعطى الباقي لزوجته .

تصغر أسماء بنت نوفل زوجها ناصر بن سالم الحطاطي بعشرين سنة تقريبا ، لقد تزوجها وهو يقارب الأربعين بينما كانت قد حاضت حيضتها الثالثة عندما تكلم مع أمها عن طريق سعده الخطابة ، وفي ذات اليوم رجعت سعدة بالخبر إليه وهي تقول له :

- زهّب عمرك .

وفي غضون شهر كانت أسماء بنت نوفل تسكن في بيت الغريفة .

برغم صغر عمرها بالمقارنة به إلا أنها كانت تعمل طوال النهار في أشياء شتى ، ثم تعود لتنجم كمتها التي ستبيعها بعد ذلك ، وكانت تحتفظ بالنقود في علبة معدنية تقفل عليها داخل سحارتها ، وكل ريال يدخل إلى تلك العلبة لا يخرج منها أبدا .

عاشت أسماء يتيمة الأب ، لقد سقط أبوها من نخلة عوانة ذات يوم وهي ما تزال صغيرة ، ظل غائبا عن الوعي لأيام وفي اليوم التي استيقظ وتحدث لزوجته مات.

تتذكر وجهه قليلا ، يشبه الحلم عندما يمر على خاطرها ، تتذكر لحيته الكثيفة وعقدة بين عينيه ، وأكثر ما تتذكر يديه اللتين كانتا تمسحان على شعرها ووجهها .

عندما تزوجت أعطتها أمها بقرة وثلاث نعجات وكبش، وقد بدأت حياتها كأي قروية تحاول إيجاد قوت يومها بما تجيده وبما تجود به الحياة .

يحيط بالمقصورة جدار طيني قد تأثر مع الزمن وتساقط ولم يتم إصلاحه ، فما كان من ناصر بن سالم الحطاطي في بادئ الأمر إلا أن يقيمه ، لذلك أسقط ما تبقى من الجدار القديم وبنى على أساسه جدارا آخر أكثر صلابة وأعلى ارتفاعا ، كان يقول :

‘‘ ما تكون مقصورة وما فيها جدار ’’

في غضون سنة واحدة استطاع أن يعيد للمكان بهجته التي انطفأت ، عمل فيها طوال الوقت فاستخرج الحصى وأكوام الزور اليابس وجذوع النخل المتساقطة ، ثم جاء بأنواع جديدة من الفسائل وغرسها بعد أن حرث الأرض وزرعها غشمرا ومسيبلوا ولوبياءا .

بمحاذاة شرجة المقصورة كانت أشجار اللمبا تصطف على طول الجدار ، تلك الأشجار التي كانت مهملة فرحت بكل ذلك الإعمار الذي حدث في الأرض فامتلأت ثمرا تلك السنة حتى باع منه الكثير .

في المقصورة شجرة سوقم كبيرة ومعمرة ، أشار إليه بعضهم بقصها من جذعها فهي تضر المكان ولا نفع لها ، لكنه لم يمسسها بسوء وفي يوم قائظ كان جالسا يستريح تحتها مر عليه حارث بن شيخان وأعاد عليه اقتراح اقتلاع السوقمة من مكانها لكن الحطاطي قال له :

- هذي السوقمة بيتي .

ومنذ ذلك اليوم صارت السوقمة بيت الحطاطي إذ بنى غرفتين صغيرتين بالقرب منها وأحاط السوقمة والغرفتين بسور داخل المقصورة وانتقل وزوجته ليعيشان هناك ، تاركين الحارة وبيت الغريفة المتهدم ، بينما بنى حضيرة للمواشي تحت أشجار السمر في السيح الصغير الذي بجانب المقصورة .

تتناثر قبور قليلة في المساحة التي بين أشجار السمر والجبل ، وكانت أم زوجته قد قالت له قبل أن ينتقل إلى بيت المقصورة :

- بتْسَكِّنْ بنتي فمكان موحش ؟

لكنه رد عليها مبتسما :

- المكان الموحش يآنسه الإنسان .

لم ترد عليه بعد ذلك ولم يزدها في جوابه شيئا ، ولكنها رأت الرضى في عين ابنتها ، وعندما حانت النقلة ساعدتهم كما ساعدهم أهل الحارة في حمل أشياءهم إلى المقصورة .

بعد إن كانت المقصورة يضرب بها المثل كمكان موحش ومخيف يتلاعب الجن في أرجائه ويخرجون في الليالي يمشون ظاهرين للعيان أو تسمع أحاديثهم آتية من بين أشجار السمر ، وبعد تلك الحكايات الكثيرة التي حدثت للبيادير ، الحكايات التي توقف شعر الرأس من هولها ، والتي لا يخلو منها مجلسا لهم أو سهرة مع أطفالهم ، بينما كان البعض يبالغ جدا فيما حدث له حتى أن الأطفال الصغار كانوا يندسون متكورين تحت ألحفتهم أو في حجور أمهاتهم ، قالت امرأة :

- المقصورة مقصورة على أهل تحت .

وقال رجل عجوز أعمى :

- شفتهم بعيوني قبل ما يروح وبصهن .

وقال بيدار الشايب حمدون :

- ما خطف يوم في المقصورة إلا والجن لهم حكاية جديدة .

بعد ذلك كله صارت المقصورة المكان الذي يقصده القاصي والداني.

اقترحت أسماء بنت نوفل على زوجها ناصر بن سالم الحطاطي أن يشتري ثمار الليمون من أصحاب الأموال ، فما كان منه إلا أن ذهب للدلال المسؤول عن طناء الليمون ليعرف منه الذين عرضوا عنده أشجارهم لطنائها ، فأخبره بأنه يريد أن يستطني الشجر كله ، فما كان من الدلال إلا أن تمم ما يريده الحطاطي وكتب في دفتره الأموال وقيمتها دينا على الحطاطي حتى نهاية الموسم .

في تلك السنة والسنوات التي تلتها كان الحطاطي يشتري ثمر الليمون ثم يقطفه ويجففه في الشمس ثم يخزنه في جواني الخيش ويصبر حتى الشتاء ثم يهبط به إلى السوق ليبيع الجونية الواحدة بأضعاف ثمن الشجر الذي استطناه .

كانت أسماء تخطط له ما يفعل وما عليه سوى تنفيذ كل طلباتها محبة منه لها واحتراما لرأيها ورجاحة عقلها ، وعندما يعود من بيع الثمار يعطيها النقود كاملة لتحفظها في سحارتها لوقت الحاجة .

خرج ناصر من بيته قاصدا الدرب صوب منبع الفلج ، مشى مع النخل حتى خرج من بستان الرهينة ، تبع مجرى الفلج حتى نهاية الجابية الطويلة صعد بعدها الدرب الجبليّ ناحية رفاقه الذين كانوا قد ملّوا من انتظاره ، كانت رائحة العسل ما زالت تتردد في قمة رأسه ، وهو يتذكر لمعة النشوة في عيني إمرأته وهي تنظر إليه صامتة ، كانت ترتجي المزيد من الولع والجنون بل كانت تقول له خذ ما شئت من العسل .

وصل الحطاطي إلى بطن وادي النمارات، وفي الفج الطويل المظلل بسبب غورانه عميقا في الأرض، جلس يستريح من تعب الهبوط، كان المكان قاحلا إلا من برك آسنة قد تغير لونها وفاحت رائحة الطحالب منها، تذكر كيف كان يمر من هناك متشبثا بالجبل حتى لا يقع في برك الماء العميقة، فهذا المكان في وقت الخصب يسد الطريق على المارة، يتجمع فيه الماء الزلال هابطا من الأعالي متدفقا وقد ملأ تلك الأحواض الصخرية المنحوتة في صفا الوادي.

هبّت نسمات خفيفة فلطفت وجهه وأخذت شيئا من تعبه، راقب الوقت في ساعة يده، إنها حوالي التاسعة والنصف، وعليه أن يمشي متتبعا الوادي صعودا، باحثا عن موارد ماء قريبة، وبرغم أن المحل قد أخذ كل ماء الوديان، إلا أن ناصر بن سالم الحطاطي يدرك بأن هناك أمكنة يبقى الماء يتدفق فيها بين الحجارة ، سلسال ضئيل ولكنه دائم، يكفي كي يشرب منه مسافر عطش ، أو حيوان جبلي.

في ملتقى الوديان هناك حيث يلتقي وادي وعلة بوادي النمارات قرر أن ينحرف يمينا داخلا إلى وادي وعلة ، يتذكر ينبوعا صغيرا يسيل بالقرب من نخلة صغيرة على جانب الوادي، قال في نفسه:

- لو كان هناك مسقّي ، كان بيشلّه حاله.

وصل إلى المكان، راقب الينبوع وقد رطّب الصخر بماءه الضئيل، دقق كثيرا ربما يلمح نحلة ترقص على المكان الرطب، لم يلحظ شيئا ، لم يشأ أن يقترب كثيرا حتى لا يجفل النحل منه ويهرب ، زحف ببطء مقتربا حتى اندس خلف صخرة كبيرة يرقب من فوقها الماء ، لا شيء

يطنّ هناك ، ولا حتى من دبابير الجبل الحمراء التي تطارد النحل شيئا ، تيقن بأنهم يبحثون في المكان الخطأ، لقد أخطأ سعيد بن حمد في معرفة المكان، لا شيء في هذه القمة أبدا، قال محدثا نفسه ولكنه في ذات الوقت غير متأكد، ربما يكون هناك مكان آخر في القرب يشرب منه النحل.

عليه أن يعود ثانية إلى عقبة النخلة، سوف يهبط الوادي حتى يلتقي مع الوادي الكبير ثم يذهب صعودا حتى مكان مقيله، اقترب من الينبوع ليبلل بمائه القليل حلقه الجاف، كان الماء يتجمع في حقلة صغيرة أشبه بإناء يملأ ثلاثة أكواب، أزاح بيده طبقة الطحلب الخفيفة التي غطت سطحه، وضع كفيه معا وأخذ حفنة من الماء ورشفها ، أخذ أخرى ودلقها في فمه، شعر بعذوبة الماء وبرودته تسريان في حلقه حتى تهبط في الجوف ، أخذ كفأ آخر وشربه ، بقي القليل من الماء في الحقلة ، جمّعه في كفيّه ورشق به وجهه.

في تلك اللحظة سمع طنينا ما ، أو كأنه خيل له بأن طنينا التقطته أذناه، أصاخ السمع خفت الطنين ثم عاد مرة أخرى، تلفت يمينا ويسرة باحثا عن سبب ذلك الصوت، توقف الطنين فجأة، تسمّر الحطاطي مثل صخرة جبلية، فلقد التقطت عيناه نحلة تقف بالقرب منه مستغرقة في الشرب.

شعر بأن نفسه قد انقطع، وبأن أصوات الكائنات الأخرى كلها قد صمتت ولم يبق إلا الخرير الضئيل ودقات قلبه .

كانت النحلة هناك أخيرا، كان سيعود أدراجه بعد أن تيقن بأن المكان خال تماما من النحل، لكن ترى من أين جاءت هذه النحلة ، فكر مليا ، ربما أحد الرفاق هناك الآن عند عقبة النخلة بالقرب من المسقّي لذلك انقطع من هناك وجاءت النحلة لتشرب من هنا، إذن هذا المكان للحالات الطارئة، ابتسم الحطاطي معجبا بذكاء النحل الجبليّ.

النحل الجبليّ، النحل البريّ أو ما يسمى إصطلاحا أبو طويق كما جرت العادة، هذا النوع من النحل الذي لم يستطع الإنسان تدجينه وتربيته في مناحل مثل النحل الآخر، والذي كان يطلق عليه أهل القرى النحل الفارسيّ ، أو النحل الخارجي، وهو أيضا يتواجد أحيانا في الجبال ولقد صادف الحطاطي أكثر من مرة مسقّيا له وبحث عنه فوجده في أحد الكهوف.

لقد انتشر في الآونة الأخيرة في الجبال في الوقت الذي صار العسل البرّي أو أبو طويق من الندرة حيث لا يجد الحطاطي إلا خلية أو خليتين في الموسم الواحد وربما بعد التعب الكبير في البحث يكون خاو بلا عسل.

لكنه عندما دخل خبّ الغافة قبل سنتين هو ورفاقه ووجدوا العسل الفارسيّ كان قد بنى خليته في كهف كبير لكن فتحته كانت ضيقة جدا ولا يمكن أن يدخل منها سوى النحل، عاد عزان بن سعيد إلى القرية وأحضر عدة فلق الجبل، مطرقة كبيرة ومسمارا ولم ينس إحضار صندوق صغير من صناديق منحله والذي يتسع لخمسة إطارات، كان ينوي نقل الخلية من هناك بعد أن يأخذون عسلها ويربيها في منحله.

تناوب الرفاق على فتح الكهف وتوسيع فتحته، ولكي يتقوا لسع النحل أشعلوا بالقرب نارا صغيرة ثم وجهوا دخانها على مدخل الخلية فانزاح النحل داخلا هربا من الدخان، استمروا يطرقون الجبل ويهدمون فتحة الكهف حتى ظهرت لهم الخلية وقد بنت أطواقها بجانب بعضها بعضا

خمسة عشرة طوقا، كل طوق مليء بالعسل المختوم بالشمع، وكلما أخرجوا طوقا أخذه عزان وفحصه باحثا عن الملكة حتى وجدها ، فما كان منه إلا أن وضع الطوق الذي به الملكة بعد أن قطع مكان العسل منه ثم بدأ يضع الأطواق الأخرى بنحلها في داخل الصندوق.

كان قد اقتطع الكثير من زور النخل الأخضر والذي كان يربط به الأطواق ويسندها داخل المنحلة، كان الثلاثة يعملون وكأنهم خلية نحل، فسعيد بن حمد كان يقتطع بسكينه الأطواق من الكهف ثم يخرجها فيعطيها للحطاطي، ومن ثم يستخلص العسل منها ويسلم الطوق لعزان الذي يربط الطوق ويثبته داخل المنحلة.

بعد إن انتهوا من استخلاص العسل من الخلية، وضع عزان بن سعيد الصندوق أمام الكهف بعد أن احكم غطاءه، كانت الصعوبة دائما في الحصول على النحل لأنه عندما يشم رائحة الدخان يهرب إلى بطن الكهف ، وعادة ما تكون الكهوف اسطوانية وضيقة لا يمكن أن تصل اليد إلى آخرها ، لكن العثور على الملكة مهم جدا في المقام الأول للحصول على خلية نحل وتسكينها داخل صندوق المنحلة ، بعد ذلك سوف يتبعها النحل جميعه ، سوف يشم رائحتها وينتقل من الكهف ليستقر معها ، لذلك ترك عزان الصندوق هناك ليوم كامل، وفي اليوم التالي جاء فوجد كل النحل قد دخل فيه وقد هجر الكهف ، لقد نجح في عملية تسكينه، وعندما غادروا المكان أخذوا الصندوق معهم إلى القرية.

لقد فازوا بالعسل الوفير بينما فاز عزان بخلية رائعة من النحل المحليّ الهادىء والجمّاع للعسل.

كان العثور على العسل الفارسيّ ضربا من الصدف والحظ، فهو يبنيه في أماكن شديدة الإرتفاع وشديدة الخطورة، ينتقي الكهوف المغلقة تماما والموجودة على السفوح السحيقة، وكان النحالون يبحثون عنه لأيام كثيرة أملا في العثور عليه، وفي الوقت الذي يجني النحال من العسل البريّ غرشة أو غرشتين، يعطيه العسل الفارسيّ ما بين عشرة إلى عشرين غرشة.

لم يكن هذا النوع من النحل موجودا في عمان، ولقد أحضر أيام حكم اليعاربة من بلاد فارس، وعملوا على توطينه في قرى الرستاق ووادي بني عوف، الذين حفروا له بيوتا في جذوع النخل، ثم تكاثر هناك معهم، أولئك الذين ورّثوا الأجيال القادمة تربية النحل الفارسيّ، هذا ما سمعه الحطاطي من الشايب سالم بن علي الذي قضى ردحا من الزمن في تلك البلاد.

ما يعرفه الحطاطي من خلال معيشته في الجبال ومداومته في البحث عن العسل بأن النحل الفارسيّ لا يكون لديه مقدار الحذر عندما يذهب إلى الشرب، فحذره في اختياره لبيوته في الأماكن المنيعة فقط، ولكم عاد الكثير من الناس عاجزين من الوصول لبيوته، فهي لا يمكن الوصول إليها صعودا ولا هبوطا، ولقد خاطر البعض بالهبوط بالحبال ولكنهم عندما وصلوا إلى مكان الخلية وجدوا من المستحيل كسر وتوسيع فتحة الكهف.

عيناه تراقبان النحلة المستغرقة في الشرب، الضوء ما زال باكرا ويستطيع أن يراها أين تذهب، طال انتظاره وأشرق أمله في الحصول على دربها أولا ثم على مكانها تاليا، تململت في مكانها، تحركت ومشت قليلا ثم توقفت، راقبها تطير إلى الغرب، ثم عادت متجهة صوب الشرق، كانت تشق طريقا لولبيا وهو يتتبعها واضعا يده أعلى عينيه لكي يمنع أشعة الشمس من الحيلولة دون رؤيتها.

يعرف الحطاطي ذلك جيدا، يعرف أنه من الصعوبة في الفجاج العميقة أن يشق النحل طريقا مستقيما من موضع الشرب صاعدا نحو القمة، لذلك فعليه أن يتتبع ذلك الدرب اللولبي الذي يريحه في الإرتفاع حتى يوازي المكان الذي بنى فيه خليته، ولكن أيضا يعرف أن هذا السلوك لا يكون إلا عندما تكون الخلية في القمة، وهذا يعطيه أملا بأن لا يبحث في المنحدرات وأن يتجه مباشرة صوب القمم.

جلس مترقبا أن تأتي نحلة أخرى ليتأكد من اتجاهها، انتظر كثيرا حتى باتت الشمس تأكل انتظاره وجسده، قام من مكانه وسلك الوادي ذاهبا إلى حيث مقيله ورفاقه .

سعيد بن حمد الطويل وصاحب البنية الجسدية المصقولة، والذي ما يزال يحافظ على رشاقته بصعود الجبال في أي وقت من السنة، صاحب الحكاية المشهورة في القرية في البحث عن العسل، والتي صارت وسما خاصا ومتداولا بعد ذلك.

كان لسعيد بن حمد حمارا يستعين به في حمل بعض أشيائه بين الجبال، خصوصا إلى مزرعته التي لم تكن السيارة تصل إليها ، وكان من عادته أن يأخذ حماره ويتركه في الوديان البعيدة يرعى من العشب ونباتات الحلف، يتركه هناك لأسابيع وربما لأشهر ثم يتتبعه باحثا عن أثره حتى يجده، وكان الحمار عادة لا يذهب بعيدا عن المكان الذي يتركه فيه.

بعد المنع الحكومي لصيد الوعول والحيوانات البرية صار الكثير من القناصين والنحّالين يتوجسون من إخبار الناس في القرية عن رحلاتهم الجبلية حتى لا تُحمل عنهم وشاية ما، لذلك بدؤوا يذهبون في الخفاء ويتكتمون على وجودهم، حتى أن أسرهم كانت تقول عنهم بأنهم ذهبوا إلى أماكن أخرى كالعاصمة أو أسواق البلدان الأخرى.

يعتقد سعيد أيضا وهو المتوجس دائما من الناس، أن الإنسان السيء الظن هو ذلك الإنسان الذي يقي نفسه من الوقوع في مشاكل الناس، فالناس في نظره بين حاسد لا يحب الخير لك ، وبين عدو يظهر لك اللطف ويأكلك من وراءك، ولكم حاول الحطاطي ثني هذه الفكرة من رأسه، إلا أنه اقتنع أخيرا بسهولة تحريك جبل كبير من مكانه ولا تغيير أفكار ود حمد، وعندما قال له:

- نبغى نعرف كيف صورتنا فداخلك؟

رد عليه وكان يجرب منظاره في رؤية بقعة بيضاء في جبل بعيد ودون أن يلتفت ناحيته :

- عندك دونك.

جوابه لم يعجب به الحطاطي لذلك قام يريد أن يترك المكان إلا أنه سحبه من طرف إزاره وقد كاد أن ينحسر من شدة قبضته، التفت ناحيته مبتسما وهو يقول له :

- إلا الحطاطي.

قال له وهو بين المزاح والغضب :

- إقلب بوجهك

فضحك الإثنان .

وقبل أن نخبركم بقصة سعيد التي صارت وسما في القرية سوف نذكر كيف بدأت قصة توقه للجبال وحبه في البحث عن العسل وكيف صار بعد ذلك ما من قمة إلا وقد ارتقاها وما من واد إلا ويعرف أين يفضي وفي أية جهة رأسه البعيد .

ذات مساء وهو ابن الحادية عشرة طارد طائر عقعقٍ ببندقيته الهوائية، وكان العقعق يطير من تل إلى آخر، يقف بالقرب ولكن ليس في متناول بندقيته، ولا يبتعد كثيرا حتى يجعل له أملا في مطاردته، خاتل الطائر حتى إذا اقترب منه طار وحط في مكان آخر، ليبدأ في مخاتلته ثانية، ولم

يشعر إلا وقد خرج من القرية ناحية عتّاب، وفي الأخير حط العقعق أعلى غار صغير وعندما اقترب منه طار بعدها بعيدا ولم يتوقف كعادته بل حلق حتى اختفى بين الجبال.

وقف وقد ملأته الخيبة وانحسر أمله وكاد أن يعود أدراجه عازما أن لا يطارد عقعقا بعد ذلك، غير أنه لاحظ النحل يدخل ويخرج من الغار، فقرر اكتشافه ومعرفة ما به، وكانت تلك أول مرة يعثر فيها بنفسه على خلية نحل، اقترب من الغار ورأى الخلية متعلقة وقد ملأت الغار تماما.

ومن الفرح ركض عائدا إلى البيت وأخبر أباه الذي ذهب معه في مساء اليوم التالي ولكنه ظل الطريق ولم يعثر على الغار.

غضب عليه والده ظنا منه بأنه يتوهم وبأنه لم يعثر على شيء، لكنه كان متأكدا، وبعد أن هدأ أبوه من ملامته حاول التركيز وإعادة شريط ذاكرته وأين كان يتتبع العقعق ، مشى متتبعا الدرب مرة أخرى صاعدا تلة إلى تلة وأبوه يصرخ به أن يعود، كان اليأس قد وصل بأبيه ولكنه وقف أخيرا على الغار ونادى أباه.

لأول مرة يرى كيف يستخلص العسل من الخلية، وعلى الرغم من أنه عثر أخيرا على العسل إلا أن ملامة والده كانت تعمل طوال الدرب حتى وصلا إلى البيت.

بدأ العشق مثل بذرة صغيرة سقطت فجأة وبللتها قطرات مطر خفيف، عشق العثور على العسل، عشق البحث لا لحاجة ولكن لتوق البحث ذاته في العثور على خلية متوحشة عاد الجميع متعبين وعاجزين عنها.

وفي الرابعة عشرة عندما ذهب وابن عمه حمود إلى ردة الروغ ، وكانت جوابي الردة مليئة بالصد ، ذهبا ليصطادا، وكان عليهما أن يأخذا بعضا من شجر العيطمان .

في تلك السنة كان الخصب قد ضرب الجبل ، أخضرت الأشجار وتفتحت زهور الأعشاب ، وعندما أخبر والدته عن نية الذهاب قالت لهما :

- إذا باغيين صد روحوا شراج سعادوه وشلوا عيطمان .

أخذا الكثير من العيطمان ، أخذا قدر المستطاع وتوجها إلى ردة الروغ ، تركا الزاد تحت الغافة وبدئا في دق أغصان العيطمان في مجاري الماء أعلى الجوابي ، لقد أختارا التي بها صد كثير ، وما هي إلا دقائق حتى طفا الصد على صفحة الماء دائخا .

لملما السمك ووضعاه في حقلة صغيرة من الماء ، كان مفعول العيطمان رائعا، فهو يُسكر سمك الصد ويجعله يطفوا دائخا، لقد اصطادا الكثير ذلك اليوم وصنعا ما يقارب الخمسين من لفائف الخوص التي ملئاها بالصد ثم وضعا اللفائف على الجمر .

بعد الظهيرة عثر حمود على مسقّي نحل في الوادي غرب الغافة ، كان سعيد نائما في قيلولة الظهيرة ، حاول أن يعرف اتجاه النحل ، رآه يتجه غربا ، جاء وأيقظ صاحبه قائلا :

- قوم ، لقيت مسقّي تعال ندوره .

بحثا عنه قليلا ولم يجداه ، كانا متعبين من عمل الصباح ، وعليهما أن يعودا قبل غروب الشمس ، لملما الشواء في قفير من الخوص وذهبا ، وفي المساء أخبر سعيدا أباه عن مكان المسقّي ، فسأله :

- هين يتوجه ؟
- صوب الغرب من الغافة .
- العسل عندكم في شقّ على الشرق .

صباح اليوم التالي عادا للمكان مبكرا ، اتجها مباشرة حيث وصف أبوه ذلك الشق ووجدا العسل فيه ، كان حمود أخبر منه في قطع العسل وكان يراقبه ويساعده .

عندما عادا سأل والده كيف عرف مكان العسل وهو هنا في البيت فأخبره بأنه وجد منذ سنين طويلة نفس المسقّي وفي نفس المكان ويذهب به إلى الغرب أيضا فوجده هناك في ذلك الشق ، وقال له :

- المكان بو تقص منه العسل يرجع النحل ويبني فيه مرة ثانية.

بعد تلك الرحلة عرف أن كثيرا من مقالع العسل المنتشرة في الجبال ، كان يعثر على بعضها بالصدفة في وقت البحث ، وكان يستدل عن بعضها من الآخرين .

كانت الوديان مليئة بالعسل ، أينما توجهت ستجد ، وفي الوقت الذي يبحث فيه الناس قريبا من تخوم القرية كان سعيد يذهب بعيدا إلى رؤوس الوديان حيث يذهب القناصون ، هناك يجد الكثير من الخلايا التي تكون مختومة بالعسل الوفير .

ذات يوم وكان قد صلى الفجر جماعة في المسجد ، أخذ قليلا من التمر في الهبّان الذي يجني فيه العسل ثم توجه ناحية الجبال ، قصد دكان خمّاس ومنه صعد عقبة الرفاص ، ثم مشى في الحد الفاصل بين وادي ياء ووادي قعبت ، وصعد منه إلى وادي الريّان ثم هبط إلى شغف الحبّاسة وتوجه صوب وادي صريد ، وجد الكثير من مسقّي العسل هناك ، بحث عن بعضها ووجده ، ملأ الهبّان بالعسل وعاد مسرعا إلى البيت قاصدا ذات الدرب التي ذهب منها ، وصل مع آذان الضهر ، علق الهبّان في البيت وصلى الضهر معهم ، سأله عمّه خلفان :

- هين رحت اليوم .
- وصلت وادي صريد ، لقيت مساقي ، دورت عليهن ولقيتهن ، وجيت تارس الهبّان .

صرخ عمه محمد:

- تكذب .. تكذب .

سكت ولم يرد عليه ، فقط ابتسم ، لكن العم خلفان أحال رأسه ناحية العم محمد قائلا له :

- لا ما يكذب ، هذا شباب ، والشباب يقدر .

استشاط عمه محمد غضبا وهو يقول :

- شباب ؟ يوصل وادي صريد فلحظة ، ويلقى مسقي عسل ويدور عليه ويقلعه ويرجع ويصلي معنا الضهر؟ من يصدق هذا ، إلا إذا كان يطير .

ضحك الجميع من كلام العم محمد ، ومن يومها وهم يصفونه بأنه يطير وراء ذبابة العسل .

يتذكر مرة كان ذاهبا إلى الوديان البعيدة ، كانت البقاع كلها ممحلة ، لكنه كان إذا وجد عسلا يلقاه ممتلأ عن آخره ، لدرجة أن الأواني التي معه فاضت، وكان قد صنع قربة كبيرة تأخذ ما يتراوح وخمسة منان كاملة ، وكان كلما جنى واحدا ونظفه من الشمع سكبه في القربة حتى امتلأت عن آخرها ، وكان لديه سعن صغيرللماء ، اضطر أن يملأه أيضا بالعسل وعلقهما على أغصان اللثبة في منزلة بنت سعد .

جاءت امرأتان كن يبحثن عن حشائش الحلف لأبقارهن ، فوجدن القربة والسعن معلقين ، صاحت إحداهما بأختها :

- ياالله .. ماي بارد .

فتحت فم القربة بلهفة ، وبدلا من أن يندلق في فمها ماء سال العسل ، صرخت:

- هذا عسل .

فتحت أختها فم السعن واندلق العسل إلى كفها ، كانتا عطشتين ، لم تهتما بالعسل ، لم يكن بهما جوع عسل في ذلك الوقت ، كانتا تريدان ماءاً باردا فقط .

في أحيان كثيرة يغير وجهته إلى البحث في هضبة الجبل الأبيض ، لكن عسل الجبل الأبيض لا يحتاج البحث عنه إلى المساقي ، لا ماء في الجبل الأبيض أبدا ، إلا النزر القليل قريبا من القمة ، البحث هناك فقط بين الحجارة والأشجار ، بدون جهة ، أو إذا كنت قد عهدت مقالع قديمة للنحل فتمر عليها لترى هل عاد النحل إليها .

عسل الجبل الأبيض عجيب ، يكفي من خلية واحدة أن تملأ قربة كاملة ، وكان يبحث عن الخلايا ويعلّم مكانها ثم يعود لجنيها واحدة واحدة .

ذات يوم وهو يصعد الجبل باحثا بين صخوره العظيمة ، سمع تعويب شاوية في إحدى المنحدرات ، كانت ترعى أغنامها ، لم يكن يراها من موقعه ، بينما كانت تراقبه من ذلك الارتفاع ، صعد باحثا بين الصخور والأشجار ، كانت الشاوية تزيد من حدة صوتها حتى يصل إليه ظنا منها أنه سيعود من حيث أتى لو سمعها أو يغير وجهته ، لم تكن تعويباتها تهمه كان كل تركيزه في البحث عن العسل .

سكتت الشاوية عن التعويب ، اختفى صوتها تماما من القمة ، لا يعرف أين ذهبت ، ربما نزلت أحد الوديان واستكانت إلى الظل مع أغنامها ، ربما رحلت إلى مكان آخر ، كل شيء جائز، صعد إلى فوق قافزا من صخرة إلى أخرى ، كانت زهور السمر قد تفتحت متأخرة في الأعالي ، حيث الهواء البارد يجعلها تتأخر عن موسمها ، وكانت رائحة البرم تعبق في أرجاء المكان ، وعندما

وصل بالقرب من صخرة بيضاء كبيرة شاهد النحل منتفشا يحوم حول الصخرة ، أدرك حينها بأن أحدهم قد جنى العسل الموجود هناك .

لقد كانت الشاوية هي من قطفت العسل ، لقد رأته يصعد فخافت أن يقطف العسل قبلها و أخذت العسل في لحاف رأسها فسال من بين ثناياه ، وكانت كلما مشت سال العسل ونزلت قطراته على الحجارة ، تتبع تلك القطرات ، مشى كثيرا حتى انقطعت القطرات ، وجدها هناك مستكينة إلى الظل حزينة وغاضبة ، عيناها كانتا محمرتين من البكاء ، رأى لحافها ملقى على الأرض بجانبها ، ضحك ولم يستطع كتمان ضحكته ، قالت له وهي ترمقه بعين غضب :

- كله منك .

أخبرته بحكايتها وكيف أنها خافت أن يأخذ العسل عنها ، قال لها :

- لكنك ضيّعتي العسل

ردت عليه :

- أضيعه بيديني ولا يضيع فيدين الغريب .

في السابعة عشرة من عمره ارتبط كثيرا بالجبال، كثرت رحلاته في موسم جني العسل، كان يذهب مع أخيه سيف، اتخذا من خب الغافة ووادي قعبت مكانا يبحثان فيه.

بدأ البحث من وادي الغيبر، لقد عثرا على مسقّي العسل بعد جابية بو صروله، كان الماء ينبع من تحت حجارة كبيرة في ذلك الوقت من الصباح الباكر، ولقد وضعا حقائبهما في الظل بالقرب من الماء وصعدا الجبل باحثين عن الخلية فلم يجداها، وعندما شعرا بالجوع نزلا ليأكلا بعض الطعام، جلسا في الظل هناك تماما وعلى مقربة ذراع كانت خلية العسل تتدلى من صخرة ملساء كبيرة.

كانت تلك بداية رحلاتهما التي تتالت كل اسبوع على مدى شهري مايو ويونيو في عام ١٩٩١، ولم يكن قد طرق المكان غيرهما تلك السنة ، بحثا كثيرا، كانا ينتقيان وادٍ ويدخلاه ولا يغادرانه إلى آخر حتى يجنيان ما به من عسل، وعندما ينتهي الزاد يعودان إلى البيت ويقضيان يوما أو يومين للراحة ثم يذهبان مرة أخرى.

إن علاقته بخب الغافة ليست علاقة مكان يبحث فيه عن عسل فقط، بل أن روحه قد تعلقت به وكأنه وجد مرتعا ظل يبحث عنه، أو كأنه انفلق ذات يوم من خبّ الغافة شجرة أو بذرة وها هو يعود إلى اليه.

مرة قرر حمل البندقية معه، قال ربما سيجد طائرا أو حيوانا جبليا يأكلانه، وبعد أن قضى نهاره مع أخيه في البحث الدؤوب عن العسل، قرر في الساعة الثالثة أن يستكشف المكان، أخذ بندقيته واتجه صاعدا مع الوادي.

مشى كثيرا دون أن يشعر، قطع مسافات طويلة وهو يأمل أن يجد ما يصطاده، انحدرت الشمس ناحية الغرب وتمددت الظلال، ثم سمع ثغاء أغنام يجيء من إحدى القمم، وقف يبحث عنها، رفع منظاره المقرب ورآها تصعد الجبل.

في بعض الأحيان تهرب الأغنام من البيوت وتهرب إلى قمم الجبال العالية، تبقى هناك ولا تعود، تصير مع الوقت كائنات متوحشة مثلها مثل الوعول تماما، تتوجس وتخاف من البشر، وبالتالي يفقد أصحابها الأمل في عودتها أو في الإمساك بها، حتى تصبح غير مملوكة لأحد، وهو يدرك ذلك، يدرك بأن في هذا الوقت من العام يذهب الشواوي من هذه الوديان بقطيعهم إلى أماكن أكثر عشبا، تاركين المكان كي يعودوا إليه بعد زمن، هناك حيث منازلهم تحت أشجار السمر عند وادي الغيبر أو في ردة الروغ ومنزلة بنت سعد، تبقى آثارهم ومواقدهم في انتظارهم حتى يعودون إليها مرة أخرى.

لم تكن تلك الأغنام لأحد الشواوي، فهو يعرف جيدا أغنامهم، يدرك هدوءها وأنسها، وإن كانت لهم حقا لكانت في ذلك الوقت قريبا من حظائرها، فهو أيضا يعرف بأن أغنام الشواوي تعود قبيل الغروب إلى الحظائر لتجد الشاوي هناك في انتظارها مقدما لها التمر الجاف.

لذا قرر أن يصطاد إحدى تلك الأغنام وقد سيطرت عليه فكرة أنها ليست لأحد وأنه يحق له مطاردتها واصطيادها، فتبعها وقد حث خطواته يسبقها قبل أن تصعد القمة، حتى أنه ركض مسافة طويلة ووصل بالقرب منها لاهثا.

حدث صمت عجيب، صمت لم يسمع فيه ثغاءها، لا يعرف أين ذهبت ولا كيف اختفت عنه، وقف منصتا في ذلك الصمت ربما يسمع صوت حوافرها في الجبل، أو يصل إليه صوت تساقط الحجارة الصغيرة من تحت أقدامها ولكن لا شيء من ذلك حدث.

كاد المكان أن يظلم، والمسافة بينه وبين أخيه صارت بعيدة، وفي الوقت الذي قرر فيه العودة سمع ثغاء أحد الصغار بالقرب منه على المنحدر، ركض ناحيته ووقف قريبا، وجه بندقيته صوبه وأطلق النار فسقط الصغير بعد أن صرخ صرخة كبيرة تردد صداها في الوادي، قام الصغير جافلا من سقطته وتسلق الجبل، رفع بندقيته ثانية صوبه وأطلق النار فسقط الجدي.

ركض صوبه ، جرّ سكينا من حزامه ثم ذبحه، حاول أن يحمله ولكنه لم يستطع، أصابه الارتباك ولم يعرف ماذا يفعل، فالشمس قد غربت، ترك الجدي مكانه وذهب مسرعا عائدا وقد قرر الاستعانة بأخيه في حمل القنيصة، قضى زمنا حتى وصل إلى حيث ينتظره أخوه، وجده يعد المكان للمبيت، أخبره بما حدث وعادا مسرعين قبل أن يبتلع الظلام الوديان.

وصلا إلى مكان القنيصة، لقد نسي أن ينزلها من المنحدر إلى الوادي لذلك ومع ظلمة الليل بحثا عنها في المنحد ولم يعثرا عليها، كان لديهما مصباحا واحدا ولكن بطارياته قد بدأت تضعف شيئا فشيئا ولم يعد يستشكف المكان بكفاءه، وبعد تعب وارهاق عادا تاركين المكان دون أن يعثرا على القنيصة.

سارا في الوادي عائدين في الظلمة الحالكة، ضوء المصباح ضئيل جدا وأحيانا يخفت ويموت ضوءه، قررا استخدامه فقط في الأماكن الضيقة وبعد أن دخلا وادي خب الغافة، كان فحيح الأفاعي بالقرب من البرك يوقف شعر رأسيهما من الخوف والرهبة، وفوق هذا كان المصباح يموت حتى أنهما قد فقدا الثقة في وصولهما إلى مكان المبيت.

وصلا حوالي الساعة التاسعة والنصف ليلا، كانا متعبين جدا لذلك لم يطبخا عشاءهما بل ناما طويلا ولم يستيقظا حتى لفحهما ضوء الشمس في صباح اليوم التالي.

بعد أن تناولا قهوة الصباح عادا إلى المكان باحثين مرة أخرى عن الجدي، وجداه وقد انتفخت جثته وبدأت رائحة الموت تفوح منه، لم يعد ينفعهما بشيء، ولكن لا يمكن أن يتركاه هكذا في المنحدر فيمر عليه أحد العسّالين ويشي بهما، لذا قررا إخفاءه.

ولكن المكان صخري ولا يمكن أن يحفران فيه، ولقد هداهما التفكير إلى رجمه بالحجارة الكبيرة ، فجمّعا ما استطاعا من حجارة وكوماها فوقه حتى اختفت جثة الجدي تقريبا.

في هبوطهما من المنحدر شاهدا رجلا هو وأولاده يمشيان في الوادي هبوطا ناحية منزلة بنت سعد، كانت آثار دم الذبيحة قد بقّعت حذاء سعيد بن حمد، وكان خائفا من أن يلتقي الرجل ويسأله عن سبب تلك البقع، لذلك عندما وصل إلى الوادي بدأ يفرك البقع بالماء مخفيا اياها وقد استطاع ذلك إلا من بعضها والتي لم تكن واضحة كثيرا.

كان الرجل أحد معارفهم من قرية نقصي، وفي عودتهما التقيا بالرجل وأولاده وقد استراحوا تحت السدرة الكبيرة في ملتقى وادي النمارات بالوادي الكبير، جلسا قليلا معهم وشربا القهوة والماء من مطاراتهم، سألهم الرجل عن العسل فأجاباه إجابات مقتضبة.

كان رجلا في السبعين من عمره ولكن ما زال بكامل صحته وقدرته في صعود الجبال، كان يود أن يحكي لهما عن حياته التي قضاها هناك وكيف انه التقى بوالدهما حتى صارت صداقة وطيدة بينهما، كان الرجل يسترسل في حكاياته ولكنهما كانا مستعجلين في الذهاب، لذلك قطع سيف عليه درب أحاديثه واستأذنه في مغادرة المكان إلى خب الغافة.

بين رحلة تستمر إلى اسبوع وأخرى ليومين إو ثلاثة أيام كان سعيد بن حمد وأخيه سيف يذهبان إلى الوديان البعيدة مرة عن طريق اتباع مجرى الوادي ومرة أخرى عن طريق الطرق الجبلية المختصرة، وبالرغم من مشقة الصعود إلى الطرق الجبلية إلا أنهما كانا يفضلانها للوقت الذي يكتسبانه حتى يصلا المكان المنشود.

حتى يصل سعيد بن حمد إلى خب الغافة مكانه الأجمل أصبح يسلك عقبة سام والتي تفضي به مباشرة إلى مكان قريب من خب الغافة، ولكنه يحتاج إلى أن يذهب بسيارته ويتركها في قرية بعد ، ثم يدخل وادي سام ويصعد بعدها العقبة، التي سيكلفه صعودها ساعة ونصف فقط، ثم سينزل إلى الوادي من الجهة الأخرى.

لقد سمع عن عقبة سام من قبل ولكنه لم يطرقها، وقبلها صعد عقبة الرفاص، ونزل منها إلى وادي الجريف ومنه إلى خب الغافة مباشرة، لكنه يحاول جاهدا البحث عن مكان آخر غير درب الرفاص لأن العقبة عالية جدا وشاقة وتأخذ كل طاقته حتى يصل إلى فوق.

هو يعتقد بأن الدرب ينتهي بمجرد صعود العقبة بالرغم أنه لم يصل بعد إلى خب الغافة، ذلك لأن الدرب المتبقي سهل وقصير، فهو سيمشي في الحد الفاصل بين وادي ياء ووادي قعبت متنقلا بين القمم .

لقد جرب صعود عقبة الرفاص مرات عديدة ولكنه عندما اكتشف درب عقبة سام استسهلها ووجدها قريبة.

الفرق بينهما أنه لا يحتاج إلى تحريك سيارته كلما قصد عقبة الرفاص، بينما العقبة الأخرى لابد له أن يأخذ سيارته إلى بعد، وبعد تبعد عن بيته ما يقرب سبعة كيلومترات، وكان أحيانا يطلب من

أحدهم توصيله إلى هناك أو أنه يستقل سيارته، وهو يفضل دائما من يوصله وينزله هناك حتى لا تبقى سيارته في وادي سام وبالتالي سيعرف الناس أنه ذهب إلى الجبال.

المتعة التي يجدها في طريق الرفاص أيضا مختلفة، فما إن يصعد تلك العقبة العالية حتى تصير الوديان كلها على مرمى نظره، يرى من الأعالي القرى البعيدة ويستشرف الوديان والمنحدرات، بل يعجبه أكثر ذلك الهواء اللطيف حين يحمل عن كاهله كل ذلك النصب الذي لاقاه في صعوده، وهو المتأمل الذي يحب أن يرقب تفاصيل الأشياء من حوله، فالجبال بكل تكوناتها واختلاف ألوانها، المدى الواسع ومجرات الجبال التي تتكاثر في كل اتجاه، القيعان والمنحدرات، القرى البعيدة والدروب، وأيضا أن يصغي للأصوات تأتي إلى مسمعه من الأقاصي، لكم تمنى أن يطول به المكوث هناك متماهيا مع ذلك العالم.

عندما صعد جبل الريان في مساء أحد الأيام باحثا عن خلية عسل كانت تشرب من فجّ عميق في الأسفل، حيث كان النحل العائد إلى بيته يشق طريقا لولبيا من شدة الارتفاع، ولقد حاول بشتى الطرق معرفة اتجاهه حتى ترصد له في أعلى الفجّ ليرى هل يستطيع اقتناص ولو نحلة واحدة بمنظاره المقرب.

لقد كان النحل يذهب في الاتجاه الغربي وهذا ما يستصعبه كل نحال لأسباب كثيرة منها سرعة انحدار الشمس ناحية الغرب بحيث لا وقت لانعكاس الضوء على أجنحة النحل، وفوق ذلك هبوب رياح المساء التي تشتت النحل أيضا من الذهاب في طريق مستقيم على عكس الصباح الباكر حيث السكون والهدوء الذي يفضله العسّال.

لكنه ترصد منذ الصباح هناك، واضعا منظاره على عينيه مركزا على الشق الكبير حيث اختفت النحلات الصاعدة وهو يرقبها من الأسفل، ظل قابعا مكانه لفترة طويلة حتى استطاع ملاحقة نحلتين حلقتا معا واتجهتا مباشرة صوب قمة جبل الريّان.

ذلك المساء عثر على الخلية وقد احتلت شجرة عسبق كبيرة على منحدر بالقرب من القمة، حاول أن يستخلص العسل بدون أن يجرح الشجرة ولكن دون فائدة، فشجرة العسبق ما إن يخدشها حتى يسيل ماؤها الحليبي اللزج الذي تختلط قطراته مع العسل.

هو يدرك تماما الصعوبة في قطف العسل من شجرة عسبق خصوصا عندما تكون الخلية بهذا الحجم الكبير الذي احتوت به كل أغصان الشجرة، لكنه بعد ذلك استطاع أن يحتال على أمر الخلايا التي تُبنى في العسبق بتقطيع أغصانها ووضع شريط بلاستيكي لاصق على القطع مانعا بذلك حليب الشجرة من السيلان.

حليب شجرة العسبق يصيبه بالحكة ويجعل يداه تلتصقان بسبب اللزوجة الكثيفة، وهو يعرف بأن كل قطرة تسقط على العسل سوف تصيب متناول ذلك العسل بالاسهال الشديد، وتفقد العسل جودته التي يتمنى أن لا تشوبها شائبه.

إن أسهل الجنى هو جني العسل المتعلق في غصن شجرة ما عدا شجرة العسبق، فهو كلما وجد خلية متعلقة في شجرة قفص أو هندبوب أو حتى زورة نخل فرح بذلك، لأنه لا يحتاج إلى جهد كبير حتى يخرج العسل ويعيد الخلية معلقة كما كانت بربطها مرة أخرى في ذات المكان.

إن ربط غصن بغصن سهل جدا، ولكن يحتاج إلى جهد لكي يثبّت الخلية مرة أخرى لو كانت في كهف أو صخرة، وبالتالي يبحث عن شجرة في الجوار ويقتطع منها غصنا سيشقه إلى نصفين

ويضع بينهما الطوق من جزئه الأعلى ثم يثبّت الغصن متعلقا إما فوق حجرين أو يصنع سجالا من غصنين آخرين حتى يثبته جيدا ويتأكد بأنه لن يقع مع أي هبة ريح .

في الماضي لم يكن يكترث لإعادة وتثبيت الطوق بعد أن يستخلص العسل منه، ولكن بعد ذلك أدرك إن من الأهمية إعادة الطوق كما كان سابقا وتركه مكانه والرجوع إليه بعد حين ليستخلص العسل منه مرة أخرى، وكانت عملية الإعادة تنجح بنسبة كبيرة، إلا أن العسل البريّ أحيانا لا يعجبه انتهاك حرمته فينتقل من مكانه باحثا عن مأوى جديد.

لنعد الآن بعد كل هذا ولنخبركم عن الوسم الذي اخترعه سعيد بن حمد للقرية، وكما هو معروف للناس هناك فسعيد بن حمد من عائلة احترفت صعود الجبال بحثا عن العسل، وكان كل من بالعائلة له ذكرياته وسيرته الجبلية وطرقه التي قد تتوافق أو تختلف من الآخرين، وكان سعيد يذهب إلى الجبال مثله مثل الآخرين تماما، حتى جاء ذلك الوقت الذي كثرت فيه الوشايات وخاف على نفسه أن يدل عليه البعض ويشي به عند الوالي بالرغم أنه لا يستعمل بندقيته إلا لصيد الثعالب أو الطيور الجبلية من حمام أو قطا، ولكن الحذر واجب كما يقول، فهو لا يعرف صديقه من عدوه، وإن الوشاية إن تصل إلى المعنيين بالأمر سوف يخفون من أوصلها ويبدؤون بالتحقق تدريجيا مما وصلهم من خبر، وقد يقع في مساءلة هو في غنى عنها تماما.

لذلك ترك حماره طويلا في الجبال حتى توحش، وأخبر كل من يعرفه بأن حماره قد غاب، وبدأ في رحلات البحث عن حماره الذي لم يعثر عليه.

اعتقد الناس في البداية بحقيقة قصة الحمار وصدقوه، وبعضهم عاتبه على إهماله في تركه الحمار مدة طويلة في الجبال حتى نسي استئناسه وصعد القمم مع حمير الجبل المتوحشة، وبعضهم رق لحاله وأصبح يبحث في الأمكنة التي يطرقها ربما لمح حمار سعيد بن حمد في مكان ما فيخبره، أما البعض الآخر فنصحه أن يكف عن البحث ويشتري حمارا آخر، لكن سعيد بن حمد أجابهم بأن قلبه لا يطاوعه لذلك.

في كل رحلة يذهب إليها سعيد بن حمد إلى الجبال باحثا عن العسل البريّ يقول للناس بأنه يبحث عن حماره، وكل من سأل عنه في بيته أُجيب بذلك، ولكن كل من يصادفه عائدا يراه وقد عاد بعسل وفير، ولقد صارت الحكاية مُلاكة جدا بعد زمن إذ اكتشف أمره ومرت السنين والأعوام وهو ما يزال يقول بأنه ذهب باحثا عن الحمار.

عرف أهل القرية بأن سعيد بن حمد خدعهم، ولكن تلك الخديعة قد تحولت إلى نكتة، فكل من يصادفه يسأله:

- لقيته حمارك ؟

فيجيبهم ضاحكا:

- قريب بلقاه .

ومن شيء كان يخص سعيد بن حمد وحماره حتى صار وسما لجميع من يذهبون للبحث عن العسل البريّ، فيقولون:

- رايحين ندور حمار سعيد بن حمد

وعندما يعودون يسألهم الناس :

- لقيتوه حمار سعيد بن حمد

فإذا وجدوه يجيبون بنعم ويقصدون العسل، أو يجيبون بلا وأحيانا كما كان يجيب سعيد سائله:

- قريب بنلقاه.

استمر هذا الوسم لسنوات طويلة حتى نسيه الناس وانشغلوا بحكايات وأخبار جديدة، وما عاد الآن يتطرق إليه أحد، إلا قليلا من ناحية التندر أو استعادة الذكرى.

كان فيما مضى كلما وجد سعيد بن حمد خلية نحل وكشف عن طوقها ليرى هل جمّعت شيئا من العسل، فإذا كان العسل مختوما وناضجا قطفه، وإلا فيقتطع بعض أعواد الحشائش ويتركها قريبا من الطوق ثم يضع فوقها حجارة، وكانت تلك دلالة على أن هذه الخلية قد وجدها أحد من قبل ولا يجوز قطفها من شخص آخر، كان ذلك عرفا بين العسّالين جميعا، وكائن من كان يعود برغم التعب الذي أصابه في البحث عن تلك الخلية إلا أن يده لا تطيعه في كسر ذلك العرف.

في السنوات الأخيرة انتهى ذلك العرف وتلاشى وصار الجميع لا يثقون بوضع العلامات، فقد لاحظوا بأن من يجيء بعدهم لا يكترثون للعلامة ويقطفون العسل حتى لو لم يكن به إلا النزر القليل.

يقول سعيد بن حمد كلما جاءت سيرة علامة العسل، بأن الثقة في الناس قد انتهت وبأنها سبب رئيسي في اختفاء النحل البري وندرته من الجبال، وبأن هذا عقاب من الله، إذ أن الفساد عندما يضرب في الأرض يرفع الرزق ويحل المحل وتموت الكائنات، وتزداد الأمراض في الناس كما زادت في نفوسهم.

أحبته سرّا، كما تفعل القرويات عادة في حالات عشقهن العظيمة، كانت المعصرات وهن يشربن قهوتهن وينهين جلساتهن بشم العود ووضع الشورانة على جباههن يذكرن فيما يحكنه من حكايات بأن لسعيد ولد جميل كالقمر ، تفوح من جسده رائحة الرجولة كلما مر في دروب القرية فتتوقف كل أنثى ماشية وتجلس الواقفات وتضع الجالسات أيديهن على خدودهن ، وكلهن كن يحلمن أن تمتد يداه إليهن ، تقول صبحى بنت جميل :

'' كأنه يوسف في حسنه ''

وتردف فاطمة العمشا :

'' قامته كما قامة أبو زيد ''

وهن لا يعرفن يوسف ولا أبو زيد إلا من كتب وضحى بنت حمد التي تقرأهن دائما عليهن ، فكن يحببن أن يسمعنها وهي تقرأ ، المرأة الوحيدة في القرية التي تقرأ الكتب بسهولة كما يقرأها أصحاب العلم الكبار كأمثال المعلم سالم بن علي.

كانت وضحى قد تعلمت على يدي أبيها حمد بن سعود ، فمذ كانت صغيرة وهي تلازمه في جلساته للقراءة ، تحفظ ما يلقيه على مسامعها من شعر ، حفظت منه أشعار المجنون والمتنبي وأبي تمام وأبي نواس وغيرهم من الشعراء ، بل استطاعت أن تحفظ الكثير من أرجوزة جوهر النظام ، وعندما فقد أبوها بصره تولت هي القراءة عليه ، فكان كلما وصله كتاب جديد يطلب منها أن تجلس في أوقات الضحى بجانبه وتقرأ له حتى تكمل مع الأيام تلك الكتاب من الغلاف إلى الغلاف .

في أوقات العصر تجلس النسوة في الساحة الفارغة في وسط الحارة ، يفرشن هناك الحصر وتحضر كل واحدة منهن ما تيسر لقهوة العصر ، وفي جعبة كل واحدة منهن حكاية جديدة حدثت ذلك اليوم .

أما وضحى فتحمل كتابها بيدها ولا تعرف غيره، ليس عليها ما على الأخريات، قهوتها في كتابها وفي صوتها النقي الذي تطرب له مسامعهن وهي تقرأ بترنيماتها كما يفعل الرجال الكبار ، كان صوتها لا يضاهيه صوت ، وكان الكل يصمت عندما تقرأ .

قرأت لهن المستطرف وكتاب الأغاني وسيرة الحسن البصري وتغريبة بني هلال وأشعار عنترة العبسي وسيرته وقصة النبي يوسف عليه السلام ، وديوان السيف النقاد ، وتحفة الأعيان وأشعار إبن الفارض والكثير من الكتب ، وكن يستمعن إليها بخشوع من يجلس للصلاة، يصمت الأطفال ويهدأ المكان ويستمع الرجال من بيوتهم القريبة لتلك القراءة ، كانت تقرأ في كل مرة ثلاث صفحات أو أربع ثم تختتم قراءتها بالدعاء وبعد ذلك تدور القهوة والعطور ويتبخرن باللبان والصمغ ويضعن الكحل والدهان وقبل أن يأذن المؤذن لصلاة المغرب ينفض مجلسهن ويذهبن إلى بيوتهن .

ذلك أن سارة بنت سلطان بن عبدالله والتي لم تكن تخرج من دار أبيها إلا قليلا في الضواحي المجاورة قد تشبعت بتلك الأوصاف التي تصف بها النساء لعزان بن سعيد ، وأحبته وهي لم تره ، حتى طلبت من صويحاتها أن يذهبن سويا إلى الحارة التي يسكن فيها دون أن يعلمن السبب ، قالت لهن :

‘‘ باغية اشوف البلاد ’’

وبالرغم أنه لا يفصل بين الحارتين سوى الوادي والدرب الصاعد بين النخيل إلا أنها لم تتخط ذلك الوادي ولم تعرف عن بيوت الحارة الأخرى إلا من كلام المعصرات.

كانت سارة تمشي رويدا رويدا ، تتطلع خلسة في وجوه المارة وتحاول أن توفق بين أوصاف النساء وبين ملامح الرجال الذين تمر بهم ، كانت تمسك بيد صديقتها صفيّة بنت سليمان وتشد عليها كلما مر أحدهم تسألها عنه، فتخبرها، ولأنها لم تر ود سعيد ذلك اليوم لذا حاولت استغلال كل لحظة من الوقت المسموح به لعلها تراه ولو للحظة .

لكنها لم تره ، لم تصادفه ذلك اليوم برغم مرورها أمام منزل أهله ، لكنها رأت أبوه عائدا إلى بيته ، وعندما رآها شبه عليها وسألها عن اسمها ، أخبر أسماء بأنها تشبه أمها وأخوالها أكثر من أبيها ، ولما علمت بأنه والد عزان ، التفتت إلى الوراء وظلت تتمعنه كثيرا قبل أن يختفي في سكك القرية .

طلبت من صفيّة مرات عديدة أن تذهب معها بحجج مختلفة في كل مرة ، حتى صادفته جالسا تحت شجرة الأمبا ، فعرفته، تشبعت من النظر إليه بلفتة عين أو لفتتين دون أن تلحظ صاحبتها ذلك، نظر إليها ، التقت عيناهما ، غض بصره وانهمك ينكش الأرض بعود صغير ، كان فارع الطول ذو بنية جسدية متناسقة ، وأصابع كفيه طوال ، هذا ما استطاعت أن تلتقطه سارة من نظرتها الأولى .

برقت عيناها وكادت دمعة وله أن تهرب من المدمع لولا أنها زجرتها بقوة، وبالرغم من أن همها الكبير أن تراه إلا أنها غذّت الخُطى مسرعة حتى أن صاحبتها بذلت جهدا حتى تلحق بها، مشت في الدرب، قال قلبها:

- ما شبعت

فردت عليه:

- الشبع مفسدة

لقد صارت أكثر هدوءا وفكرها شاردا في كثير من الوقت ، صمتها محيرا ونبرات صوتها كانت تخرج مع بحة وبخفوت شديد حتى أن من يتحدث إليها يحاول جاهدا أن يصغي جيدا حتى يلملم ما تنثره من كلمات .

وعادت الحكاية تنسج خيوطها من جديد على حين غفلة من الناس ، قالت وضحى وهي تقرأ في طوق الحمامة :

‘‘الحب - أعزك الله - أوله هزل وآخره جد. دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة. وليس بمنكر في الديانة ولا بمحظور في الشريعة، إذ القلوب بيد الله عز وجل ..’’

وضعت سارة يدها على رأسها وقالت لوضحى :

‘‘ قريبي مرة ثانية هالكلام عموه ’’

فعادت وضحى لتقرأ من جديد " الحب - أعزك الله ..." وكانت سارة تردد خلفها حتى تصل إلى " بيد الله عز وجل " فتطلب منها الإعادة حتى حفظتها غيبا ، عندها قالت الكلام وحدها وهي تنكش بأظافرها طرف دشداشتها المطرز " الحب - أعزك الله - ..... إلخ " .

ابتسمت وضحى ثم مدحت البنت على نباهتها ، قائلة لهن جميعا :

" تعلمن .. تعلمن .. الحياة ما بس شغل البيت والزوج والأولاد ، الحياة أكبر من كذا ، تعلمن ، قرين "

عندما عدن من تعصيرتهن كانت سارة تردد كلام ابن حزم في طوق الحمامة .

وثم فجأة طار عقلها بعيدا، سافر إلى مغاور مجهولة بين كهوف الجبال الأشد حلكة من قلب الظلاّم ، لم تعد سارة كما عرفها الجميع، مرضت بشدة وطغت عليها الحمى وسقطت ليالي وأيام في هذياناتها ولم تعد إلى بر الأمان، علقت في مكان ما هناك في أحلام الحمى، جاءت روح أخرى بديلة عنها وسكنت ذلك الجسد، أطلت بعينين مختلفتين وحائرتين طوال الوقت.

ولكن لا شيء يبقى سرا في هذه القرية، فالقلوب التي تبدو مقفلة على العشق والضغينة تلاك في أحاديث المعصرات كل مساء ، فقالت صفية بنت خماس وكانت تحاول إدخال الخيط في سم الخياط :

العقل مثل ثقب هذه الإبرة ، من الصعب أن يدخل فيه خيط كبير ، وعقل هذه البنت دخلت عليه آفة صغيرة جدا ، بدأت تحفر فيه وتقتات منه حتى كبرت ، كان العقل كله قد ذهب .

لقد رأيتها بأم عيني وهي تتحدث مع ود سعيد ، كانت هناك تمسك بوعائها المملوء بالماء عند قنطرة الفلج وهو قد أمسك خاصرته ووقف يتحدث معها ، ولقد شعرت بالخجل كيف لفتاة تقف للحديث على قارعة الطريق مع رجل غريب .

قالت العجوز كاذية :

ستدخلن النار بألسنتكن ، هذه الألسنة التي لا تكل ولا تمل من الكلام عن الآخرين ، اتركن الفتاة في حال سبيلها ، ألا تخشين أن تسمع أمها كلامكن عنها ؟

تتكيء رحمة على الجدار حيث يقمن تعصيرتهن عند بيت العجوز كاذية ، تحني رأسها للخلف وتكمل كلامها وكأنها تحدث نفسها أو كأنها تهذي في حلم :

ما المحب إلا روح تفترش الأرض ، تحاول الخروج من جسدها لتحلق في السماوات العلى ، ولعل الله أن يشل لساني لو كذبت عليكن ، أنني سمعتها مرة وهي وحيدة ومستكينة في عزلتها ، سمعتها تقول :

" يا رب ، قلب المحب جحلة جريحة "

كانت سارة وردة الحي ، إذا خرجت تطيبت من أطيب العطور وتبخرت بأطايب البخور ، كان أبوها لا يبخل عليهم في شيء ، وكانت كلما خرجت تلبس ثوبا جديدا وكأنها ذاهبة إلى عيد أو عرس .

لكن كل هذا قد أصبح في الحكايات الخرافية التي لا تصدقنها أيتها المعصرات المتعبات من حكاياتكن العادية ، فالحكاية العادية تشبه الحمل الثقيل الذي يعلق في الكاهل ، لا يخف وزنه ولا

ينزل ، يعلق طول الدهر مثل ذنب غير مغتفر ، أما الخرافات فتجعلنا نطير ، نتحرر ، ونحلم أن كل شيء في المستحيل ممكن .

من سيصدق حين يرى هذه المجنونة التي تمشي في الحارة وبين النخل أنها هي تلك الحسناء التي تخطف الأنظار كلما حضرت وتنصت لها الآذان كلما تكلمت ؟

هل ستعرف نفسها كلما نظرت في مرآتها ورأت فتاة بعينين شاردتين وشعر منفوش ودموع تنهمر على الدوام ؟

لقد كانت عائدة إلى البيت حين سمعت جلبة وضجيجا ورأت جماعة من الناس يتحلقون ، تجاوزت المكان قليلا وصعدت في مرتفع لترى ما يحدث ، كانوا يتحلقون حول أحدهم وهو ملقى على الأرض ، وقفت تتمعن فيه ولم تعرفه ، وقبل أن تنصرف مر عليها طفل في العاشرة من عمره يمشي مسرعا ، قال لها دون أن تسأله :

‘‘ ود سعيد سكران ’’

تسمرت في مكانها ، لم تصدق الولد ، ظلت هناك حتى رأته يحاول ايجاد طريقه بين الناس الذين تحلقوا حوله ساخرين منه ، ذهبت والحمى تستشري في جسدها وما إن وصلت البيت حتى سقطت مغشي عليها عند الباب .

ساءت حالتها يوما بعد يوم ، أخذها والدها إلى مسقط وعاد دون فائدة ، لف بها الأماكن بحثا عن علاج لها مع البصارين والعطارين والسحرة ولكن سارة كانت قد فقدت عقلها نهائيا دون أن تصحو منه ولو لفترة قصيرة .

اشترى لها عسلا كثيرا لتتغذى به والذي خلط معه كثيرا من الأدوية والأعشاب النافعة ولكن دون فائدة ، كان جوع الروح يفوق كل جوع لذلك لم تكن تستصيغ الأكل ولا تذوقه إلا بالقوة ، كانت أمها تبذل الجهد لتأخذ لقمة أو اثنتين ..

قالت سلمى بنت خليفة وكانت طول الوقت صامتة تستمع إلى حديث النساء من حولها :

الرحمة على سارة بنت سلطان ، الرحمة عليها يوم ولدت بين أعينكن ولم تغضضن الطرف ، الرحمة عليها حين كبرت حسناء بعود ريان ووجه محمود ، الرحمة عليها وقد أكلتها عيونكن دون أن تسمين باسم الله الذي خلقها ولم تستعذن من الشيطان الرجيم الذي يرافقكن جيئة وذهابا ، الرحمة عليها من ألسنتكن التي لم تكن تصلي على خير خلق الله .

وأنت أيتها القبيحة في النفس كيف تسول لك نفسك أن تفتري على المسكينة وتصفينها بأقبح الأفعال ، كيف لقلب سال ومحمي من الوقوع في الخطأ أن يقع في العشق ، نحن بنات الأجاويد لا يلزمنا أن نعشق لكي نعيش ، العشق عار كبير وقد تربينا ونحن ندرك أن العشق هوان للروح والجسد ، وليس ما أصاب هذه الفقيرة سوى حسدكن ، فاطلبن لها الرحمة أو اكففن ألسنتكن عنها لعلها تستطيع بقدرة قادر أن تقف على قدميها وتنجلي غشاوة المحنة عن بصيرتها وتعود مرة أخرى صحيحة ومعافاة .

كانت سارة بنت أبيها ، وكانت جميلة المحيا وحسنة الخلق ، تربت بين يدينا ، رأيناها وهي تكبر مثل وردة حتى مالت أغصانها وأزهرت ، كانت تلبس ملابسا تختلف عن ملابسكن ، تنتقي لها من القماش الزاهي والذي يزيدها جمالا ومن العطور ما تفوح معه أنوثتها حتى تطغى على المكان ولا يرى ولا يسمع فيه سواها .

كانت كل حكاية تسمعها من قراءة وضحى بنت حمد تحفظها عن ظهر قلب وكانت عيونكن تتفتح عن آخرها دون ذكر للرحمن ، وكانت تصدح بصوتها الفخم وهي تترنم بقصائد وضحى :

‘‘ ولو أن ليلى الأخيلية سلمت علي ودوني جندلا وصفائح

لسلمت تسليم البشاشة أو زقا إليها صدى من جانب القبر صائح ’’

أتذكرن كيف بكت العجوز كاذية وهي تسمعها تغني بأبيات ابن القارض ؟

قلْبي يُحدّثُني بأنّكَ مُتلِفي،

..... روحي فداكَ عرفتَ أمْ لمْ تعرفِ

لم أقضِ حقَّ هَوَاكَ إن كُنتُ الذي

.....لم أقضِ فيهِ أسىً، ومِثلي مَن يَفي

ما لي سِوى روحي، وباذِلُ نفسِهِ،

..... في حبِّ منْ يهواهُ ليسَ بمسرفِ

وكيف أن شنوه بنت بريك قد دخلها الجني وبدأت تهتز وتنعش في وسط الجلسة ، شنوه البدينة مثل جذع السوقمة التي لا يستطيع صاحب اليدين الطويلتين أن يشبكهما على وسطها ، اهتزت حتى شعرنا كأن الأرض غير مستقرة من تحتنا ، ورأيتن بأمهات أعينكن كيف انبطحت سليمة بنت غفيل خوف أن تتشقق الأرض من الاهتزاز ، ولقد قرأتن ذلك اليوم ما حفظتنه من آيات وأدعية حتى لا يخرج جنيها ويدخل في أجسادكن الضعيفة .

شنوه التي كان يأخذها الجن وهي صغيرة ويطوف بها البقاع ليلا ، تنام عند أمها وعندما تستيقظ لا تجدها بجوارها ، وبرغم أن أباها يوصد الباب من الخارج إلا أن شنوه تخرج ، كيف تخرج لا أحد يدري ، يأخذها الجن فتتحول مثلهم إلى ريح وتخرج من شقوق الباب وتسافر؟ .

مرة وجدوها في كهف في أعلى قمة جبل المقصورة ، كانت هناك نائمة ملء عينيها وعندما ايقظوها قالت أنها لا تدري كيف جاءت إلى هناك.

كانت هكذا كل ليلة ، تغيب ، تخرج من الغرف المقفلة والتي يحرسها أشاوس الشباب ، تختفي فجأة مع أول نعاس يلم بعيني من ينام معها في الغرفة .

قالت عمتها موزة ذات يوم بأنها ستجلس معها في الغرفة وستراقبها دون أن تنام ، ولكنها بعد بضع دقائق نامت ولم تستيقظ إلا بعد مرور ساعات طوال ، قالت للحراس بأنها شعرت بريح باردة وعطرية تهب من زوايا الغرفة وغالبت النعاس لكنها لم تقدر .

كانوا يأخذونها إلى مكان جديد في كل ليلة حتى صنع أهلها زارا كبيرا لها ثم سكن الجني الذي فيها ولم يعد يأخذها ، لكنه كان يعود بين الفينة والأخرى فيهزها هزا حتى تغيب عن الوعي ،ولا تهدأ حتى نجيء بدهن العود ونقطره في أنفها .

إنه الحسد يأكل دواخلكن ولا يبقي لهذه الحياة سوى الرماد ، ماذا فعلتن بتلك الفتاة سوى أنكن أكلتن عقلها وسني عمرها المبكرة ، كما أكلتن بألسنتكن إبن عامر ، من يصدق أن ذلك الفتى

المهذب والرصين ، ذلك الذي لو وزع احترامه على أهل القرية لشملهم وكفاية ، من يصدق أن يصير هكذا بلا عقل ، لقد ذهب أدب والده فيه هباء ، ولقد جاءتني أمه باكية شاكية ، قلت لها :

‘‘ ولدك ممسوس ’’

بكت المسكينة حتى ابتل لحاف شعرها من شدة الدمع ، فيا لقبح ما فعلتن بهؤلاء الشباب ، هل تعرفن قلب الأم ؟ ألا تخفن أن يحدث ما حدث في أولادكن وبناتكن ، أليس لديكن من شيء إلا الحسد؟ تأخذن كل شيء به .

كان عزان عصفور يغرد متنقلا من غصن إلى آخر ، عصفور لاه لا يعرف ما تخبئه له الأيام ، لا يدرك أن هناك صيادا يترقبه وسوف يسقطه من قمم النخل إلى الحضيض ، صياد لا يرحم ، ولا يعنيه كم كان العصفور ضئيلا لا يسمن لحمه ولا يغني من جوع ، لم يكن الصياد يفكر سوى في لحظة الإصابة ، في روعة سقوطه ، يستمتع وهو يراه ساقطا من الأعالي ، ثم يمتدح نفسه ها أنا من رمية واحدة استطعت حتى هذا العصفور الصغير القافز من زورة إلى أخرى أن أصيبه .

هل بردت أفئدتكن الآن ؟ هل تشعرن أيتها الحاسدات بالنصر لسقوط أولاد الآخرين في المرض والرذيلة ؟

كانت أمه تبحث عنه في أرجاء القرية فإذا رأته على تلك الحال من السكر تقترب منه وتفرك رأسه فيهدأ ، يبكي بين يديها مثل طفل في الخامسة من عمره ضاع فجأة ثم عاد ، وكان يندس في حضنها وهو يقول لها :

‘‘ قولي حال ابوي يسامحني ’’

تناشده أن يذهب معها ولكنه يرفض ، لن يعود لأن الحسد قد أخذ بعقله ، كل هذا بسببكن أيتها الحاسدات اللاتي يعملن ألسنتهن في خلق الله ، ثم تجئن لتتحدثن أنه حدث كذا وكذا ، تلفقن الأكاذيب وتصدقن كذبكن .

تنهض سلمى بنت خليفة من مجلس المعصرات وتذهب وهي تستعيذ بالله من شرورهن ، يصمت الجمع ، ينظرن إلى عيون بعضهن البعض ، تتساءل كل واحدة في نفسها ترى من هي الحاسدة الكبيرة هنا ، كل واحدة تقرأ المعوذات في سرها وآية الكرسي .

وتقول رحمة بنت سليمان مكملة في تعصيرة أخرى :

منذ أن مرضت سارة بنت سلطان توقفت وضحى بنت حمد عن الجلوس معنا ، توقفت عن أخذ كتبها في يدها وهي ذاهبة إلى بيوت القرية ، قالت إحدى المعصرات :

‘‘ كان ما هيه الساحرة ’’

وقالت أخرى :

‘‘ كل شيء يستوي ’’

وضحى تقرأ الكتب ، لكن الكتب التي تقرأ علينا في الشعر والأدب والفقه ، ويقال بأن لديها كتبا كثيرة وذات أحجام مختلفة ، وبعضهن يؤكدن بأن هناك من رآها تقرأ كتاب الغزالي ، وأن كتاب شمس المعارف موجود معها ، وأنها تبدو في وجهين ، وجه ظاهره الرحمة ، ووجه باطنه

العذاب ، وإن سارة المجنونة ما هي سوى مغيبة وقد غيبتها عن الحياة وتركتها مثل البهيمة وكذلك ابن سعيد ، وتتساءل أخرى من سيكون ضحيتها القادمة ؟.

لقد تغيرت طباع وضحى ، لم تعد تخرج كثيرا من بيتها ولم تعد تجالس النساء في تعصيرتهن ، أغلقت على نفسها الباب واعتزلت الجميع .

كانت سارة في غيبوبتها تهذي بأشعار مجنون ليلى ، وابن الفارض ، وكانت دائما ما تردد هذه الأبيات :

ياراحِلاً، وجَميلُ الصَّبرِ يَتبَعُهُ، هلْ منْ سبيلٍ إلى لقياكَ يتَّفقُ

ما أنصفتكَ جفوني وهيَ داميةٌ ولا وَفَى لكَ قَلبي وهوَ يَحتَرقُ

شعر والدها بعبء ما تقوله ابنته في هذيانها ، فهي لا تذكر شخصا ما بعينه ، تردد أشعار الأولين وتهذي بعقل شارد ، كان وقع مرضها عليه صعبا ، فهو يعزها كثيرا ويحبها أكثر من أولاده الذكور ، لقد كانت سارة ابنته الوحيدة ، وهو مستعد ببذل كل غال ونفيس لعلاجها ، لكن ما بيده حيلة في رد عقل طفلته الحبيبة ووردته التي كان رحيقها يعطر حياته .

ولولا أنه كانت له هموم الرجال الكبار التي تتعدى همومه الشخصية لترك الدنيا وقعد بين يدي طفلته محاولا فك لغزها المحير ، تلك الأشعار العذبة في العشق التي تترنم بها التي تقطع قلبه ، فليته يدرك من هو الذي كسر قلبها ، من الذي سيعيدها إلى الحياة ، لم يكن يعرف عن ولعها شيئا ، حتى في شرودها وجنونها لم تكن تذكر اسما ، وكأن ذكره سوف يعيدها إلى جادة الصواب .

تمر أيام تصمت فيها سارة ، تهدأ ، تدخل غرفتها ويتغير حالها وكأنها ستشفى من مرضها ، تستحم وتسرح شعرها وتتطيب ثم تجلس أمام المرآة تنظر إلى صورتها بالساعات ثم تقوم وتنام على سريرها نومة هانئة وطويلة وما إن تصحو حتى تهرع للاستحمام ثانية ثم تعيد الكرة بجلوسها أمام المرآة .

تمر أيام على هذه الحال ، تصمت تماما ، لا تقول شيئا ، يخفت هذيانها وتجف دموعها وتستقر عيونها عن الدوران في محجريهما وكأن العافية قد عادت إليها .

لأيام عديدة تجلس هكذا لا تفارق غرفتها ، تحضر لها والدتها أطايب الطعام والفواكه اللذيذة ، أقراص الغراميل المدهونة بالسمن والعسل فتعود للأكل ، تتناول أكلها وهي جالسة أمام المرآة ، لا تفارقها لحظة واحدة ، تنظر إلى خيالها بوجه هاديء ، لا وقت لديها في فعل شيء آخر ، لا أحد يعرف ماذا ترى في تلك المرآة فهي لا تتحدث مع أحد ، لا تهذي ، لا تنبس بحرف واحد.

تمر الأيام ثم تعود سارة إلى حالة هذيانها الشديد ، تهمل نفسها وتخرج من غرفتها إلى حوش البيت ، هناك تحت العريش الذي شيد في زاوية الحوش ، تمر عليها الأيام لا تذوق طعاما ولا شرابا ، تردد الأشعار وتهذي عن حبيبها ، لا تخرج عن محيط ذلك العريش ، بالرغم من اتساع الحوش إلا أنها اختارت تلك البقعة لتبقى فيها ليل نهار ، لا فرق في الفصول أبدا ، لا البرد يثنيها عن الجلوس هناك حتى اضطر والدها لإحاطة العريش بغطاء سميك حتى يمنع ريح الشتاء القارسة من الدخول إليها خوفا من إصابتها بنزلات البرد ، وفي الصيف يفتح المكان للهواء حتى تستطيع التنفس .

(١٠)

مثل فرحة طفل صغير يأتي صوت الحطاطي دائما ليملأ مسمعه، لقد ارتبط بهذا العجوز روحيا منذ زمن بعيد، منذ البدايات والطفولة، وهو يراه يقطع دروب القرية جيئة وذهابا، حاملا الفرح وخفة الدم والغرابة واللامبالاة في كل ما حوله.

يسمعه خلف الباب، يناديه فيحمل جسده الملقى على الحصيرة كمن ينبعث من جديد خارجا من بركة الطمي اللزجة للوقت، فالوقت صار ثقيلا بعد كل ما حدث .

عزان بن سعيد وقد استفاق أخيرا من سكرته يعود فجأة للحياة، مرت الأعوام عليه وكأنها حلم، لم يحفل بكل مجريات الأمور في قريته، مات من مات وغاب من غاب، ثم عاد المسافرون وهو ما يزال يحمل زجاجة الكولونيا ويجلس طرف البلدة، يمتص رحيقها رشفة رشفة، وكلما دخلت جرعة إلى جوفه هرب إلى ملكوت آخر وإلى بحور لا نهائية يموت فيها ويحيى آلاف المرات كل يوم.

لم يعد لديه من أحد، هكذا فجأة يجد نفسه وحيدا في هذا العالم، ولقد كان وقع الخبر عليه وهو بين الصحو والسُكر شديدا لدرجة أنه ظل جاثما مكانه يستمع إلى طنين قوي في أذنيه.

لم يجرؤ أحد على إخباره بالحقيقة، الكل يخاف الاقتراب منه، لذلك ذهب ناصر بن سالم الحطاطي ليوقظه فوجده جالسا كعادته والزجاجة بجانبه فارغة، وعندما اقترب منه حاول أن يدس الزجاجة خلفه، جلس بجانبه ثم وضع يده على كتفه وقال له:

- متى بتخلي هذا السم؟

سكت عزان ولا يدري ماذا سيجيبه، لكن الحطاطي لم ينتظر ذلك الصمت الطويل وأبلغه بوفاة والديه.

أن يموت أحدهما فهي فاجعة كبيرة، لكن عندما يموت الأثنان مرة واحدة ويأتيه الخبر هكذا من رجل لا يعرف المقدمات كالحطاطي فما الذي تبقى له من الحياة حينها.

ظل عزان طوال تلك السنين يكابر نفسه على أن يصحو يوما ويعود إلى بيته، وطوال تلك السنين لم ير وجه أبيه ولم يتحدث معه، والذي يجعله يزداد سكرا يوما بعد يوم هو ذلك الصوت الذي لم يزل يتردد في نفسه وأحلامه في يقظته وسكره، صوت أبيه، بحة حنجرته التي تربت أذنه عليها، يسمعه وهو غارق في النوم فيقوم جافلا يبحث عن الصوت في الجوار وقد أخذ به التوجس والقلق.

في سنته الأخيرة كان يحلم أن يقبل في البعثات الخارجية، كان حلمه أن يسافر للدراسة في إحدى الدول الغربية المطروحة كخيارات أمامه، ولأن نسبته تؤهله على ذلك فقد اختار دراسة الهندسة في أمريكا كخيار وظل يحلم بتلك اللحظة التي سوف يسافر فيها ليل نهار.

لم يتوقع أبدأ أنه لن يتم قبوله، لقد كانت نسبته من النسب الأعلى المتقدمة للبعثات ولكنهم ما قبلوه، وفوق هذا عرف بأن بعض من تم قبولهم من أصحاب الدرجات الأقل من درجته، كان خيار القبول في الجامعة قد فاته، وكذلك الخيارات المطروحة في أماكن أخرى، لذلك عندما عاد إلى القرية وأخبر والده بما حدث، أنّبه وأغلظ له القول ولامه على تركه التسجيل في الجامعة أو

الكليات المتوسطة للمعلمين والتي كانت شبه مضمونة وكيف أنه غامر بكل شيء وفقد كل شيء فلا خيار لديه الآن إلا العمل بشهادته الثانوية أو الالتحاق بالسلك العسكري كجندي.

كان صوت الملامة قوي لدرجة أنه خرج من بيته ولم يعد أبدا، وبعد أيام ذهب إلى القويرة وبدأ سفره الطويل مع الكولونيا.

في صباح ذلك اليوم ذهب والده إلى سوق إبراء للتسوق، ذهب مع هاشل بن حمدون صاحب سيارة الأجرة الذي عادة ما يذهب كل صباح إلى ذلك السوق، ومنذ أن جلس لتناول القهوة الصباحية ذلك اليوم وهو يشعر بقبض في صدره وبألم في كتفه الأيسر، وكان مصرا على الذهاب برغم أن زوجته حاولت ثني عزيمته ولكن اصراره جعلها تصمت موقنة في دواخلها بأن شجرة تربت على العناد لا يمكن زحزحتها في ذلك السن.

واعد سائق الأجرة على أن يلتقيا معا للعودة في الساعة العاشرة صباحا، دخل سعيد ناحية سوق السمك وعندما وقف يكلم البائعين يسألهم عن أسعار السمك ذلك اليوم، شعر بوخز شديد في صدره وأحس بقبضة قوية على كتفه، أخذ نفسا عميقا وبدأ يكح ثم سقط بين المتجمهرين جثة هامدة.

أخذه البعض مسعفا إياه مباشرة إلى المستشفى القريب وهناك عندما تم فحصه اتضح أنه قد فارق الحياة.

انتظره هاشل بن حمدون ولم يجيء، بحث عنه في الجوار ولم يجده، كان الوقت يسحب نفسه والنهار يتمدد، وهناك عند مواقف السيارات ظل مرابطا لعل الرجل يجيء بين لحظة وأختها، حتى مرّ عليه أحد معارفه من وادي الطائيين وقال له:

- واحد من بلادكم متوفي في المستشفى.

ذهب هاشل ليستطلع الخبر فكانت صدمته إذ وجد الشايب سعيد مسجى على السرير وقد فارق الحياة.

أخبر سائق الأجرة إدارة المستشفى أن الرجل قد قدم معه صباحا للتسوق وكان بكامل صحته ولا يعرف عنه من قبل أنه يعاني من أية أمراض، ولأنه الوحيد هناك المعني بالجثة فقد وقع على تقرير الوفاة، وانتظر حتى تكمل إجراءات نقل الجثمان بسيارة إسعاف البلدية إلى القرية.

استمر يمشي خلف الاسعاف حتى دخلت البلدة، وعندما وقفت السيارة في وسط الحارة وعوى زامورها تجمع الكثير من الناس خارجين من بيوتهم وجلين ومن وجوههم يتساقط القلق مثل غثاء الغبار.

عرفت زوجته كاذية بالخبر الفجائي فسقطت من وقفتها فوق الجثمان جثة هامدة أيضا، وبدلا من فقيدة واحدة ذلك اليوم، صار في القرية فقيدتان من ذات البيت.

ولأنه لا أهل لعزان ولا أقارب، لا عمومة ولا أخوال ، ولا أحد غيره المعني بالعزاء ولابد من وجوده لاستكمال مراسم الدفن والعزاء بعد ذلك، فمن المهم أن يبلغه أحدهم بما حدث وأن يكون هذا الرجل قوي القلب، لذلك بادر الحطاطي من نفسه لكي يذهب إليه ويخبره بنفسه.

أخذه من يده وجره خلفه وهو يسحب رجليه بثقل، كانت الخمرة ما زالت مؤثرة على توازنه، أخذه إلى المقصورة، أعطاه ملابسا داخلية جديدة لم تستعمل وإزارا وطلب منه أن يستحم، انتظره

طويلا وهو يحثه أن يخرج، ظل بالداخل يسكب الماء على رأسه ويسكب الدموع من عينيه، بينما ظلت أسماء بنت نوفل متكأة على جذع السوقمة وقد تلثمت بلحاف شعرها وبدأت بكاءها الصامت، وكلما وصل إلى مسمعها نشيجه من داخل الحمام أسكبت دفقة جديدة من دموعها، ظلت تبكي وتنوس، والحطاطي يوزع نظرته بينها وبين الباب الذي لم يفتح بعد.

خرج وقد احمرّ وجهه، أراد أن يخطو ذاهبا ناحية الحطاطي وكاد أن يسقط متعثرا بحجر صغير على الأرض، لقد ذهبت سكرة الخمر وجاءت سكرة الحزن، وهو المنذور للأحزان التي لا تنتهي هاهو الآن ينتظره درب يقوده إلى المقبرة، هناك حيث سيقف مودعا والديه وقد رحلا عن الحياة إلى غير رجعة.

بين جثمانين ظل جالسا وقد وضع يدا على رأس كل منهما، لا يدري ما يفعل، بقيت العيون ترقبه من كل صوب، بعضهم كان حزينا لحزنه والبعض يهز رأسه شفقة عليه وعلى حاله، بينما هنالك عيون تسخر وتتشفى منه صامتة لكن وهجها يخترقه، وهو الذي لا يبالي شيء أنكس رأسه وانقطعت دموعه حتى استأذنه الحطاطي في الدفن.

لم يمد يده ليضعهما في لحديهما، لم يهل عليهما ترابا، كان يرفعهما بعينيه ويدخلهما في قلبه، وبعد أن انتهت إجراءات الدفن بقي عند قبريهما بينما غادر الجميع عائدين إلى منازلهم.

منذ صباح اليوم التالي وفي مجلس القرية توسط عزان بن سعيد الحضور مستقبلا المعزين وقد جلس بجانبه الحطاطي والشايب سالم بن علي، حاول البارحة أن يذهب إلى البيت لينام هناك ولكنه لم يستطع، توقف عند الباب ، مد يده ليفتح المزلاج ولكن شيء قوي أعاد يده إلى جانبه، وقف طويلا يرقب حلقة الباب ومزلاجه، رأى تشققاته وأثر الرمّة القديم في خشبة الوسط، جلس بجانب الباب ومال برأسه على الحائط ، وبدأ بكاء صامتا متذكرا كل لحظة حميمة عاشها في ذلك البيت.

نام لبرهة وحلم بهما يفتحان الباب ويناديانه أن ادخل، وهو بين الحلم واليقظة سمع صوتيهما وكأنه يجيء من داخل البيت، كانت ضحكة أبيه تجيء خافتة، بينما يصله صوت أمه حنونا كعادته.

استيقظ بعد برهة ووقف مرة أخرى قبالة الباب، مد يده وحرك المزلاج فانفتح، خطا بقدمه إلى الداخل ولأول مرة منذ سنوات تشع الرائحة في أنفه، رائحة المكان ورائحة والديه، كان كل شيء ما يزال حيا في الداخل، نظيفا ومرتبا وكأنهما قد غادرا لزيارة أحدهما وسيعودان كعادتهما، مروحة السقف في الدهليز ما تزال تدور ببطء، والدجاجات يلقطن الحبوب من الأرض، الحوش الذي كنسته أمه البارحة وأخذت أوراق الأشجار المتساقطة ورمتها تحت أقدام بقرتها في الحظيرة، النخيل والأشجار ما تزال نظرة وكأن الخبر لم يصل بعد إلى البيت، لكن ثمة صمت يجوس في داخل الحجرات، صمت ثقيل، صمت موتى تركوا المكان ورحلوا، يستشعره يتمدد ضاغطا على صدره ونفسه.

لثلاثة أيام وهو يلازم مجلس العزاء، لثلاثة أيام استقبل الناس وصافحهم وسمع كلمات المواساة من شفاههم، بعضهم تأثر لرؤيته يعود من تلك الحياة فعانقه باكيا، البعض صافحه دون أن ينظر إلى عينيه، لكنه أثبت للجميع بأنه معنيّ تماما عن عزاء الذين فقدهم ولم يكن يعود إلى بيته إلا بعد صلاة العشاء.

يدخل إلى حوش البيت، ثم يفترش حصيرة صغيرة على الرمل وينام.

سمع مواءا بالقرب منه، استيقظ على قطة أمه وهي تفترش الأرض بالقرب، كانت تنظر إليه وتموء، مد يده ناحيتها وسحبها بلطف حتى صارت على ساعده لفها بزنده مستشعرا حرارتها وأنفاسها تسري إلى جسده.

قضت هذه القطة سنينا بالبيت، ولدت الكثير من القطط، رحل جميع أبنائها ما إن يكبرون قليلا حتى ينتشرون في القرية ولا يعودون أبدا، وحدها بقيت هناك، ومذ كان صغيرا وهي تقترب منه وتنام بين طيات لحافه.

يقرب أنفه من فروها ويستنشق تلك الرائحة التي تربطه بالماضي، الروائح تظل موجودة في المكان، لا تغادره أبدا، الروائح هي ما يتبق بعد الراحلين، وها هو بعد كل تلك السنين، يفتح أنفه مشرعا للروائح أن تعود رويدا رويدا .

بعد تلك السنين ها هو يعود إلى البيت، يعرف كل ناصية فيه مع ذلك لا يحاول أن تلتق عيناه بشيء، ولم يكد يجتاز حوش البيت حتى يجلس ووجهه إلى التراب، يخاف أن يرفع بصره فيرى ما يخز قلبه من ألم الذاكرة، ومع الأيام بدأ يستكشف حجرات البيت القليلة وأشياء والديه.

كانت هناك صورة معلقة في وسط الغرفة، صورة تحويهم جميعا، جلس والداه على الكراسي ووقف هو بينهما وفي خلفية الصورة تمتد الخضرة وشلالات في العمق وبعض طيور تحلق في الزرقة.

كان في التاسعة من عمره عندما أخذت لهم هذه الصورة في أحد محلات التصوير بإبراء، يتذكر ذلك جيدا، يتذكر كيف انتظر الجميع الصورة لأكثر من ثلاث ساعات خارج المحل حتى تتحمض وتجهز، وكيف أن الجوع عندما جاس في معدته الصغيرة جعلهم يتجهون لأخذ وجبة خفيفة في المطعم المجاور.

الذاكرة تنفتح على التفاصيل الصغيرة جدا التي غيبها الزمن، وهو الذي يفرح دائما بموقعه بين والديه في الصورة وما إن يدخل غرفتهما إلا ويظل يحملق فيها بإعجاب وكأن ما حدث شيء يفوق عقله، فالصورة تبدو له كاملة تماما خصوصا تفاصيل الخلفية العجيبة .

لم يذكر بأن أغلظ والده له في القول أو أنه ضربه، لقد تربى في بيته دون أن يسمع كلمة لوم من أحد والديه، كان في طبيعته منذ صغره هادئ الطباع لا يشتكي ولا يطلب طلبات خاصة كالأطفال ولا يبكي إلا إذا كان مريضا، وفوق ذلك لم يكن يصادف وجود أبيه في البيت إلا نادرا، فهو إما أن يجيء في وقت نومه، أو يراه للحظات بسيطة مستعجلا الخروج مرة أخرى.

كان والده رجلا مشغولا طوال الوقت بالاهتمام بأمواله التي اشتراها متفرقة في البلاد، وكان يحب أن يعمل بمفرده في تلك البساتين ولا يعود إلا لوقت الراحة أو الغداء وأحيانا تأخذ زوجته الأكل إليه.

كبر عزان وقد تعود غياب والده، كان يراه دائما في حضرة بعض الرجال أيضا مشغولا بأمور أخرى، لم يحدث أن طلب منه الذهاب معه إلى تلك الحقول أو مرافقته إلى أحد الأسواق، هكذا كبر بعيدا عن أبيه.

في كل مرة كان يحصل على المرتبة الأولى في صفه، وفي كل سني عمره الدراسي كان المتفوق الذي يشار إليه بالبنان، وعندما كان يعود بشهادته التي يعطيها لأمه، كانت تخبره بأنها ستقول لأبيه وأن عليه أن لا يزعجه فهو مشغول.

ازداد انشغال الأب وتعوّد عزان عدم الاكتراث بوجوده، حتى ذلك اليوم الذي جاء والخيبة تتكثف على رأسه مثل سحابة على وشك الهطول مطرا أسود، وعندما سمع من كلام أبيه ما سمع خرج وحدث ما حدث .

لأسابيع عديدة بعد ذلك ما كان يخرج من البيت، يظل هناك حتى يستمع طرق الباب ثلاث مرات كل يوم، وما إن يفتحه حتى يجد طعاما جاهزا ، كان هناك من يحضر له وجباته الثلاث دون أن ينتظر اللقاء ، وهو لم يحاول أيضا مراقبة فاعل الخير هذا، اكتفى بفتح الباب وبمد يده لتلك الصينية التي تحتوي على صحون صغيرة، ثم بعد أن يتناول وجبته يعيد الأواني إلى ذات المكان نظيفة.

بعد زمن تجرأت يداه وفتح المندوس الذي بالغرفة، كان القفل في البداية عنيدا، وقبل أن يقرر كسره بحث في أرجاء الغرفة وفي الأماكن التي تعود أن يوضع المفتاح فيها ولكن لم يعثر عليه، وما كان منه في النهاية إلا أن خلع القفل وفتح الصندوق مستكشفا محتوياته القليلة، مد يده إلى كومة الأقمشة الحرير التي تكدست على يسار المندوس، حيث وضعتها أمه، يبدو أنها أقمشة لم تستخدم بعد، كانت أمه تضمها لتخيط منها ملابسا لها، أخرج تلك القطع ووضعها على الأرض فظهرت قنينة عسل بقي فيها أقل من النصف، لاحظ بأن لون العسل داكن جدا، فتح غطاء القنينة وقرب فتحتها من أنفه، أخذ نفسها عميقا وشمّ تلك الرائحة.

يتذكر جيدا كيف كان يتربص أبيه كلما فتح المندوس ليعطيه قليلا من العسل فيه كفه، كان أبوه يضع في فنجان القليل منه ثم يذر عليه بعض الشينوز ويخلطه بإصبعه ثم يلحسه حتى ينهي على آخر أثر له في الفنجان.

أخرج القنينة ووضعها بالقرب من الأقمشة، نبش في قعر المندوس وعثر على كومة أوراق عديدة مطوية ومربوطة بخيط قماشي، فك عقدة الخيط وبدأ يفتح تلك الأوراق ليقرأها، ولأن ضوء الغرفة خافتا خرج إلى الدهليز وبدأ في قراءة تلك المطويات.

في خمس من تلك المطويات وجد صكوك بيع شرعية لنخل اشتراها والده في أماكن متفرقة من البلدة في السنوات التي مضت، وفي صكين آخرين ديونا له على رجلين أحدهم عليه خمسة آلاف ريال والآخر ألف ونصف، وكانت مدة الدين للخمسة آلاف ستنتهي قريبا، أما الأخرى فصك الدين تأريخه جديد.

أعاد الصكوك إلى مكانها بعد أن عقدها بذات الخيط، ثم عاد إلى المندوس وبدأ ينبش ثانية في محتوياته، ولم يجد شيئا ذا أهمية هذه المرة ، كانت هناك نظارة القراءة لأبيه وحرز مطوي في قطعة جلد اعتقد أنه لأمه، وخيط معقود فيه مفتاح صديء.

ذات ليلة وهو مستلق في الحوش سمع طرقا على الباب وصوتا يناديه، وعندما فتحه وجد رفاق سهرات السكر مجتمعين وقد أحضروا خمورهم وطبولهم ، قال له مسمار:

- حالك ما يعجب صديق ولا عدو، لازم ترجع كما كنت.

وقال له ود مرزوق:

- جايين نرجعك للجنة.

أوسع لهم الطريق ليدخلوا إلى البيت، كانوا سبعة، جاءوا مقررين السهر معه تلك الليلة في عقر داره، كان صامتا ولم يبادر بكلمة برغم أنه سمح لهم بالدخول، تحلقوا ووضعوا عدة السهرة في

وسط الحلقة وقبل أن يفتتحوا جلستهم سمعوا طرقا على الباب، كان الحطاطي والشايب سالم بن علي هناك، وأيضا أفسح لهما الباب ليدخلا دون أن يعترض على وجودهم، وما إن رأى الجميع الحطاطي وصاحبه حتى نكسوا رؤوسهم خجلا.

شعر الشايب سالم وهو الأعمى بأن شيئا مريبا يحدث، فسأل الحطاطي عما يحدث ولكنه لم يجبه، بل ذهب إلى ود مرزوق مباشرة وهمس في أذنه وما كان من الآخر إلا أن هبّ من جلسته ممسكا عوده بيد وزجاجة الخمر بيد أخرى وخرج مسرعا من البيت، ولقد تبعه رفاقه بعد ذلك.

ماذا قال له؟ لا أحد يعرف، ولقد حاول عزان بن سعيد بعد ذلك مرارا أن يعرف ماذا همس للرجل ولكن الحطاطي رفض ذلك بشدة.

في إحدى السنين التي ذهب فيها ثلاثتهم إلى وادي المزارع وفي إحدى السهرات التي تعاد فيها ذكريات وحكايات قد خلت، أعاد عزان بن سعيد سؤاله على الحطاطي بحضرة سعيد بن حمد، ضحك الرجل وهو يقول له:

- ود مرزوق يخاف من ظلته.

يدرك الحطاطي هذا في ود مرزوق، فهو رجل ترعبه فكرة الموتى ويخاف كثيرا من حكاية السحرة والمغايبة وحكايات الجن، ويعتقد بأن لكل ميت لعنة تبقى في المكان تلاحق بعض الذين أذوه في حياته، وما كان من الحطاطي إلا أن همس في أذنه قائلا له:

- جاي تسهر فبيته؟ بتلقاه يحرصك في القويرة.

يضحك الحطاطي وهو يتذكر وجه ود مرزوق الذي امتلأ رعبا، ومن يومها لم يقرب أحدهم من عزان أبدا ولم يحاول أن يستدرجه ثانية للشرب، بل حدثت قطيعة تامة بينهم جميعا وكأنهم لا يعرفونه ولا يعرفهم من قبل.

بعد إن هدأ المكان وخرج ود مرزوق وجنوده قال الشايب سالم بن علي له:

- يا ولدي كلنا نعرف إن أبوك كان مديّن ناس كثيرين وعنده صكوك، والحين إنت صاحب الحق ولازم توقف على كل هذي الديون.

قام عزان من مكانه وأحضر الصكوك الشرعية من المندوس وبدأ في قراءتها واجدا واحدا، وكان كلما قرأ صكا أكد الشايب سالم على صحة ما جاء بالصك، وإن تلك الأموال المرهونة توجد في مكان كذا وكذا من القرية.

أكد الشايب سالم بن علي بأنه سيقف مع الشاب حتى يستوفي حقه من دائنيه، وأنه سوف يذهب إليهم لوحده ويحثهم على قضاء ديونهم له.

استمع لكل كلمة يقولها الرجل العجوز الذي سعى ذات يوم لكي يعيده إلى بيته وأهله، كان يحترمه كثيرا في داخله، إذ لم يسمع منه كلمة قاسية طوال تلك الفترة التي غاب فيها في عوالم السكر.

وهو يقوم من مكانه قال الشايب سالم يتحدث إليه:

- ربك يحبك يا ولدي، الله يمتحن النفوس ويطهرها بالمصايب.

خرج الإثنان وبقي عزان وحيدا في بيته، ليس له سوى قطته التي تموء حوله، استلقى على الحصيرة وراقب النجوم تظهر وتختفي بين قطع السحب الخفيفة في صفحة السماء، ظل مكانه حتى غفت عيناه وغرق في بحر النوم العميق.

في الصباح تذكر المندوس وذهب ليفتحه ثانية، فكر لو كان لأبيه مبلغ من المال أين سيضمه في ذلك المندوس، نبش محتوياته كلها وأخرج ما فيه خارجا، كان قاع المندوس من الخشب المتين، نظر إلى الخشب المصقول بقاع المندوس وكاد أن ييأس إذ لا يوجد بذلك القاع سوى الفراغ الأملس، ولكنه عندما طرق الخشب بنقرات أصابعه سمع دويا مختلفا على الزاوية اليمنى منه، ثم لمح شقا خفيفا يمتد من الزاوية على مسافة خمسة عشر سنتيمترا، حاول تحريك الخشب في الزاوية ولكه بقي ثابتا، حينها قام من مكانه وأحضر سكينا من المطبخ ووضع حد السكين في الشق ورفع الخشبة فارتفعت، ثم ظهر سرداب صغير بداخل المندوس، مد يده وتلمس داخله فإذا به ممتليء بالأوراق النقدية وبعض الصكوك أيضا، بدأ يخرج ما به، كان هنالك مبلغا من المال يقارب السبعة آلاف ريال.

عثر على صك شرعي لمزرعة كبيرة خارج القرية مرهونة لأبيه وعثر هناك على عقد زواج قديم يعود لوالديه، وأيضا صورتين أحداهما لأمه والأخرى لأبيه قد وضعتا في ظرف صغير، ووصيتين لهما وجدهما في لفافة واحدة.

أعاد ما وجده إلى مكانه فهو ليس بحاجة إليه في الوقت الحالي، أعاد الخشبة إلى مكانها وبدل القفل بآخر ثم دس المفاتيح تحت الزولية التي تغطي أرضية الغرفة وخرج من البيت ليمشي في طرقات البلدة .

مرّ على سبلة الشايب سالم بن علي ولم يدخلها بل استمر في طريقه حتى جاوز القويرة، سمع دندنة العود وقد بدأت مبكرا ذلك اليوم فعرف بأنه يوم جمعة، إذ يجتمع السكارى كلهم وقد عادوا من أعمالهم البعيدة والمتفرقة في الجهات، صعد درج الحارة ونزل منها حتى جاوزها، مرّ على منزل الشايب سلطان، وبالقرب من بابه سمع همسا وكأن أحدا يناديه باسمه، توقف فرآى عينين جميلتين شاردتين تنظران إليه من شق الباب، كانت سارة بنت سلطان هناك بشرودها المعتاد وقد جمعتهما الصدفة ذلك اليوم لتلتقي عيناهما فتجفل المرأه وتصك الباب ثم تولي هاربة إلى الداخل.

لم يكد يعرفها، لقد سمع منذ زمن بعيد بأن للشايب سلطان إبنة جميلة وذكية لكنه اعتقد بأنها قد تزوجت منذ زمن، لم يطل وقوفه بالقرب من الباب حتى لا يحصل على لوم أحدهم، شق طريقه ذاهبا إلى تخوم القرية، مشى ذلك اليوم كثيرا حتى اقتربت شمس الظهيرة من رأسه، جلس ليستريح عند ساقية الفلج، أخذ كفا من الماء ورشق به وجهه ثم أخذ كفا آخر ودلقه في جوفه.

عندما سمع المطوّع علي بن مبارك عن حادثة خروج ود مرزوق خائبا من بيت عزان ملأه الأمل في دخوله في صفه، ولقد تحين الفرصة السانحة وها هي تتجلى أمامه لامعة مثل حجر كريم يلمع من ذاته، فرصة لا تعوّض أبدا إذ يعود فيها الطائر الجريح إلى وكره الآمن لكي يلقى الأمن والطمأنينة فيه حسب قوله.

لم يطرق بابه ولم يذهب إليه بل دس له من يعطيه بعض الأشرطة التي تحتوي على محاضرات في الصلاة ويوم القيامة وعذاب القبر وبعض الأناشيد الوعظية وكتيبات صغيرة عن عقوبة ترك الصلاة وغير ذلك من كتيبات الوعظ.

لقد قال الذي ناوله تلك الأشرطة والكتيبات وكانت في ظرف ورقي كبير وجميل، طرزت جوانبه ببعض الآيات والأحاديث التي تدل على أهمية الدعوة بالحسنى للدين، قال له:

- الشيخ علي يسلم عليك ويتمنى أن تقبل هديته البسيطة .

أخذ الظرف ووضعه في روزنة الدهليز، مكث هناك لأيام، نساه ولم يفتحه حتى التقى في طريقه ذات صباح مع المطوّع فسأله:

- عجبتك الهدية؟

كانت نظرة عزان وهو يستذكر الهدية التي جاءت من قبل الرجل ولكنه لم يستطع؟

- أي هديّة؟
- أرسلت لك كيس فيه أشياء، ما وصلتك؟

تذكر عندها الظرف ولم يزل يسدل أهدابه على عينيه محاولا الجمع بين صورة المطوّع وكلام من أعطاه إياه وهو يطلق عليه لقب شيخ.

لقد تعود الجميع على لقب الشيخ وهو يطلق على شيخ القبيلة، لم يكن هناك شيخ آخر غيره وهذا ما حيّر عزان، لقد كان يطلق من قبل على الرجل المتدين والذي يعلم الناس ويصلي بهم لقب المعلّم، لذا اعتقد بأن في الأمر لبسا ما، هزّ رأسه بالإيجاب، ابتسم في وجه الرجل وذهب في دربه.

بعد أيام وهو يدخل الدهليز لمح الظرف الذي نساه ففتحه، أخرج الأشرطة ثم بدأ يقرأ عناوين الكتيبات الصغيرة، كان هناك كتيّب عن عقوق الوالدين وعن ترك الصلاة وآخر عن إسبال الثوب وكتيّب عن أهمية اللحية وحف الشارب وكتيب عن صلاة الجماعة وآخر عن حجاب المرأة.

بدأ يقرأ باهتمام ما خُطّ في تلك الكتيبات الصغيرة، تساءل في نفسه لماذا يعطيه المطوّع علي بن مبارك هذه الأشياء، ازداد فضوله فأحضر المسجل وبدأ يستمع إلى الأشرطة، كان في أحدها محاضرة لعبدالحميد كشك وسط ضجيج وصراخ من المستمعين لها، وفي أحدها محاضرة لأحد الشيوخ أيضا والباقي أناشيد لم يستسغ سماعها.

مازال يعتقد بأن في الأمر لبس، فالمطوّع قال هدية ولكن ما وصله كان عبارة عن كتيبات ومحاضرات، وكان يعتقد بأن من أعطاه ذلك الظرف أخطأ، لذلك خرج من وقته باحثا عن الرجل وسأل في الطريق عن بيته حتى طرق بابه.

خرج المطوّع وتلقاه بالترحيب وكانت ابتسامته تملأ وجهه فرحا إذ أن الرسالة التي أرادها قد وصلت إلى الشاب ولكن الصدمة التي جعلت الحيرة ترقص في عينه ألجمت الفرح في وجهه وتبدل مهرجان الفرح إلى صحراء قاحلة تتهيأ لبعض الزوابع التي تثير الغبار.

قال عزان:

- خذ كيسك، الرجال بو اعطاني اياه غلطان.
- ليش ؟
- هذي أشياء تخصك، ما لقيت هدية في الكيس، شوية كتب وأشرطة
- وقرأت الكتب؟
- أيوا

- أيش رايك؟
- ما أعرف، أظن ما فهمت شيء.

كاد عزان أن يذهب إلا أن المطوّع فتح له باب البيت وطلب منه الدخول لتناول القهوة، أخذه للمجلس وهناك حاول ايضاح الفكرة له بأنه يحاول أن يهديه ليحضر معهم للصلاة ولسماع محاضراته في المسجد.

عندما خرج من بيت الرجل وهو يشيعه عند الباب سأله:

- بتجي تصلي معنا اليوم؟
- خير.

لم يزده على ذلك، ذهب في طريقه وقد نسي الأمر تماما.

في إحدى جلساته مع الحطاطي تذكر القصة فأخبره بأحداثها، ضحك الحطاطي مقهقها وهو يقول:

- ما لقى ود مبيريك غيرك يلبسه دشداشة على الركع؟

كان علي بن مبارك أحد دارسي علوم الفقه في معهد القضاء الشرعي وهو أول من تخصص في هذه العلوم من القرية في الوقت الذي قصد الكثير من الشباب العمل المريح بعد الثانوية مباشرة في الجيش أو في بعض المؤسسات الحكومية، ولم يكن يطرأ على بال أحدهم أن هنالك تخصص يهتم بأمور الفقه والدين ويخرّج قضاة ووعّاظ وأئمة مساجد، وعندما تعين بعد تخرجه في القرية كإمام مسجد كان لغط الكثيرين عن تلك الوظيفة العجيبة، فكيف تأخذ راتبا على صلاتك بالناس، إذ أن هذا لم يحدث من قبل، حتى أن الشايب سالم بن علي الذي كان يصلي بهم صلوات الأعياد والاستسقاء جاءه قبل ذلك بسنوات أحد المرسولين من مكتب الوالي حتى يتم توظيفه كإمام في القرية قال للوالي:

- أنا ما أبيع صلاتي.

حاول الوالي وموظف دائرة الأوقاف شرح فكرة الوظيفة والراتب له ولكنه كان مصرا على رفضه، قال لهم وهو يخرج من مكتب الوالي دون استئذان بعد أن شبع من كلامهم:

- باكر لما يسألني الله يوم القيامة ليش أخذت فلوس على صلاتك أيش أقوله؟ أقوله الوالي أمرني؟ بتتحاسب عني أمام الله؟

وعندما سمع الحطاطي عن وظيفة علي بن مبارك الجديدة في القرية قال:

- هذي من علامات الساعة، يتحول فيها الدين سلعة يتاجر بها الناس وياخذوا عنها فلوس.

بدأ علي بن مبارك فرض مبادئه الجديدة على أهل بيته ونساء ذويه فألبسهن الحجاب وغطى وجوههن عندما يخرجن في طرقات القرية حتى أن العجوز سلمى بنت سلطان عندما جلست أمام بيتها ومرت عليها أخته ورأتها على تلك الحال قالت:

- وصلنا المنكر والنكير.

مع السنوات التي تلت بدأ تأثير المطوّع علي بن مبارك في الشباب شيئا فشيئا حتى صار له أعوان يستمعون لمحاضراته ويأتمرون بما يقوله وصاروا يلقبونه بالشيخ.

في الأشهر التي تلت انشغل عزان بن سعيد بوصيتي والديه، استأجر من يحج عنهما، وتصدق من المال كما هو مكتوب أيضا، وبمساعدة الشايب علي والحطاطي أعطى لسالم بن خلف مبلغا كي يصوم شهرا عن كل واحد منهما، بذلك استوفى كل ما جاء في الوصيتين، ثم تفرغ بمتابعة الدائنين الذي بدؤوا يوفون ديونهم واحدا إثر آخر إلا صاحب المزرعة الكبيرة المرهونة في خارج القرية فلم يستطع دفع الرهن واقترح عليه شراءها بثمن الدين الذي عليه، فوافق مباشرة وتحولت المزرعة بصك شرعي جديد له.

الذي يراه في تلك الأشهر لن يعرفه ولن يتوقع كل ذلك التحول الذي حدث في ذاته، ثم أن الملل قد بدأ ينشر سجائبه الخفيفة من حوله، خاف أن تغره الأموال الطائلة التي لديه فيعود إلى معاقرة الخمر، لذلك ذهب إلى الحطاطي طالبا منه أن يذهب معهم في رحلاتهم إلى الجبال.

تولد عشق جديد في نفس الشاب، صار كلما عادوا من رحلة جبلية طلب أن يذهبوا مرة أخرى بعد أيام، حتى أن الحطاطي قال له:

- انت فيك ذرة جنون، وما تسوي شيء إلا تجن به، كان سكرك عجب، والحين جنونك بالجبال أعجب وأعجب.

وهو يتقبل كل ما يقوله الحطاطي بصدر رحب، يعتبره والده بعد أن فارقه الآخر، يجله ويحترمه ولا يأمره بشيء إلا وأطاعه، لقد أحب ذلك الرجل الذي اكتشف فيه الصاحب في المحن والرفيق في الدرب، وخير الحكائين في ليالي الجبال المعتمة.

عاد الحطاطي قبل رفيقيه إلى مقيل عقبة النخلة، مشى هبوطا في وادي النمارات ثم قطع دوائر الوادي، الساعة حينها توشك على الحادية عشر والنصف، وسعيد بن حمد وعزان ما يزالان في مكان ما في الجبل الشرقيّ.

تلمس جسد المطارة فوجده باردا، ولقد كان الإناء الذي وضع تحتها مباشرة يكاد أن يمتليء بفعل القطرات المتساقطة من قعرها، فعيب تلك المطارة الوحيد هو تسرب بعض الماء منها، لكنه يدرك تماما بأنها من أفضل المطّارات تبريدا، فهو يثق بها في ذلك الصيف الحار كما وثق بها كل صيف، فطعم الماء من فمها لا يشبهه طعم من مطارة أخرى، بارد عذب يكفيه كوب أو كوبان حتى يرتوي.

سوف يأتي الرفاق قريبا، لا أحد يستطيع أن يمكث في شمس الظهيرة كائنا من كان، حتى حيوانات الجبل تهرب في تلك الساعات إلى أماكن الظل، وسعيد بن حمد ذلك العفريت الذي لا يتعب سوف تطارده الشمس وسوف تأكل كل قوته وسيعود لاهثا باحثا عن جرعة ماء باردة تطفي لهيب ذلك الوهج الذي يصل إلى جوفه.

أما عزان فهو كضبان الصحراء لا يعطش ولا يشتكي، بل يكفيه أن يمر على حقلة صغيرة من الماء حتى لو كانت تغلي ليأخذ قليلا في كفه فترويه، وسوف يجيء كعادته يمشي بطيئا هادئا ومحملا ببعض الحطب اليابس الذي عثر عليه في قدومه، فهو هكذا لا يعود خالي اليدين أبدا.

عليه أن يناديهما ليعودا، رائحة النار هي صوته الذي سيصل إلى الأعالي، رائحة القهوة هي من تجعلهما يتركان كل ما يبحثان عنه ويستسلمان لها.

وضع دلة القهوة على الأثافي الثلاث وقد ملأ نصفها بالماء، أشعل النار فانبثقت خافتة خجولة يكاد يقتلها الدخان من بين الحطب، استعان ببعض حشائش السخبر اليابسة لتتقوى وتهدر لكنها خيبت أمله وماتت، اعاد ايقاد النار بعد أن أزاح الدلة عن موضعها في قمم الأثافي، انتظر حتى خرجت ألسنة اللهب هذه المرة قوية وهي ترقص مع ريح الظهيرة، وضع الدلة ثانية وترك النار تكمل الباقي قبل أن يلقي بنثار البن في جوف الدلة.

تحتاج الدلة لثلاث أثاف حتى تقف منتصبة لاستكمال القهوة، ، الرحلة الجبلية تحتاج إلى أثاف ثلاث أيضا، لا يمكن أن تكون أقل ولا يفضل أكثر من ذلك، فهم الأثافي الثلاث، هو ناصر بن سالم الحطاطي، وصديقه العنيد عناد الجبال الرواسي سعيد بن حمد، وذلك الشاب صاحب الأعصاب المتينة والقوية عزان بن سعيد النحال، وهو من أكمل حلقة الأثافي وصارت الرحلات به رائعة.

كل رحلة تحتاج إلى رفقة، فالرحلة ليست هدفا، والبحث عن العسل ليس مهما، الرفقة هي الأهم، هي من تصنع الذكرى للسنين المقبلة، وهي من تفتح سيل الحكايات في الظهيرة تحت ظلال الأشجار الجبلية، تلك الظلال البائسة الضئيلة، حيث ينكمش كل شيء ويبقى مجرد خيال ظل تحت كل جذع ، حيث سينكمشون يحاصرهم الحر والوهج وانقطاع الهواء والعطش.

منذ الساعة الثانية عشرة وحتى الثالثة إذ تميل الشمس قليلا ويتمدد الظل ناحية الشرق حينها تنفتح ساقية الريح وتحلو القيلولة وينوس رأس الحطاطي غير آبه بسماع حديث صاحبيه، فيجب عليهم جميعا أن يمدوا أرجلهم أكثر تاركين أجسادهم لبضع دقائق لغفوة تحمل معها تعب البحث الصباحي، ولأن عليهم البحث مرة أخرى بعد صلاة العصر إلى أن تسلم الشمس من قمم الجبال، فقيلولة قصيرة مهمة جدا في تلك الحال.

فاحت القهوة، خرجت رائحتها النفاذة من فوهة الدلة وحلقت في الأعالي حتى دخلت في أنوف الكائنات المندسة في الكهوف وتحت أشجار اللقم والقفص والشوع، كان سعيد بن حمد على مقربة من المقيل ما يزال يضرب بمنظاره ما استطاع من كهوف وأشجار باحثا عن تلك الخلية، لم يبدو عليه اليأس ولولا أنه يدرك بأن الهبوط لا محالة في تلك الظهيرة لكان قد استكمل بحثه، لكنه قد ترك الكثير للمساء وللأيام القادمة أيضا.

أن تجد ما تبحث عنه مهم جدا، لكن ما الذي ستفعله بعد ذلك؟ فلابد من استكمال الرحلة تماما حتى نهايتها، فهل سيعود الرفاق إلى قريتهم بعد أن يعثروا على خلية النحل تلك، من المستحيل طبعا، فلديهم زاد يكفي لثلاث أو أربعة أيام، وعليهم أن يبقوا هناك تلك الفترة كلها.

هو لا يستعجل الحصول على الشيء مهما كانت اللهفة حاضرة للعثور عليه، إن متعة البحث والصعود واستكشاف الأشياء والحشرات وكائنات الجبل وحدوث بعض المصادفات أهم لديه من العثور على ضالته، فهو لا محالة سيعثر عليها في النهاية، هي هناك في مكان ما في القمم لن تغير مكانها فجأة وعليه أن يصل إليها كما أن عليه أن يقرأ جيدا سلوك وطيران النحل، وأن يرسم خرائط بديلة لدروب يتخيلها تصعد نحو تلك الخلية، عليه أن يخمن المكان الأنسب والعكس تماما، عليه أن يبحث في الأماكن التي لا تطرأ على البال.

ما إن فاحت القهوة وانتشر عبقها في الأجواء حتى جاء الرفاق وقد أخذت الشمس منهم ما أخذت، في تلك الظهيرة التي تبدأ فيها ريح الغربي بالصفير ساخنة تكاد تحرق كل ما تمر عليه، وتأخذ معها ما تبقى من مياه المستنقعات الراكدة والينابيع الصغيرة.

هبّت ريح الغربي فهزت أغصان الأشجار، صار المكان مثل تنور حار، انكمشت الظلال واندس الرفاق مطاردين ما تبق منها بين النخل وأشجار اللثب.

بعد ما تناولوا القهوة قام سعيد بن حمد وصنع موقدا للغداء، ولأن الريح على أشدها فلقد بنى حاجزا من الحجارة حتى يقي به النار التي لا تكاد تستقر من شدة الريح، كان الغداء بسيطا، بعض من السمك المملح وشرائح البصل والليمون تناولوه مع الرز الأبيض، كانت الوجبة المناسبة لتلطيف الجو والشعور بالاسترخاء في وقت كهذا، ثم استسلموا جميعا لقيلولة ملحة بدأت بالحطاطي حتى وصلت إلى عزان بن سعيد.

عندما مالت الشمس قليلا في الساعة الثالثة قاموا مرة أخرى لصعود الجبل، وضعوا احتمالات جديدة عن مكان الخلية ثم انتشروا كل منهم ذهب إلى مكان، هدأت الريح قليلا وخفّت سخونتها، الريح الغربية التي لن يستطيع كائن البقاء في مواجهتها، إذ تركن الكائنات إلى الظلال مستكينة في شقوق الجبال أو في ظلال الأشجار الوارفة أو تحت الحجارة حتى ينتهي ذلك الموال الأشد قسوة في الضهيرة.

في الدرب الصاعد طار من تحت أقدام سعيد بن حمد طائر قطا فعاد إلى مقيلهم وأخذ بندقيته المعلقة على الشجرة، علقها على كتفه، لقد نسي أن يأخذها معه، ففي تلك الساعات تبدأ طيور القطا والصبّا في الخروج والاقتراب من موارد المياه، وكان يمني نفسه في وجبة مسائية طازجة، لذلك لام نفسه كيف نسى بندقيته ولم يأخذها معه.

صعد رأسا إلى القمة، بينما ذهب عزان في الاتجاه الجنوبي للجبل محاولا الدوران حول الوادي، كان في طريق كل منهما الكثير من الشقوق وأشجار العسبق، بينما ذهب الحطاطي منحدرا مع الوادي حتى ملتقى الوديان، ومن عند سدرة وادي النمارات بدأ يصعد الجبل متجها صوب البقعة التي اختفت فيها النحلة التي رآها آخر مرة في الوادي.

لا يفهم الكثير من أهل القرية تلك العلاقة التي تربط سعيد بن حمد بالحطاطي، فمنذ بدأت وهما لا يذهبان إلا معا، سعيد بن حمد الذي يلقبه الناس بالمغيزلو لحلاوة لسانه واهتمامه بانتقاء الكلمات الرطبة التي تجعل من يكلمه ينصت إليه معجبا بكلامه، بينما الحطاطي رجل لا يعبأ بالكلمة التي يطلقها من فمه، يطلق السباب والنكات في وجه من يقابله دون أن يكترث لشيء، حتى أنه مرة تصادف مع المطوّع علي بن مبارك واسمعه بعض الكلام الذي أغاظ الرجل، قال له ود مبارك:

- على الأقل تعلم من ربيعك كيف تتكلم.

قالها بنزق مما جعل الحطاطي يقع من وقفته ضاحكا، كانت تلك حالته في إغاظة بعضهم، فهو لن يرتاح حتى يفقدك صبرك ويخرج شياطين الغضب من داخلك.

بينما سعيد بن حمد ذلك المغازل الكبير، ما إن يصادف امرأة في طريقه إلا ويستوقفها متحدثا معها بطريقته العسلية التي تشنف لها آذانهن، كان يجذب المرأة إليه بالكلام، حتى أن بعضهن كنّ يتمنين وهن في طريقهن بين الحقول أن يصادفنه.

تقول شمسة بنت عبدالله وهي إمرأة عجوز تقرب لزوجة ناصر الحطاطي:

- ود حمد شيطان من شياطين الإنس، يغوي بلسانه حتى الحجر.

بدأت التهم تسري بين النساء، فلانة بنت فلان تسري ليلا إلى المغيزلو، هو صاحبها، وبعد فترة تسري تهمة أخرى عن امرأة أخرى، أما الرجال فلم يستطيعوا إلا نقل الأخبار والوشايات بخفوت وسرية حتى لا تصل إليه، لكن كل ذلك الكلام كان يصل إلى مسمع المغيزلو دون أن يأثر فيه.

المغيزلو هو يعسوب الماء، يطن ويتحرك أعلى صفحات مياه البرك، يذهب ويجيء وكأنه يغزل ثوبا وهميا أو حكاية في الأثير، وسعيد بن حمد كثير الحركة في البلد، يذهب ويجيء، يزور هذا ويعود ذاك، وعندما لا يجد عملا يقطع القرية من أقصاها إلى أقصاها متحدثا مع من يلاقيه في طريقه، أحدهم أطلق عليه هذا اللقب، كان في البداية سريا بين مجموعة من الشباب ثم انتشر حتى عرف عنه، عقد سعيد بين حاجبيه يتأمل اللقب، أعجبه هذا التشبيه بينه وبين اليعسوب فلم يستضيق، بل هز رأسه وابتسم.

لم تسلم امرأة من الوقوع في حبائل سعيد بن حمد، وكانت ميمونة بنت خميّس تقف معه ما يقرب من ساعتين حينما تصادفه في طريقها، ثم صارت تترصد مروره لتستوقفه، وهو لا يبالي

بالوقت، بل يجد متعته في الحديث مع الناس وخصوصا النساء، وعندما تنازع معها زوجها قال لها:

- الناس يتكلموا عليش واجد تتكلمي مع ود حمد.

ردت عليه دون اكتراث :

- روح تعلم الهرجة كما يهرج.

لذلك قيل بأن ميمونة صارت الحبيبة التي يسري لها سعيد بن حمد ليلا، أو تسري له، بعضهم حلف أغلظ الأيمان بأنه رآها تدخل شغفا وبعد ذلك بقليل رأى المغيزلو يدخل خلفها، بعضهم رآهما يخرجان من ضاحية في آخر البلدة وحيدين يمشيان بجانب بعضهما.

لم يكن سعيد بن حمد ليكترث بعلاقات النساء من قبل، لم يكن يهمه سوى عمله ورحلاته الجبلية، ولكن بعد أن جرب تجربته الأولى مع مبروكة بنت أحمد التي كانت توقفه في الطريق وتحادثه لوقت طويل حتى بدأت معهما المواعيد السرية التي ما إن وقعت مبروكة في شباكها لم تستطع الفكاك منها، وكان كلما ذهب إلى عمل بعيد عن البلد لأيام أو ذهب إلى الجبال تكاد تجن من انتظاره.

مبروكة المتزوجة من إبن عمها قيس، والذي بحكم عمله البعيد يستمر لأسابيع حتى يعود إلى القرية وما إن يعود حتى يندس في جماعة ود مرزوق حتى تنتهي إجازته، ولا يعود إلى البيت إلا للنوم أو للأكل، وأحيانا يبقى هناك حين لا يتوفر شراب مع جماعته، ويكون وجوده في البيت وهو في حالة الصحو وبالا على مبروكة وعلى بناتها الست، حيث لا ينكف يصرخ في وجهها ويضرب بناتها ويوصفهن بأقذع العبارات.

قالت له مبروكة وهي تجلس بجانبه ذات ليلة حالكة:

- أنت جنتي.

لكن سعيد بن حمد لا يشعر بهذا الكلام في قلبه، لا يعنيه ما الذي تشعر به، لقد أعجبته التجربة وشعر بصدره ينفتح فجأة لمغامرات أشد وأعمق.

لقد قرر في ذاته الوقوف أمام أي امرأة في القرية ومغازلتها حتى يواعدها، وكان كلما خلص من إحداهن وسقطت في شباكه يزداد جوعه أكثر.

ولقد حدثت مناوشات عدة بين الرفيقات وازدادت الصراعات السرية التي لا يعرف عنها الرجال، فكل واحدة منهن تريد أن تكسبه لنفسها فقط، ولكنه كان يوزع نفسه بينهن حسب احتياجاته وميوله.

أحيانا يحب البدينات فلا يواعد غيرهن، يتمادى في الاختلاء بهن حتى في بيوتهن عندما يغيب الأزواج، ثم يتركهن للنحيفات أو يختار الصغيرات اللاتي تزوجن قريبا، وأحيانا يبحث عن النساء الكبيرات، حتى كاد أن يمر على كل نساء القرية ولكنه مع ذلك يدرك في قرارة نفسه مكامن الخطر في بعض النساء، يفهم ذلك من قراءته لعيونهن وتوجسهن كلما التقاهن وتحدث

معهن، أو من طريقة اللقاء في الدرب وتجفلهن وابتعادهن ومن طريق الحديث المقتضب معه فلا يتمادى في إذلال نفسه بالدخول في درب لا طائل منه.

إن من تريده ستأتي لوحدها دون عناء، كن يقفن في طريقه ويبدأن بالسلام عليه ثم تبدأ الحكاية الطويلة التي صار يعرف نهايتها الحتمية، ولأن كل أمرأة وطبيعتها فهو يندس في نفوسهن مثل عطر جميل وهاديء، لا يشعرن بغرابته ولا يكتفين منه.

ولكنه مع أسماء بنت نوفل يصير هادئا صامتا، يتحدث معها كمن يتحدث مع سيدة مبجلة يخاف أن يرفع صوته فيدنس تلك القداسة.

وهي تعرف حكاياته مع نساء القرية لكنها تتجنبه، وكلما طرق باب بيتها باحثا عن الحطاطي تضع لحاف شعرها لثاما على فمها وتحدثه من خلف اللثام، كلمات مقتضبة وسريعة، فإذا كان الحطاطي هناك فتحت الباب له، وإن لم يكن تدله على مجلس الرجال إن أراد أن يشرب فنجانا من القهوة، لكنه يعتذر ويذهب ليعود مرة أخرى باحثا عن صاحبه.

عندما عرفت أسماء بأن أهل القرية يطلقون لقب مغيزلو على سعيد بن حمد ضحكت، قالت لزوجها:

- حد غلبك في الألقاب.

ولم يكن الحطاطي ليكترث لكل الكلام المتناقل عن صديقه، بل أن أحدهم قال له:

- ما تروم تناصح صاحبك؟ مستوي مثل تيس الهدود كل مرة على وحدة؟

رد عليه الحطاطي بنزق:

- لأنه رجّال، وانتوا لو رجال ما تروح حريمكم صوبه.

قال له وهو يغادر المكان:

- إنته ماحد يروم يتفاهم معك فشي.

هناك حدود وحواجز لكل من الحطاطي وسعيد بن حمد لم يتعداها أحدهما أبدا، فعلاقتهما تبدو بعيدا عن مسألة المناصحة واللوم، يستقبل بعضهما الآخر كما لو كان بينهما حكاية بدأت من قبل ولم تنتهي، ولا يدخلان في نقاشات خاصة بهما إلا ما له علاقة بالرحلات الجبلية أو فيما يغيظ به أحدهما الآخر دون التطرق إلى ما يمس ذاتهما وينفرهما من بعض، لذلك كان الحطاطي يتقي كل حامل كلام حتى لا يتقول عليه مع صاحبه.

مع هذا لم يصادف أن نازع أحد من القرية سعيد بن حمد في شيء، بل كانوا يثقون به في فضّ النزاعات القائمة بين الأخوة وأبناء العمومة، أو بين أي شخصين في القرية، كان المتنازعون يدركون أنه لا سبيل إلا للمصالحة عندما يطرق سعيد بن حمد أبوابهم، فهم أمام لسانه العجيب ذلك لا يستطيعون إلا الموافقة على كل كلمة يقولها.

الكثير من الخبر عن علاقات المغيزلو المشبوهة ينتشر ولكن بهمس حتى لا يصل إلى مسمعه أو إلى المرأة وزوجها، ولكنه يصل، ووصل أيضا إلى مسامع زوجته فزعلت عليه، وعندما تحدث معها وسألها وحاول أن يعرف ماذا بها، قالت له باكية:

- الناس يقولوا عنك تروح مع حرمة من البلاد
- وانت أيش تقولي؟

لم تحر جوابا، ظلت صامتة، كانت الوحيدة التي لا تستطيع سماع كلامه المنمق والذي تشعر به مفتعلا أكثر من كونه جادا، لكنها تحترمه وتوقره وتعيش معه لأجل أبنائها.

تزوج سعيد بن حمد من بدرية بنت سعود وهو في الثامنة عشر من عمره، وكانت هي في الخامسة عشرة، امرأة رشيقة القوام ذات عينين يشعان ذكاء، لا تعرف في الكثير من الكلام، لكنها حادة في تعبيرها عن كل شيء ولا تتوانى في إبداء رأيها وإلقاء الكلام دون التفكير في ما يسببه، ومنذ الأشهر الأولى كان بينها وبين سعيد بن حمد ذلك الصراع الصامت في محاولة منه لترويضها حتى لا تفقد محبة الناس لها وأن تلاطفهم في كلامها، وكانت تقول له كلما حاصرها بالكلام:

- ما أعرف أتملق مثلك.

هي قريبته البعيدة، تربطه بها أواصر رحم بعيد، لم تعش في بلدته، كانت تقرب لأهل أمه في الساحل، وعندما جاءت إلى قريته كانت تعامل الناس بطريقة أهلها وبأريحيتهم، إلا أن أقاويل أهل القرية ولسانهم بدأت تخرج في وصفها، مما جعلها تتقهقر وتنعزل شيئا فشيئا وتغلق بابها عليها إلا من الضرورات، وصار كلامها مقتضبا وحادا حتى أن أباها عندما زارها ذات يوم ووجد ذلك التغير في ابنته عزا ذلك ربما لنضوجها كامرأة.

ولدت له أربعة أولادا ذكورا، وكانت تمني نفسها في الحمل الرابع أن تكون المولودة بنتا، لقد شعرت بوحدتها التي تحتاج فيها لشيء من الأنوثة يرطب أيامها، ولكن عندما جاء المولود الرابع بكت من الشوق لحلمها وضمت طفلها الرضيع إليها وقالت وهي تنظر إلى السماء:

- كل شيء منك نعمة

ولكن المولود الخامس جاء بنتا، فتغيرت حياة بدرية رأسا على عقب، أضفت إليها تلك الطفلة روحا كانت قد يئست في عودتها، لقد شعرت بجفاف الأيام التي قبلها، كأنها تعيش في وسط صحراء قاحلة، صحراء تصفر فيها الرياح وتذرّ التراب في العيون والنفس، وليل نهار كانت تعد الأيام التي تنتهي فيها تلك السنين الممحلة.

وأخيرا شعرت بالخصب، وكانت قد غفرت لزوجها سعيد بن حمد ما وصلها عنه في علاقاته المشبوهة مع كثير من نساء القرية، صارت تبتسم في وجهه وتلاطفه وتغني بالقرب منه.

لاحظ ذلك ولم ينتقدها، شعر بما شعرت به، أحس بها تخرج رويدا رويدا من عزلتها التي رافقتها ما يقرب من اثني عشرة سنة، قليلا ما تخرج فيها إلى بيوت جيرانها، لكنها الآن وقد تلونت حياتها بالربيع فهي تبحث عن كل مبهج وفتنة، ولا تكترث بالأقوال المنقولة عنها، فصارت

تحضر الأعراس وتغني في الزفة وترقص رقصها البديع الذي بدأت نساء القرية يغرن منه، وحاولن مجاراتها في رقصاتها ولم يفلحن، وطلبت بعضهن منها أن تعلمهن كيفية رقصها، وهي تبتسم لهن وتضحك ثم تقول لهن:

- واجد سهل، تعلمن السباحة في الماي، الرقص كما السباحة، بو تخاف تغرق ما تتعلم.

وهي تسبح في كون من السحر، كما كانت تسبح في بحر الباطنة العميق، ترقص حتى تلتف عليها النساء يصفقن بأيديهن، وهي ترقص وتضع الايقاع بيديها، تصفق إيقاعا معينا ثم تبدأ في هز جسدها الجميل والرشيق، وعلى الرغم من الولادات الخمس الماضية إلا أنها ما زالت تمتلك تلك الرشاقة التي لا يعرف نساء القرية ما سببها ويتحسرن منها.

مرة قال لها سعيد بن حمد:

- يوصفوا رقصش غاوي في العروسات.

أحنت رأسها خجلا واحمرّ وجهها، ولكأنه يراها لأول مرة في حياته، لقد رأى أنثى مختلفة تماما عن تلك التي عاش معها، شعر بالأنوثة تملأ البيت وبالحياة تتفتح مزهرة في أركانه، وعندما طلب منها أن ترقص له في الغرفة بعد أن أوصد الباب للنوم، ارتفجت من الارتباك وترددت ورفضت في البداية طلبه، كان خجلها منه كبيرا، فهو لم يرها من قبل على تلك الحال، ولم يحدث أن رقصت زوجة لزوجها في هذه القرية، فهن يرقصن في تلك الأماكن المغلقة حيث لا وجود لرجل أي كان، لكنه أمسك بتلابيب قلبها عندما قال لها:

- عشان خاطر زهرة.

وكانت قد أسمت ابنتها زهرة، فما كان منها إلا أن قامت وربطت خصرها بلحاف شعرها، تاركة للشعر أن ينسدل مثل شلالات وادي الميابين، وبدأت ترقص.

كانت في البداية ترقص بوجه محمر من الخجل، ثم أغمضت عينيها ورحلت شاقة طريقا في المروج المخضرة في الروح، رقصت على إيقاع يديها، اهتز خصرها واهتزت معه كل شعرة في جسد سعيد بن حمد، مع ذلك ظل ساكنا وكأنه في محراب صلاة، بل كان جالسا على الأرض وكأنه قد جلس إلى التشهد الأخير لصلاته مستقبلا جمال الرقص وجمال زوجته الذي يتفتح رويدا رويدا أمامه مثل زهور جبلية عبق شذاها في المكان.

في تلك الليلة أخذها سعيد بن حمد بين ذراعيه وعانقها بلطف، كانت تبكي وكأنها عادت من سفر طويل.

كبرت زهرة عاما بعد عام وكبر معها قلب أمها، تحبو البنت في حوش البيت فتزقزق عصافير صغيرة وملونة في عيون بدرية، تمشي خطواتها الأولى فيتدحرج القلب في الصدر خوفا أن تقع ويصيبها مكوه، وكأنها تمارس الأمومة لأول مرة، تكبر البنت فتصير رفيقتها في كل شيء، تبخرها كل يوم وتقرأ عليها التعاويذ خوفا من عيون الحسد، تعلمها السور المنجيات وتجلس عند رأسها وتحكي لها الحكايات القديمة التي تحفظها حتى تستسلم للنوم.

وما زال سعيد بن حمد المغيزلو كعادته، يقطع طرقات القرية متواصلا مع الناس كما يذهب إلى دروب الجبل، يعرف الطرقات والسكك، كما يعرف الشغوف والممرات الوعرة، يقرأ عيون النساء اللواتي يصادفهن في طريقه ويرى توقهن أو انزعاجهن من حضوره، وأحيانا كثيرة يقرأ الخوف في بعض العيون خوفا من غوايته.

فإذا جلس مع العجوز كاذية بنت مرهون لا يتركها حتى تشرق من الضحك، وعندما يقوم ليذهب كانت تردد دائما على مسمعه :

- جيتني وأنا عجوز يو الغاوي.

ولكن شيئا تراجع في نفسه بعد تلك الليلة التي رقصت فيها زوجته، كان كمن يتذوق أنواعا كثيرة من العسل حتى وجد عسله النادر، فتح عينيه فجأة فانفتح قلبه على خلية نحل مختبئة بالقرب منه، كانت تقول له أنا هنا بالجوار تعال اقترب، وكان لا يعبأ بها، حتى أكتشف مذاقها الخرافي.

حدث ذلك مرة وهو في بحثه عن العسل في جبل الذروة، فلقد صعد باحثا بين الحجارة والأشجار كما اعتاد عن خلايا العسل قبيل الربيع، وهو كعادته في ذلك الوقت يبحث عن العسل الشتويّ، والذي عادة ما يجده مختوما ينتظر اليد التي تمتد إليه لتأخذه، صعد وفتش فيما تناله عيناه بالقرب ولكن ذلك اليوم لم يحصل على شيء إلى أن وصل إلى القمة.

هناك تحت تلك القمة المدببة العظيمة جلس يستريح من تعب الصعود، لقد بدأ ارتقاءه لذلك الجبل منذ الفجر وها هي الساعة في معصمه تشير للواحدة ظهرا، كان الجو لطيفا أقرب لبرودة الشتاء من حرّ الصيف في ذلك المرتفع الصخري، جلس عند شق رطب تدلت منه أعشاب السعتر الجبلي، وقد اخضرت أوراقها ونشرت رائحتها النفاذة في المكان، ولقد قرر أن يجز تلك العشبة ويأخذها معه لندرتها وعلمه بفائدتها الغذائية والطبية، فما إن استراح حتى قام ليقطف ما تمتد إليه يده في ذلك السفح، وكان كلما جزّ حزمة منها نثرها على الأرض المشمسة حتى تجف.

قضى ساعتين كاملتين حتى ملأ أرضا منبسطة بالسعتر، ولقد قرر البقاء حتى نهار اليوم التالي وبعدها يلملم الورق اليباس ويجعله في عمامته ثم يحمله معه.

استصلح له مرقدا على السفح ثم تمدد يستريح من عناء العمل، وأنصت للكائنات من حوله وقد أغمض عينيه.

هنالك سرب قطا يمر بالقرب ولقد سمع رفرفة أجنحتها، طائر شنا يصدح في أسف الجبل، طنين بعوض بالقرب من أذنيه، هديل حمامة جبلية، حشرة صرّار تصرّ في شق بالجوار، ثم سمع طنين نحل خافت يأتي بين الفينة والأخرى ويخفت.

تحركت مقلتاه في محجرهما وهو مغمض العينين، أصاخ السمع أكثر، أدرك أن في المكان الذي ينام فيه توجد خلية نحل قريبة جدا، فهو لا يتوهم تلك الأصوات، فلديه سمع يستطيع أن يميز به كل الأصوات المحيطة، ولقد تأكد بأن الصوت يأتي من فوق رأسه مباشرة، صوت ضئيل وخافت، فتح عينيه وحرك رقبته إلى الخلف شاغبا بنظره إلى جسد الجبل فرأى الخلية متعلقة أعلى أعشاب السعتر.

كانت الخلية كبيرة، ولقد توسع طوقها بما يقارب ارتفاع متر وعرض نصف متر حتى حوت الشق الذي تعلقت فيه، قام من مكانه مقتربا منها، أخذ بعض أغصان السعتر اليانعة ونكش بها الطوق فانزاح النحل الصغير هاربا ومفسحا له لكي يرى حدبة العسل المختومة في الأعلى.

أخرج وعاء من حقيبته وملأه بالعسل، لقد كان عسلا مختلفا عن كل الأنواع التي تذوقها في حياته، كان لونه أبيض لبنيا وكثيفا لم يرى في حياته مثله أبدا، كيف لعسل أن يكون ناص البياض هكذا، وعندما تذوق ما علق بين أصابعه أخذته الرائحة والمذاق إلى صنوف الأزهار ولكنه لم يحدس بنوع الرحيق الذي تجمع منه ذلك العسل.

قرب أنفه مرة أخرى معبأ رئتيه من الرائحة محاولا تذكر أين شمّها وعندما نظر إلى السفوح القريبة تذكر كل شيء.

عندما كان يصعد كانت تلك الرائحة تقابله في المنحدرات التي أزهرت بها أشجار السرح، ولقد وجد رائحتها غريبة عليه في البدء حتى تعرف على زهرتها ومن أين تخرج، ثم نساها مع صعوده وبحثه.

لم يحصل من قبل أن عثر على عسل السرح الأبيض، كان الوعاء ممتلئا عن آخره بالبياض، وبرغم أنه قد سمع حكايات ناصر بن سال الحطاطي إلا أنه لم يتوقع أن بعضها صحيحة، ومن كان يتوقع في ذلك الارتفاع الشاهق أن يجد ذلك السر الذي لا يعرف عنه الكثير من الناس.

شراب مختلف ألوانه، نعم لقد رأى عسلا أصفر وبنيا وأحمر وأسود وبعضه أصفر مخضر ولكنه ولأول مرة يجد هذا البياض العجيب في ذروة السعتر.

وبدرية هي عسله النادر الذي لم يتوقع أن يجده بالجوار.

بعد تلك الليلة الخصيبة والتي أعادت له توازنا كان قد فقده منذ زمن قرر أن يهدي زوجته شيئا نادرا دون أن يخبرها بذلك، خرج من البيت في الصباح الباكر متوجها إلى شراج وادي مقدسي وبدأ يقطف أعوادا من كل عشبة ذات رائحة زكية، قطف مهدهدي وسخبر وجعدا وريّح، قطف الكثير من الأعواد وحزمها في قبضة واحدة ثم عاد مسرعا وقبل أن تخرج من البيت، دخل عليها وقد انتهت من إعداد الخبز وناولها تلك القبضة من الأعشاب وقال لها:

- توحيها.

فلما شمتها تفتحت مثل أعشاب السفوح وأشرق وجهها وابتسمت، ثم قال لها:

- انت الريحة اللي ما مثلها ريحه.

فاحمر وجهها من غزله فشعر بصدره يتسع لعوالم من الفرح والزهور، وسمع أهازيج الأعراس في أنفاسها، بينما كانت عيناها تتدفقان سحرا وزهورا وعسلا نادرا.

عاد الحطاطي من بحثه خالي الوفاض، وصل إلى المقيل والشمس قد فارقت الوادي منذ مدة لم يتبق سوى ضوؤها الضيئل في قمم الجبال، وكان أول الواصلين، وقبل أن يخيم الظلام على المكان بدأ في نقل حقائب الزاد إلى مرقدهم في الليلة الماضية.

لقد سمع وهو بالقمة صدى رصاصة يتردد بين الجبال، ولقد خمّن أن سعيد بن حمد قد أصاب شيئا من الطيور، كانت رصاصة واحدة فقط، وصل صراخها إليه وبقي صداها يتردد لثوان قبل أن يعود المكان إلى هدوئه، ولم يتبق سوى بعض ترنيمات الريح على العشب اليابس في السفوح.

كانت الريح في الوادي على أشدها تعصف في تلك اللحظة بالشجرات وتقلّب الأعشاب اليابسة التي اقتلعتها وهي تتدحرج على ضفاف الوادي وتعلق بين الحجارة قليلا ثم يجرفها تيار الريح الشديد معه مصطدمة بالصخور حتى تتفتت وتصبح نثارا .

اتكأ الحطاطي على حقيبته ثم أخرج من محزم إزاره كيس الغليون وأخذ قبضة بإصبعيه ثم دسها في فمه.

انتظر قليلا حتى يسري الغليون إلى رأسه، كانت كل مضغة منه تعيد توازنه وتذهب الكثير من تعبه، وهو الرجل الكبير في السن لم يبق له الزمن شيئا سوى مضغة الغليون تلك والتي يتمسك بها كشيء عزيز.

في الرابعة عشرة من عمره كانت ذكرى أول مضغة يضعها في فمه، يتذكر تفاصيل ذلك اليوم الذي لا ينساه أبدا، كيف أنه جلس مع الشايب حريمل ورآه يضع المضغة فطلب منه يجربها، قال له:

- يا ولدي مضغتي يبغالها رجال.

شعر بالإهانة إذ كان يرى نفسه في مصاف الرجال الكبار فقال للرجل:

- هات خلني أجرب.

أخذ الشايب حريمل قليلا من الغليون وأعطاه إياه في وسط كفه معلما إياه كيف يضعه بين شفته السفلى وأسنانه، فوضع الحطاطي المضغة كما علمه الرجل وبدأ تأثيرها يسري في رأسه وفي جسده.

شعر وكأن نملا كثيرا يمشي في أنحاء جسده، شعر بأطرافه تتخدر وبرأسه يثقل، كان في بداية الأمر يسخر من الرجل وهو يقول له:

- مضغتك ما سوت شيء.

ولكن الدوار بدأ يحيط بعينيه، قام محاولا تغيير جلسته وإبعاد حالة الدوار تلك ففقد توازنه وسقط جالسا، كان الرجل ينظر إليه متمعنا فيه صامتا يرمقه بعينين حادتين تفصحان ما بداخله من تهكم وسخرية بذلك الطفل الذي حاول مجاراته في مضغته التي لا يقاومها الرجال الكبار.

كان الشايب حريمل يستخدم غليونا يسمى بالحطاطي نسبة إلى وادي حطاط الذي يزرع فيه ذلك الغليون والذي يعتبر من أجود وأقوى الغليون المعروف ذلك الوقت، ومن عادة الشايب أن يجعل

تركيز الغليون أكثر في المضغة، حيث لا يضع علي نثار الغليون إلا قليلا من الرماد لإطفاء حدته قليلا، ولقد تعود على تلك الحدة ولم يكن يرضيه بعد ذلك إلا أن يكون تركيزها عاليا حتى يصل إلى قمة النشوة.

الكثير ممن طلبوا منه مضغة لم يعودوا يطلبون منه، لقد أدركوا أنه يصعب مجاراة الشايب وتركوا له مضغته، لقد أصابهم غليونه بالدوار والخدر الذي يشبه الشلل حتى أنهم لم يستطيعوا التحرك شبرا من مكانهم، وفوق هذا دلقوا ما في بطونهم وتقيئوا على الأرض حتى كادت أمعاءهم تخرج من أفواههم، واختلط مخاطهم بدموعهم من شدة ما هم فيه.

كان حريمل أحد الشواوي الذين يسكنون بأغنامهم قريبا من القرية، وفي أوقات القيظ يهبط دائما إلى الحارات ويجالس الناس ثم يعود نهاية النهار إلى مكان سكناه، وكان كعادة الشواوي يتنقل بأغنامه من مكان إلى آخر متتبعا العشب والمطر.

في بعض فصول السنة يذهب الشايب حريمل إلى وادي حطاط ويستقر هناك لفترة ثم يعود مرة أخرى ليستقر تخوم القرية أو يذهب إلى الوديان البعيدة، وعندما يكون بالقرب من القرية يفضل تواجده دائما فيها مستأنسا بالناس وجارا حكاياته التي تعجبهم عن سفراته ومغامراته.

والشايب حريمل لا يرد يد أحد يطلب منه قليلا من مضغته، فهو يريد أن يرى بأم عينيه ما الذي تفعله بمتعاطيها حتى يبدأ في ضحكه وسخريته منهم. والحل الوحيد في كف يد الطالبين أن يجربوا ولذلك سمح لناصر بن سالم الحطاطي أن يجرب المضغة.

حاول الحطاطي أن لا يفقد توازنه وهو يمشي خطواته المترنحة وقد أصابته المضغة بالسكر، حاول أن يبعد اللوعة عنه فلا يتقيأ في المكان، شعر وكأن ثقل العالم كله على كتفيه ولكن كل تلك المحاولات باءت بالفشل فسقط على الأرض واستفرغ كل ما في جوفه والرجل ينظر إليه صامتا دون أن يقول له شيء.

ظل طريح الأرض لدقائق قبل أن يعود إليه توازنه، مسح فمه من البقايا بعد أن بصق المضغة وقام يغتسل من مياه الفلج وجلس قليلا بالقرب من الرجل صامتا وهو يتنفس بعمق، كانت النشوة قد أخذت برأسه فأعجبته تلك الحال، وما إن تلاشت حتى أقبل على الشايب حريمل يطلب منه ثانية.

ضحك حريمل مستغربا وكانت تلك المرة الأولى الذي يعيد إليه أحدهم طلبا:

- انته باغي تموت؟

لكن الحطاطي بقي مادا يده منتظرا من الرجل أن يفتح عن مضغته ويعطيه ما يريد.

منذ ذلك اليوم لم يرض الحطاطي بأقل من تلك المضغة، بل تحدى الشايب حريمل أن يزيد تركيز الغليون الحطاطي في مضغته ولكن الأخير صرخ في وجهه:

- طفر من قدامي يا ولد الجنيّة.

وبعدها حصل على لقبه الذي زامنه حتى كبر والذي صار يعرف به، الحطاطي وغليونه الذي لا يمكن أن يجاريه أحد في مضغته.

كان يضع كمية من أوراق الغليون في الظل المتوهج بعيدا عن ضوء الشمس، يقول بأن الشمس تضر بالغليون وتطرد منه مزيجه ويبقى بلا طعم ولا رائحة، وعندما تجف الأوراق يطحنها واحدة تلو أخرى برفق وببطء ثم يجمّع طحينها ويمزجه برماد الخوص حتى يعطيه نكهة خاصة.

مرة جرب المضغة دون أن يمزجها بالرماد فتآكلت شفته ولثته وتقرحت، عندها عرف لماذا تمزج بالرماد، واضطر أن يبق لأيام حتى يشفى بدون مضغة.

كبر الحطاطي في القرية كأحد الناس الذين يعيشون على الهامش، لا يكترث كثيرا بما يحدث في القرية، وبما أن الجميع لم يكونوا ينظرون إليه كرجل مهم، استطاع أن يعيش كما يحلو له دون أن يلفت النظر، مما أكسبه حرية لا يتمتع بها الكثيرون من جيله بعيدا عن قيود العيب والأعراف الإجتماعية.

للحطاطي أوقات معينة يضع فيها مضغته، ففي أول الصباح وبعد أن يتناول بضع فناجين من القهوة يدس الخليط في فمه ويغمض عينيه لثوان حتى يستشعر وصول النشوة إلى قمة رأسه، ثم يخرج إلى عمله ولا يتناولها مرة أخرى حتى الضهيرة، وذلك بعد ما يأخذ قليلا من الراحة يتبعها ببضع فناجين مرة أخرى ولا يفكر بها حتى العصر، عندها يأخذ جرعته الثالثة والأخيرة بعدها ينساها حتى مطلع صباح اليوم التالي.

ثلاث مرات في اليوم تكفيه لتعيد له توازنه، والليل كما يقول ليس للمضغة، المضغة تفتح شقوق الرأس، فإذا ما تناولها ليلا ستبقى عيناه مفتوحتان على صفحة السماء وهي تراقب كم نجم لمع وكم شهاب سقط، وسوف ينتابه الأرق حتى الفجر.

عمل الحطاطي بيدارا في ضواحي وبساتين الناس، لم يكن لديه نخل يخصه وذلك قبل أن يتزوج أسماء بنت نوفل، وبفضلها صارت له نخيل وأموال، ولكن قبل ذلك كان يكتفي بما يجوده عليه مشغلوه في أموالهم من تمور ونقود تكفيه لسد حاجته هو الوحيد الذي لا يعيل أحدا.

يقال بأنه ولد يتيما إذ مات والده قبل ذلك بأشهر ثم لحقته والدته بعد أيام من ولادته وعاش متنقلا بين بيوت الكثير من اهالي القرية دون أن يتبناه أحدهم .

عندما كان رضيعا أخذته خالصة بنت سالم وأرضعته لأشهر ثم عندما قررت الذهاب مع زوجها إلى مطرح تركته في بيت جارتها صبيحه بنت عمير، وعاش لثلاث سنوات حتى تخاصمت مع زوجها بسببه، قالت له:

- هذا ولد يتيم ما يجوز نعق به.

ولكنه أصر وقال لها وهو يخرج من بيته:

- ما أربي فبيتي ولد ما من أولادي.

فذهبت وتركته في تخوم القرية عند مسجد صغير ووضعت أمامه قبضة من تمر، فمرت عليه إحدى الشاويات حين وجدته يبكي وقد تلطخ وجهه بالطين وقد سقط قريبا من الفلج، فرق له قلبها فأخذته معها وكانت تسكن قريبا من القرية وبدأت تربيه وتطعمه من حليب أغنامها حتى صار عنده عشر سنوات، لكنها اضطرت هي الأخرى لتركه في مدخل القرية قبل أن تسافر بأغنامها إلى الوديان البعيدة وقد قالت لزوجها قبل ذلك:

- خله معنا، بيفيدنا في الرعي.

ولكن زوجها كان أحد المصابين بالوسواس، قال لها:

- بيكبر ويسرقنا، فلا حنه على أولاد ولا على هوش.

ولكن الحظ لن يترك ناصر بن سالم الحطاطي للموت جوعا، إذ مرّ عليه وهو يجلس تحت سدرة كبيرة في شريعة البلاد سالم بن علي، الذي كان قادما من بلاد الرستاق ووادي بني عوف، فرآه يجلس هناك وبجانبه صرة صغيرة، فسأله :

- على هين ناوي تروح يا ولد؟
- ما أعرف يا عمي، أمي خصيْبة خلتني هنا وراحت.
- هين راحت؟
- راحت لجبال، قالت لي: رجع بلادك وعيش بين أهلك.

كانت حالته يرثى لها من الحزن، ولأن سالم بن علي لا أهل له ولا أولاد قاده من يده وأخذه إلى بيته ليعيش معه، سأل عنه أهل البلد فأخبروه بحكايته، قال لهم سالم بن علي:

- كيف تصلوا وتصوموا وتذكروا ربكم، وولد يتيم يعيش بينكم ولا حد منكم يكرمه؟

كبر الحطاطي في بيت الشايب سالم بن علي الذي فقد بصره بعد فترة والذي لم يتبق له من الحياة غير تلك الحكايات التي يجترها كل يوم عن الأحداث التي شاهدها والتي عاشها.

وبسبب إصابة الشايب سالم بن علي في كبره بالعمى، ولأن الناس يحترمونه ويقدرونه ويعتبرونه من شيوخ وأعيان القرية فلقد صار الحطاطي مرتبطا به لأنه بصره الذي يرى به الدروب والمجلس الذي يحضر به الشايب سالم بن علي يكون فيه الحطاطي حاضرا بجانبه، وصار حامل أسرار الرجل ومؤتمنه على مشاكل الناس الذين يقصدونه.

عندما تزوج الحطاطي لم يترك الشايب سالم بن علي نهائيا، ولكنه كان يزوره ويجلس معه يوميا كلما كان بالقرية، فإذا ذهب إلى مكان آخر ما أن يعود حتى يذهب إليه ويحكي له عن كل شيء رآه وسمعه.

كان الحطاطي رجلا قويّ البنية مفتول العضلات، وبرغم تقدمه في السنّ إلا أن الجبال صقلت جسده، كان عندما يصافح أحدهم ويضغط على يده يشعر بها تنسحق في كف الحطاطي، ولذلك يهابه الجميع .

أوصل له أحدهم خبر بأن المطوّع علي بن مبارك يذكر اسمه في خطبه الوعظية عندما يتطرق إلى المسكرات، وينبه الشباب وينهاهم بأن يتخذوا طريق مضغة الغليون حتى لا يصبحون مثل ناصر بن سالم الحطاطي، فترصد له يوما في أحد المساجد وسمعه وقد بدأ خطبته، فانتظر ربما يلمح أو يذكر اسمه في بداية ووسط الخطبة ولكنها طالت ذلك اليوم حتى شعر بالملل وهو يجلس بالقرب من النافذة مترقبا، ثم أن المطوّع تنحنح وبدأ مرة أخرى وهو يتلو الآية:

- إن الله ينهاكم عن الفحشاء والمنكر والبغي.

فأنصت الحطاطي أكثر لما يقوله المطوّع، وما هي إلا لحظات حتى أتى على ذكر المسكرات وبدأ ينهى الشباب عن الذهاب في ذلك الطريق حتى قال:

- وبعضهم يعتقد بأن مضغة الغليون لا تذهب به إلى أعماق جهنم، ويعيش بيننا دون أن يخجل من ذلك، يضعها في فمه بدلا من أن يذكر الله به يحشوه بالمنكر.

كان ذلك كافيا أن يجعل ناصر بن سالم الحطاطي والذي لم يؤذ في حياته نملة أن يدخل إلى المسجد، وبينما كان المطوّع ينطق باسمه في خطبته، إذا به يدخل عليه من الباب ويمسك بتلابيبه ويجره من المحراب حتى صرح المسجد الخارجي، ثم يسقطه أرضا ويفرك رأسه في التراب، ولم يكتف بذلك بل أخرج المضغة من فمه وحشرها في فم المطوّع مدخلا إصبعه بين أسنانه وشفتيه قسرة، واستمر يفرك المضغة في فم الرجل ويدخلها في فتحتي أنفه حتى بدأ الرجل بالتقيؤ.

بصق في وجهه عندما قام عنه وهو يقول له:

- المرة الجاية بخليك تشرب مرجل غليون.

وقف عند مدخل المسجد ووضع مضغة جديدة في فمه، نظر إلى الحاظرين الذين تجمعوا صامتين في الصرح وخرج قاصدا بيته.

قيل بأن المطوّع سوف يشكو ناصر بن سالم احطاطي إلى الوالي وسوف يصعّد الأمر، ولكن لا شيء من هذا قد حدث.

منذ ذلك اليوم والمطوّع لا يتطرق إلى مضغة الغليون في محاضراته، بل أنه اختفى لأشهر في بيته حتى هدأت القرية من تناقل الحكاية وبدأ يعود تدريجيا بعد أن شعر بأن الناس قد نسوا الحادثة.

ولا شيء يُنسى في هذه القرية، فلقد كان الشباب المتنمرين الجالسين على طرقات ودروب القرية يصرخون أحيانا على المطوّع علي بن مبارك عندما يرونه قادما:

- جاك الحطاطي .. جاك.. جاك .

صار الحطاطي يضحك كلما تذكر تلك الحادثة، ويكرر ضاحكا:

- ود مبيريك باغي يدخلني النار بالغصب، مالهم رعاة هالبلاد شايفيني كأني هولة فعيونهم؟

مع كل ذلك كان الحطاطي ينظر لموضوع تغربه وهو صغير نظرة مختلفة، نظرة حسنة، فإن كان لديه أم وأب فلقد صار له أمهات وآباء وأعمام وأخوال، فصار ينادي كل من يلاقيه بقرابته له بالرضاعة، حتى عندما قدمت الشاوية بعد زمن إلى القرية هرع إليها مناديا لها بأمه، ولقد أثر الموقف فيها وبكت، جلست القرفصاء تحتضنه وتبكي ولسان حالها يستغفره ويتوب من جراء تركها له في شريعة البلاد.

انتظر الحطاطي صاحبيه وقد تأخرا حتى غربت الشمس وبدأت العتمة تكسو المكان، جاء سعيد بن حمد معلقا على كتفه جديا صغيرا من الشياه الشاردة عن أهل القرى، وصل وسلّم، كان الحطاطي يتتبعه بعينيه دون أن يسأله عن القنيصة.

أحس به ودون أن ينظر إليه قال له يعاتبه:

- حسبتك مزهب الحطب.

رد عليه الحطاطي ولم يزل يراقبه:

- الحطب بهار.

ثم انتظر صامتا ربما يبرر سعيد بن حمد سبب قنيصته، ولكنه بقي صامتا يجمع الحطب ويكوّمه فوق بعضه ثم أشعل فيه النار، سكب ماء من المطارة وشربه دفعة واحدة، ثم جاء وجلس بجانبه يلهث من التعب، ما زال الحطاطي ينظر إليه بذات النظرة، حينها تعب من تلك العينين التي تسألانه وقال له:

- مالك تشوف عليي كذا ؟ صيدة وجتنا من الله، جدي متوعر محد يعرف أهله وأحنه مشتاقين اللحم.
- يمكن حال حد من الشواوي؟
- باغي لحمة طازجة، والا لا ؟

سكت الإثنان برهة ثم ضحك الحطاطي بشدة وترددت ضحكته في الأرجاء ثم قال لصاحبه:

- أسميك محنة.

تلفت سعيد ولم يلمح عزان بن سعيد، كان قد تأخر كثيرا، وقبل أن يسأل عنه سمع وقع خطى في الوادي وفي لحظات وقف عند المطّارة يشرب ولم يرتوي حتى شرب ثلاثة أكواب وراء بعضها، انتظراه يستريح من تعبه ليحكي لهم، ولكن الحكاية تحولت مرة أخرى صوب القنيصة العلقة بالقرب من المرقد، والحطب المشتعل الذي بدأت ناره تضيء المكان، نظر ناحية سعيد بن حمد وسأله:

- أيش هذا ؟

قهقه ناصر الحطاطي من سؤال عانز، ضحك حتى دمعت عيناه ونكس رأسه محاولا التوقف عن الضحك، كان سعيد بن حمد يقاوم انفجار ضحكته بسن سكينه على حجر أملس، لكن نوبة الضحك التي لم تتوقف في فم الحطاطي جعلته ينفجر هو الآخر حتى استلقى على الرملة، كان عزان يقلب عيناه بين الإثنين، لا يفهم لماذا كل ذلك الضحك؟

وعندما وجد أنه من الصعوبة أن يوقفهما عن الضحك قال:

- لقيت العسل.

نظر الإثنان على بعضهما البعض، وقد خفتت حدة ضحكهما، ثم التفتا ناحيته دون أن يسألا، أشار في تلك العتمة ناحية القمم العالية وقال:

- هناك فوق.

عاد الحطاطي يضحك بشدة حتى بدأ يسعل، بينما كان سعيد بن حمد يضحك ضحكا مكتوما ويهتز جسده كله من جرّاء ذلك، سكت عزان واستلقى في مكانه ينظر إلى السماء وفجأة بدأ يضحك معهم، في البداية كانت ضحكته تأتي متقطعة، ثم انهمرت مثل شلال عال تسقط مياهه متدفقة إلى بطن الوادي.

إن عدوى الضحك تلك لم تكن وليدة ذلك المكان، بل كانت تنتقل معهم إلى أمكنة وأزمنة أخرى، كانت تعبيرا عن التعب الجسدي والروحي لهؤلاء الثلاثة الذين يقضون الآن متعة خلوتهم في أكثر الأمكنة قسوة وحرارة، وفي ذلك الوقت من العام، ولأن الجفاف قد طغى على كل شيء فلقد أصبح من عدم الجدوى المجيء إلى هنا، مع ذلك فهم لا يثني عزيمتهم شيئا، ولقد ملوا الجلوس في بيوتهم وسماع الكثير من شكاوي الناس وحكاياتهم وتذمرهم الذي لا ينتهي.

إن ذلك الضحك يبعث فيهم روح التمرد والتوحش، إذ يخرجون من عباءة القبيلة وتقاليد القرية إلى سلطة المكان والمطلق، هناك حيث لا تحدك الحدود إذ تقف في الصمت بينك وبين نفسك لا فاصل بينكما، وإذ تستمع لترددات الزمن وتحولاته وترى ذلك جليا على السفوح والوديان.

عندما جلسوا بعد ذلك على ضوء النار يقطعون اللحم ثم ينضدونه في مشاكيكه ويعدونه للشواء، ابتدأ سعيد بن حمد يحكي حكايته مع الجدي وكيف وجده.

كان يصعد صوب القمة متتبعا أثر عزان ولكن لمح في البعيد قطيعا من الأغنام يمشين على ضفة الوادي فتوقف ورفع منظاره ناحيتهن، قرب المنظار حتى رأى القطيع واضحا جليا، كانت ثلاث شياه كبيرة وجدي صغير لا تعدى ستة أشهر من عمره، ولأن لديه من الوقت الكافي للبحث عن العسل انحرف فجأة ناحية الوادي صعودا باتجاه القطيع وقد قرر الحصول على ذلك الصغير.

شعرت الأغنام بوجوده فصعدت ناحية الجبل، كان الصغير يتبعها وثغائه يتردد في المكان، وكانت الشياه تقطع مسافة ثم تتوقف منتظرة وليدها، بينما كان سعيد بن حمد يغذ السير حتى لا تغيب الشياه عن ناظره.

بالقرب من مدخل وادي المليل توقفت الشياه ونظرت صوب الأسفل فلم تر شيئا، قرر قناصها أن يلف صوبها من خلف الجبل الصغير الذي يفصل الضفة الشرقية عن الغربية، ولأنه يعرف تفاصيل المكان فلقد قرر مباغتتها من فوق حيث ستكون على مرمى من بندقيته.

بقيت الشياه ترقب الوادي متوجسة من ذلك الغياب المباغت، والذي زاد من حسن حظ سعيد بن حمد أن الريح كانت تهب ناحيته فلا تصل رائحته إلى أنوفهن.

قريبا من قمة ذلك الجبل الصغير نكس رأسه وجلس ثم بدأ يزحف على الأرض حتى أطل من فوق الجبل وقد وضع مقدمة بندقيته أمامه، لقد رأى الشياه هناك واقفة وما زالت ترقب الوادي حيث رأته للآخر مرة، بحث عن الصغير بالقرب منها حتى إذا رآه صوب عليه البندقية وأطلق الرصاصة على رأسه ليسقطه يتخبط في دمه على الأرض، بينما جفلت الشياه واندست صاعدة إلتواءات وادي المليل وغابت بين ثناياه.

جاء دور الحطاطي ليخبرهم عن بحثه ذلك المساء ولكنه رفع حاجبيه وهو يقول لهم :

- ما عندي شي.

عندها قال سعيد بن حمد وهو يلقي بنرد الحكاية صوب عزان بن سعيد :

- من صوبك راعي العسل.

ابتسم عزان وبدأ يخبرهم قصته منذ صعوده إلى قمة وادي وعلة، وكيف شك بأن العسل ليس قريبا، العسل هناك في إحدى القمم، ولأنهم لم يصلوا إلى قمة وادي وعلة فلربما يكون هناك، ولقد زاد من يقينه أن كل الأماكن التي بحثوا فيها لم يعثروا فيها على شيء.

علل عزان وجود الخلية في القمة وذلك بسبب حرارة المكان، ففي القمة تكون الريح ألطف ويكون الهواء أبرد قليلا مقارنة بهواء الوديان، وفي هذا الوهج من السنة لا يمكن لأي خلية أن تمكث قريبا من الوادي ولابد أن تبحث عن مكان لبيتها يكون في منأى عن الحرارة المستعرة.

هو الخبير بسلوك النحل والذي تعلمه من صاحبيه الذين لم يبخلا عليه بما تعلماه، وهو النحال الذي يقضي جل وقته في منحله يراقب ويدرس كل خلية وما تحتاج، صارت قراءة الحالة لديه

أسهل، لذلك قرر أن يصعد كل ذلك العلوّ ويبدأ في البحث هناك، وهذا الذي أخره عن المجيء حتى غربت الشمس.

عندما وقف في الحد الفاصل بين عقبة النخلة ووادي وعلة جلس ليستريح فرأى القرية من هناك، وبحث عن مكان ما في ذاكرته، بحث في التفاصيل البعيدة لعله يستطيع أن يرى شيئا ما يود أن يبصره، ولكن قرن قمة جبل الطايح أعاقه وقد أسدل المكان بحدبته المهيبة.

مشى ناحية القمة وبدأ يفتش كل ما يمر عليه من شجر وحجر، الكهوف على قلتها أيضا فارغة، لم يعثر على شيء، كان هناك الكثير من الوقت ما يزال في حوزته ويستطيع أن يشرف على ملتقى الوديان هناك في تلك الشرفة العالية، لكنه ظل يفتش في كل الأرجاء لعله يعثر على خلية النحل، وكلما قطع شوطا في البحث تقلصت لديه البقعة التي يحاصرها، ولابد أن كل تلك البقاع ستنتهي في النهاية في اكتشافه.

الوديان كلها قاحلة، وتحتاج النحلة إلى الماء لتروي به عطشها وعطش صغارها وكذلك لتلطف به مناخ الخلية ليبقى باردا حتى لا يفسد البيض، فإذا كانت في ذلك العلو فعلا فمن المحتمل أن تقطع النحلة كل تلك المسافة حتى تحصل على الماء، ثم ماذا سيعيقها؟ وهي التي تقطع المسافات اليومية بما يقارب الخمسة كيلومترات هل سيعيقها أن ترتفع إلى فوق؟ هكذا فكر عزان وهو يستكشف المنحدرات الصخرية في وادي وعلة.

البحث عصرا يعطي الأمل دائما للعسّال، ففي تلك المرتفعات تهبّ الرياح ملطفة الجسد المعرقّ، طاردة العطش والجفاف عن فمه وحلقه، تمر النسمات على الجسد المبلل فتلاطفه وتطرد عنه التعب، ثم تعطيه الأمل والقدرة لمواصلة الصعود، عكس الصباح تماما، حيث تتوقف الرياح عن الحركة، وعندما يبدأ العرق بالهطول من كل أنحاء الجسد سيكون ثقل البلل على الإنسان أشد وطأة من شدة اللهاث ومن تعب عضلات الأرجل التي تنشد قليلا من الراحة، ترتفع دقات القلب ثم يصير الهواء ثقيلا تحت وطأة الشمس الحارقة التي ما أن يطول النهار حتى تزداد حدة وتوهجا.

وأخيرا وجد نفسه في القمة، استراح هناك متنعما بالهواء البارد الذي يجرف تعبه إلى البعيد، لو أنه ينام هنا، استرخى ومدد رجليه، استلقى على ظهره واضعا مطارته الفارغة تحت رأسه وراقب تكون غيمة في صفحة السماء، كانت نصف داكنة ونصف قرمزية، وقد بدت السماء غبراء من شدة الغبار في ذلك الوقت.

في الجهة الشرقية للقمة كهف غار عميقا فيها والذي يراه من البعيد لا يعتقد باتساعه، ولكنه برغم فتحته الضيقة إلا أنه في الحقيقة يتسع لحيوان جبلي، ولأنه جلس وقد حجب ضوء الشمس حتى لا تصل إلى مكان الكهف لم يكن يلمح النحل الداخل من مكانه، لكنه عندما مال بجسده إلى اليمين متكأ على ساعده ليرقب وادي الجروف لمح وكأن ثمة حشرات تسقط بالقرب منه، ركز نظره الحاد والثاقب ولكن الظل أكل ظلال النحلات الصغيرة.

كان الكهف على مقربة منه، جلس فبانت أجزاء منه وتأكد أخير بأن ثمة حشرات صغيرة ترقص على فوهة الكهف.

- ليش ما قلعته؟

قاطعه الحطاطي سائلا، ولكن عزان استمر يحكي ما حدث وكأنه لم يسمع سؤال صاحبه.

كانت خلية كبيرة، لقد ملأت فم الكهف وتمددت وانتشرت في عمقه، أحضر بعض أعواد السخبر ونكش النحل عن حدبة العسل فبانت مختومت وكبيرة ، ولأن لديه ماعونا صغيرا خاف أن يفيض الماعون ففضل أن يأتي غدا في الصباح الباكر ليقطف الخلية.

شيء آخر جعله يتردد هو الوقت، فلقد كانت الشمس على قمم الجبال البعيدة ستسقط بعد برهة، لذلك خشي من العتمة أن تحل ولم ينهي عمله، قال في نفسه:

- الصباح رباح.

قام سعيد بن حمد إلى النار التي قد أكلت الحطب وتحول معظمه إلى جمر، بدأ يجمّع الجمر فوق بعضه، بقي الرفاق يشكّون اللحم في المشاكيك صامتين حتى مزق الحطاطي غلالة ذلك الصمت وهو يقول لهم:

- سمعوا هذي الحكاية.

(١٣)

تكثفت الغيوم شيئا فشيئا على صفحة السماء، اختفت النجوم وأظلم الوقت أكثر، زادت العتمة سوادا فوق سوادها، واستيقظ الرفاق عند الفجر على برودة الهواء الذي نزل فجأة في ذلك الصيف، صلوا الفجر ثم شربوا قهوتهم وقرروا مغادرة المكان متجهين نزولا في الوادي صوب النمارات، حزموا حقائبهم استعدادا للرحيل، في الوقت ذاته تسلق عزان بن سعيد الدرب الصاعد إلى قمة وادي وعلة ليقطف العسل ثم يهبط عليهم من الجانب الآخر لوادي النمارات.

لم يأخذ معه شيئا من الزاد، توكل سعيد بن حمد بحمل حقيبته في حين أخذ لديه قربة كبيرة مخصصة للعسل تكفي للخلية التي عثر عليها البارحة، راقبهم في صعوده حيث يحثّان الخطى في انحناءات الوادي، بينما بدأ عواء الريح يتردد على السفوح.

بعد أن اختفى في الحد الفاصل بين الواديين لم يعد يراهما، تسابق مع الزمن وهو يرى تكثّف الغيوم في البعد وقد اسودت وكادت تذوب ماءا من قتامتها، تنبأ بالمطر، وتمنى لو يمهله الوقت حتى يجني العسل ويهبط صوب أصحابه إنما نزل طشاش المطر رهيفا خفيفا على رأسه قريبا من القمة الثانية التي سيتسلق بعدها القمة الأخيرة.

عندما وقف قريبا من الكهف الذي تقبع الخلية بداخله انهمر المطر لدقائق ثم توقف، أيقن أن ذلك مجرد إنذار بمجيء دفقة أقوى، لهذا أسرع في جني العسل.

قصّ بسكينه طوق الخلية ووضعه جانبا، أزاح النحل ببعض الأعواد اليابسة لعشبة سخبر وما إن تأكد من هروبه إلى الجانب حتى وضع فم القربة الكبير تحت حدبة العسل مباشرة وجرفها بسكينه لتسيل منحدرة إلى بطن القربة.

كادت القربة أن تمتلئ عن آخرها بالعسل، تيقن بأن كل ذلك البحث عنها لم يكن دون فائدة، فمثل هذه الخلية تستحق البحث من الجميع، فلربما ملأت خمس أو ست غرشات، أغلق فمها بحزام الجلد وأحكم غلقه كي لا يتدفق العسل خارجا، ثم نظف سكينه ولعق أصابعه مما علق فيها من عسل حلو طيب، حيث النكهة التي تتصاعد إلى الرأس والرائحة الذكية للعديد من زهور الجبل مختلطا كل ذلك ببعض زهور البرم.

قام من انحناءته تلك على الكهف الصغير بعد أن أعاد الطوق إلى مكانه راكزا إياه ببعض الحجارة القريبة، أخجر رأسه ليقوم فسمع صوت الرعد قريبا منه، الصوت الذي أعلنت السماء به هطول المطر الكثيف، وفي ذات الوقت وكأنه يسمع صوت كلب تردد على سفوح الجبال بعد صرخة الرعد القوية.

توقف يرقب البعيد، المطر قد بدأ يغطي القمم والسفوح، وما هي إلا لحظات حتى انسكب الماء على الجبل وبلله كاملا دون أن يتوقف.

حمل القربة على كتفه ونزل حذرا يقاوم المطر والريح ويتقي شر الصواعق التي تصرخ أعلى رأسه، في ذلك الجبل الصلد الذي لم يعهد كهفا يسعه ليدخل فيه، مشى على الحد الفاصل للقمة متجها هبوطا فيها مبتعدا عن مجرى السيل، مشى على حجارة بدأت تتفتت تحت أقدامه وقد أرخى المطر من صلابة الأتربة بين تشققاتها، حاذر أن لا يقع، ولا يدري ما الذي يفعله في تلك

اللحظة التي تعني أن وقوفه فيها خطر جدا وتحركه إلى الأمام أخطر من ذلك بكثير، لكنه منى نفسه بالعثور على شق جبليّ يندس تحته اتقاءا من شدة المطر.

مرّ على أرض رخوة من التراب والحصى فشعر بأقدامه تثبت في خطواتها، اطمأن لذلك وبقي ماشيا إلى الأمام لا يرى إلا الغبش البسيط فالضباب الكثيف هبط على القمة، استمر يمشي إلى الأمام وما هي إلا لحظات حتى شعر بالأرض تنهار تحت قدميه ويسقط في حفرة عميقة كانت كهفا غائرا في الجبل غطته طبقة من الأتربة ولم يعرف عنه أحد من قبل.

سقوطه المدويّ ذلك توافق مع قصف رعد أعلى قمة الجبل، سقط إلى الداخل ولم يستطع موازنة جسده بسبب البلل فاندق رأسه بالصخر وغاب عن وعيه تماما ولم يشعر بما حدث بعد ذلك.

لم يكن الحال أهون بالنسبة لصديقيه، فما إن بدأ هطول المطر يشتد حتى صعدا الدرب الجبلي بعيدا عن مجرى الوادي، لكن الحطاطي يتذكر كهفا في الجبل الغربي بات فيه ذات ليلة شتوية فدل عليه صاحبه واتجها نحوه حتى وصلا بصعوبة جدا وبعد إرهاق وبلل ينتفضان من البرد، دخلا الكهف وبقيا هناك في منأى عن الريح والمطر.

ثلاثة أيام بلياليها ظلا عالقين في ذلك الكهف، هدير الوادي من أسفلهما يحجب كل صوت ما عداه، أما المطر فيأتي على شكل دفعات مكثفة تستمر كل واحدة منها إلى نصف ساعة ثم تتوقف لدقائق قليلة وبعدها تأتي دفعة أخرى.

هناك في ذلك الكهف الذي يفصلهما عن العالم أمسى القلق على صديقهما عزان يأكل كل شيء فيهما، لم يشعرا بالجوع ولا بالعطش، وكلما خفت المطر قليلا راقبا السفوح والمنحدرات ربما يلمحان خروجه، بينما ضاع صراخهما في النداء عليه في ذلك الهدير الذي يملأ الأرجاء.

في الليلة الثالثة توقف المطر تماما، صحا سعيد بن حمد من رقدته التي نامها من التعب والإعياء وهو الذي لم يذق لذة النوم مذ صار يفكر في عزان، نام لساعات ثم استيقظ وقد توقف المطر ، لم يوقظ الحطاطي لكنه خرج ليستكشف الحالة من حول الكهف، فلاحظ أن الغيوم قد انقشعت وبدا الفضاء صحو والنجوم لامعة، لكنه عندما نظر إلى مجرى الوادي رأى السيل ما يزال يغطي المجرى منجرفا صوب القرى البعيدة.

بعد عدة فناجين من القهوة ذلك الصباح خرج الصاحبان ليبحثا عن عزان بن سعيد في السفوح المجاورة، ناديا عليه وأطلق سعيد بن حمد النار من بندقيته لعلها تخترق ذلك الهدير المتواصل للسيل، واستمرا في البحث عنه صاعدين إلى القمم المجاورة لكن حتى ذلك الوقت لا أثر له.

اتفق الصاحبان على أن يبقى سعيد بن حمد في المكان ليبحث عنه وعلى الحطاطي أن يذهب إلى القرية ويبلغ الناس بما حدث حتى يساعدوهما في الاستكشاف، وما إن خفت حدة السيل وبدأ منسوب الماء يتناقص حتى شد الحطاطي رحله صوب القرية، هابطا الوادي ناحية النمارات ولم يتوقف إلا عند عقبة العين، وعادت به الذاكرة إلى المكان الذي انتظره صديقاه فيه، وما إن وصل إلى البلدة حتى ذهب مباشرة إلى بيت الشايب سالم بن علي وأخبره بما حدث وبدأ اتصالاته في الناس الذين جاءوا مباشرة واجتمعوا أمام منزل الشايب سالم بن علي، عازمين على المضي للبحث عن الرجل المفقود.

اتصل أحد الأهالي بمركز الطوارئ وأبلغهم بالحادث وطلب منهم المساعدة في البحث، وبعد دقائق تم الرد عليه من قبل المركز بأن فريقا يتكون من عشرة أشخاص من أفراد المهام الخاصة قادمون في طائرة مروحية وعليه أن ينتظرهم حتى يدلهم على المكان.

عندما ذهب الحطاطي ناحية القرية، اتجه سعيد بن حمد مباشرة ليصعد ناحية القمة التي وصفها له صاحبه، ولأنه يعرف المكان جيدا فلقد قطع اختصارات جبلية قادته مباشرة إلى المكان، وهناك ودون تعب ومشقة عثر على الكهف الصغير الذي ما زالت الخلية تتعلق في وسطه، وأيقن بأن عزان قد جنى العسل وذهب ، لكن أين اتجه بعد ذلك لا يدري، وبينما هو يبحث في الجوار عثر على ذلك الكهف العميق الذي يراه لأول مرة، فحنى رأسه يستطلع ما بداخله لكنه لم يعثر على شيء.

حدث نفسه:

- إن ما كان في هذي الخشلة هين بيكون؟

هبط متتبعا وادي وعلة حتى نزل إلى النمارات، نادى بصوته لعل أحدا يجيبه ولكن لا مجيب، صعد مرة أخرى باحثا بين شقوق الجبل لعله يعثر عليه ساقطا هنا أو هناك لكن لا أثر له، تعجب سعيد بن حمد من ذلك فأي أرض بلعته وأي مكان أخفاه.

هرع الكلب راكضا أمام الراعية، هبطت المنحدر صوب المكان الذي شاهدت فيه الرجل من ذلك البعد في سفح أحد الجبال من وادي الجريف حيث كانت تحمي نفسها وأغنامها في كهف كبير، وما إن حانت فرصتها لإنقاذه بعد أن خفت المطر لبضع ساعات في اليوم الثاني حتى هبّت راكضة تسحب خلفها الحمار ويسبقها كلبها السلوقيّ حتى وصلت عند فتحة الكهف.

ربطت حبلا في جذع شجرة شوع بالجوار وبعد أن أوثقت الحبل تماما نزلت إلى الكهف، فعثرت عليه على هيأته تلك منذ سقط لم يتحرك أبدا بينما ظل يهذي بكلام لم تفهمه، فربطت الحبل حول صدره ويديه وأوثقته جيدا ثم خرجت من الكهف واستعانت بحمارها في جر الرجل إلى الخارج، ثم فكّت الحبل عنه ورفعته بصعوبة لثقله على ظهر حمارها وذهبت مسرعة ناحية الكهف الذي تقطن فيه.

انتقلت ثمنة بنت علي بقطيعها قبل أسابيع قليلة بينما ظلت مدة طويلة في وادي المزارع، عزمت على المضي ناحية جبل المنازل ربما تجد هناك ما يكفي من مرعى لأغنامها فأعجبها المقام في وادي الجريف فظلت هناك طول تلك الفترة، وفي مساء ذلك اليوم الذي عثر فيه عزان بن سعيد على خلية النحل سمعت طلق النار يأتي من صوب الوادي، لكن أغنامها في مأمن حولها ولم تكن تلك القنيصة التي اصطادها سعيد بن حمد تخصها، وهو يدرك تماما الفرق بين الأغنام المستأنسة وتلك التي توحشت، رأت التغير الحاصل على صفحة السماء من تكثّف الغيوم فأدركت بفطنتها أن أمطارا قادمة في الأيام التالية، فبحثت عن مأمن حولها حتى عثرت على ذلك الكهف الكبير الذي يسعها مع قطيعها فاتجهت ناحيته.

لقد ملأ الطمي والدم وجهه ولم تتعرف عليه إلا بعد أن مسحت تلك العوالق عنه، فتعجبت من تلك الصدفة الغريبة أن تلتق بذات الرجل الذي رأته منذ أشهر في منطقة النجد، ما الذي جاء به إلى هنا، وتذكرت القربة التي وجدتها معه ففتحتها فإذا بها ملوءة بالعسل.

نظفت له جراحه وأوقدت النار بجانبه حتى يدفأ، وبعد إن انقشع المطر وأشرقت شمس اليوم الرابع فتح عينيه دون أن يدري أين هو، وكأنما كان في حلم أو كأنه ما يزال في ذلك الحلم الذي ترددت فيه عيناها على زيارته دائما، وسمع همسها في غيبوبته تلك ولا يدري هل كانت تهمس بما قالت حقا أم أن ذلك كله من أثر السقوط.

حاول أن يقوم ولكن الرضوض التي في جسده أعاقته، اقتربت منه وحملقت في وجهه، كانت قريبة جدا، رأى صفاء عينيها وعذوبة وجهها، ابتسمت له فشعر بالدنيا تدور من حوله، أغمض عينيه وفتحهما ربما يزيح بذلك جانبا من آثار حلمه العجيب ولكنها كانت حقيقية الآن، هنا عنده، في الوقت الذي بحث عنها في كل البقاع المجاورة ولم يجدها.

قالت له عندما استيقظ وأدرك مكانه:

- هذا العسل هلك الجميع، حد يموت وهو يدور عليه وحد يطيح وما يلقوه.

ابتسم لها وتفتحت زهرة في فؤاده عندما عاد من غيبوبته تلك وسألها:

- وين أنتي، دورت عليش.

أجابته ضاحكة وهي تمسك وجهه من أثر العرق:

- هنا عندك أحرص العسل من زمان وما وصلني، وبدل ما تجيب لي غرشة وحدة لقيتك جايبلي قربة عسل كاملة.

تذكر بكلامها ذلك كل ما حدث له، وكان آخر ما يتذكره هو انزلاقه في ذلك الكهف الغائر، أخبرها بأنه افتقدها في جواره وبحث عنها ولم يجدها، فما كان منها إلا أن قالت:

- ما عجبني المكان، جبال الحلوي أحسن.

ثلاثة أيام في ضيافتها، صنعت له حساء الشعير وسقته من حليب شياهها، بات القلق يأكله على صاحبيه ولا يدري عنهما شيء، ماذا فعلا في تلك الأيام، هل جرفتهما السيول أم نجيا، وهو يدرك أنهما إن كانا حيين فهما الآن يبحثان عنه في كل مكان.

أخبرها بحكايته وعن صاحبيه فتبين له بأنها تعرفهما جيدا، وبأنها تعرفه مذ كان شابا يافعا، عندما سألته:

- ما انته عزان حليه.

ضحك، فتألم، شعر بوخز شديد في صدره من أثر السقوط، طلبت منه أن يهدأ، وحكت له كيف عرفته منذ زمن بعيد.

أخبرته بأنه لم يتغير كثيرا، ملامحه ظلت كما هي، ولقد مرّت ذات يوم بقريته وبينما كان طريح الأرض من شدة السكر عند لمباة الغلالة مرّت مع أمها بالقرب منه ورأته على حالته تلك، هزت أمها رأسها شفقة عليه وأمسكت بيد ثمنة وذهبت مسرعة خوفا من أن يصحو ويجدهما بالجوار فيحدث ما لا يحمد عقباه.

الكثير من المرات في تلك السنين صادفته في سكك القرية، يجرجر رجليه أحيانا من شدة السكر، وأحيانا أخرى يجلس قرب الفلج يغني بلسانه الثقيلة، أو تلاحظه من بعيد وقد التم حوله الصغار يضايقونه، وهي تتحسر على شبابه الذي يضيعه في ذلك الشراب اللعين.

- لكني تغيرت.

نظرت إليه وقد أوقفت إبرتها التي تعمل في قطعة القماش، وقالت له:

- أعرف عنك كل شيء.

تعجب من كلامها، فما الذي تعرفه عنه، هناك الكثير مما يجهله هو نفسه عن نفسه فما الذي تعرفه، فسألها:

- أيش تعرفي؟

أجابت ضاحكة، فأشرقت عيناها العسليتين ورفّ قلبه لتلك الضحكة وللمعة العينين الساحرتين:

- أعرف اللي يكفي وزيادة

في منتصف ذلك النهار سمعت ثمنة صوت إطلاق نار بالقرب، ثم تناهى إلى سمعها صراخ بشر فخرجت تستطلع ما يحدث وخمّنت أنهم يبحثون عنه، فما كان منها إلا أن دخلت لتخبره قائلة له:

- يدوروا عليك.

قال لها راجيا:

- خليني عندك، قوليلهم هو عندي وأنت بتعالجي جروحي

لكنها هزّت رأسها غير موافقة على كلامه:

- عندك جروح وكسور كثيرة ولازم تتعالج في المستشفى.

مد يده وأمسك بكفها ونظر إلى وجهها نظرة أخيرة ليقول لها:

- هين ألقاش؟

أجابته والحنان ينبع من وجهها في تلك الابتسامة التي تبعث الدفء في قلبه:

- فكل مكان، تعال أحرصك.

خرجت ثمنة ناحية وصاحت على أقرب شخص بالجوار وسمعها، لوّحت بيدها ليستدل على مكانها، اقترب الرجل منها وأخبرته بأن عزان بن سعيد عندها، واطلعته على حالته التي تحتاج إلى عناية خاصة ولابد أن يحمل إلى المستشفى، فما كان من الرجل إلا أن هرع إلى حيث يقف سعيد بن حمد ويخبره بمكان صاحبه.

بعد ساعة بالتمام من ذلك الحدث كانت مروحية الشرطة تقف في السيح الممتد قريبا من قمة وادي الجروف، بينما رجال الانقاذ يخرجون من الكهف حاملين عزان بن سعيد في نقالتهم نازلين به السفح صوب الطائرة، ثم يزيد هديرها محلقة لتترك المكان فارغا إلا من ثغاء بعض الشياه التي أزعجها ذلك الضجيج الذي سببته الطائرة.

قضى عزان بن سعيد اسبوعا كاملا في المستشفى حتى شفي، لم تكن به كسور خطيرة ولكن الرضوض التي أصيب بها استدعت وجوده تحت الملاحظة خوفا عليه من نزيف داخلي، وعندما بدأت حالته بعد ذلك بالتحسن خرج من المستشفى وعاد إلى بيته.

في اليوم التالي اتجه إلى النجد حيث تنتظره المفاجأة الأخرى، هناك حيث وضع منحله في ذلك السيح الممتد، كان الخراب قد عمّ المكان وانتهى كل شيء.

في ذلك المكان المكشوف والذي كان عرضة للريح والعواصف الشديدة من جراء الحالة المناخية التي مرّت تلك الأيام، بقي نحله في العراء تعصف به الرياح وتضربه الأمطار، سقطت المناحل من على القاعدة الحديدة على الأرض وانكفأت على نفسها وتطاير النحل ومات أكثره، بينما أخذت الريح الكثير من تلك الصناديق ودحرجتها بعيدا لتنهي على جميع الطوائف التي سكنتها، وتبقيها معرضة لزخات المطر الكثيفة التي تدفقت لثلاثة أيام حتى قضت على النحل كاملا .

بقي جالسا في وسط المكان بين القواعد المتهالكة على الأرض لا يدري ماذا يفعل بتلك البقايا عديمة النفع، وها هو قد خسر ما يقرب من مئتين وخمسين خلية ثمنها يزيد عن الثلاثين ألف ريال، ظل يفكر ويفكر وشعر بالفقد يتمدد متماغطا مثل سحابة سكبت ما بداخلها من مطر وصارت خفيفة على صفحة السماء.

فتح الصناديق المجاورة فوجد فلول النحل الميت في جوفها، بينما كانت الحضنة ما تزال في البراويز وقد تيبست قبل أن تفقس بينما غزت جيوش النمل معظم الصناديق لتحتلها متغذية على بقايا العسل والحضنة الباقية.

رأى كيف تناثرت الخلايا في الجهات حتى وصل بعضها إلى أطراف الجبل، وكيف جرفت السيل بعض تلك الخلايا ولم يعد لها أثر، بدأ يلملم ما تبقى من تلك الصناديق ويجمعها حول القواعد الحديدية على أمل أن ينقلها إلى مزرعته لعله يستفيد منها في الأيام المقبلة.

لم يعثر على خلية واحدة أبدا، ولقد أبيدت جميع خلاياه في تلك العاصفة ذاتها التي أسقطته في هاوية الكهف الجبليّ، وأسقطت معها في البعيد منحله العزيز الذي تعب فيه لسنوات كثيرة حتى كبر وبدأ ينتج له العسل الوفير.

فما الذي سيفعله الآن في حياته؟ إذ لا حرفة ولا عمل لديه يحبه سوى ذلك المنحل الذي اعتاد عليه.

إنها قسوة الطبيعة عندما تبدأ فهي لا ترحم المخلوقات الضعيفة، تمر بجبروتها في المكان غير عابئة بالحيوات الصغيرة اتي تدمرها، فمثلما تحدث البراكين والزلازل، ومثلما تغرق المدن من الفيضانات ويغيب ملايين البشر في غياهب النسيان جراء غضبها، هاهي تمر بكل ما فيها من عتو على ما بقى له من هذه الحياة لتجعله فارغا وحيدا لا يدري ماذا يفعل ولا إلى أين يتجه.

عاد إلى البيت منكسرا يحمل خيبة كبيرة فوق ظهره لا تقل خسارة وفقدا مما لقاه في عمره من فقده لوالديه، ولأنه لا صديق له ولا رفيق يؤانسه سوى سعيد بن حمد والحطاطي فلقد ذهب إليهما وأخبرهما بما حدث معه، ثم ذهب إلى بيته وأوصد الباب عليه وظل هناك حزينا يبكي ضياع تعبه وأيامه.

ظل لأيام لم يبرح باب بيته غارقا في كآبته، ولقد زاره صاحباه وحاولا أن يخففا عنه وطأة الخسارة والحزن، وبعد فترة قرر الذهاب ناحية الجبال، ولكن هذه المرة ذهب لوحده دون أن يخبرهما إلى أين يتجه.

أخذ بعضا من الزاد في حقيبته وأطلق لقدميه الدرب الجبليّ مستقبلا قمم وادي الجريف وقد اختصر الكثير من الدروب صاعدا إلى عقبة الرفاص حتى وصل إلى حيث عثرت عليه، ولقد نوى أن يعيش معها حياته الباقية دون الرجوع إلى القرية، فبقربها يجد روحه وسيعيش عمره الباقي قريبا من عينيها العسليتين التي يحب أن ينهل منهما الحب والحنان والكرم والرضى بما حدث له ولها في ذلك الزمان.

كلما أرادها أختفت، وكلما شعر بفقدها ظهرت له من الغياب، وها هي تغيب مرة أخرى وتترك له وادي الجريف خاويا لا صوت ولا أثر لها، ولا يعلم أين اتجهت، جلس بالقرب من موقد النار وتحسس الرماد بأصابعه، خمّن أنها ارتحلت منذ فترة وجيزة، جلس يفكر أين سيجدها؟ ولماذا لم تنظرته حتى يعود؟ لكنه هذه المرة قرر أن لا يعود أبدا إلى دياره، وسيظل يبحث عنها في كل الوديان حتى يعثر عليها، سوف يخطبها من نفسها وسيتزوجان تحت هذه القمم، تحرسهما النسور ويغنيان معا تعويبات كثيرة، سيتعلم منها كيف يُعوّب ويغني مواويل الرعاة الحزينة.

الشاوية الوحيدة في هذا العالم، الشاوية التي أحبها بقدر ما في صدره من قلب، ها هو ينصت إلى صوتها القادم من خلف الحجب الصخرية، يسمعها تناديه تعال تعال، لنعش في هذا الغياب حياتنا دون أن يعرف بها الآخرون، تعال هنا أنتظرك في هذه الوديان حيث الينابيع العذبة وحيث الريح تحمل الحكايات وتنقلها للسفوح ثم تذروها في العدم.

تذكر كلامها له في الكهف حين قالت له بأنها كانت متجهة صوب جبل المنازل، رفع رأسه صوب القمم البعيدة، ويمم وجهه صوبها وحثّ خطاه ليغيب في ظلال الوديان السحيقة.

تمت في الرابع عشر من يناير ٢٠١٧